

أحمد مراد

الفيل الأزرق

رواية

دار الشروق

أحمد مراد



دار الشروق

الفيل الأزرق

أحمد مراد

تصميم الغلاف: آدم عبد الغفار

الطبعة الأولى ٢٠١٢

الطبعة السابعة ٢٠١٤

تصنيف الكتاب: أدب / رواية

٨ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
www.shorouk.com

رقم الإيداع ٤١٠٢/ ٢٠١٣
ISBN 978-977-09-3227-8

سبتمبر..

درجة الحرارة، ٤٣ °C..

منبّه المَحمول انتزعني من غَياهب النَّوم، رَاقدًا على جانبي الأيسر ألفظ أنفاسي، قَلبي مُنسحق في ضلوعي، صَفراء مَعدتي تَسلُخ حَلقي والعَرق يَكسوني كمُلاكم في جَولته الثانية عشرة..

مَددت ذِراعي قَسرًا إلى المِنضدة فَلم تَتحرّك تَنميلًا، نَفضتها ليتدفّق الدَّم فيها قبل أن ألتقط المَحمول لأُخرس إلحَاح جَرسه المُستَفز، تَحاملت لأجلس مُقاومًا سَكرات الاستيقاظ وصُداع شَرعي من بقايا الكُحول في أورِدَتي، جَمرة مُستعرة في مُؤخرة رأسي تَصبّ الحُمم بين عَينيّ، في مِرآة الدولاب المُواجه لَمَحتني، مَأساة إغريقية لن تدوّن! فَرَدت ظهري فطقطقت فقراتي ألمًا قبل أن ألفف سِيجارة الاستصباح وأنا أتأمّل المَاكينة الـ«Harley Davidson» «لون كريمي» طِراز «Fat Boy» ١٣٢ فرس؛ الرَّابضة بجانبي تَحتضن المِخدّات بَين سَاقيها، ليلة أمس

رَوَّع زَئير مُوتورها جيراني وترك لي رُكوبها شدًّا عَضليًّا، تأمّلت مُنحنياتها القياسية، مَنكبيها نَاصعي البَياض المُرصّعين بالنَّمَش، خُصلاتها الغَجرية العَابقة بالكُحول، وعدّادي السُّرعة المُدلّلين اللذَيْن تركت عليهما بَصماتي..

مَايا.. حالة الجو مَعك دائمًا..

صَيفًا كاريبيًّا.. على القمر..☺

استحلبت نيكوتيني ثم أنزلت قَدمي أتحسَّس شِبشبًا تَرنّحْت فيه حتّى المَطبخ على صَوت طَقطَقة كَاحِلي المُعتادة في كُل خُطوة، التقطت من الثلّاجة زجاجة «Meister» ترتجِف، لا يِفل صُداع كُحول إلا الكحول! تَجرّعتها دُفعة واحدة ثم أضفت الزجاجة بحِرص إلى هَرَم الزجاجات الفَارغة الذي أصدرت قرارًا بتشييده منذ شهرين ليَحمِل اسمي تخليدًا، بِضع زُجاجات إضافية وأبلغ القِمّة! حَملت مُكعّبات الثلج من الفريزر إلى الحمّام، فتحت المياه بعدما وضعت السدّادة ثم أفرغت يديّ، امتلأ الحوض فدَسست رأسي في المياه المُثلّجة قَبضًا لأوعيتي المُحتقنة، مُحاولة دبلوماسية لإقناع الدّم بالكَفّ عن طَرق رَأسي، دَقيقة وخبَت الجَمرة، ثم انطفأت، زَفرت أنفاسي في سَبعة وثلاثين عَامًا مَعكوسة أمَامي في المِرآة! زَمنًا يُغيّر فيلًا، لكنه يَظل فِيلًا بخُرطوم! أمّا أنا فلا! كُل سنة تمرّ ألقى في المرآة غريبًا أبذل جُهدًا في استيعاب قَسماته، مُقارنةً بصور الثانوية العامة؛ أنا لم أعد أمُتّ لي بصِلَة! هذا بالإضافة لعوامل التعرية؛

ذقن تَغزوها الشُّعيرات البَيضاء باستحياء، أسنان تَطمسها السَّجائر والقَهوة بالتناوب، وعَينان تَزحف عليهما العُروق الحمراء زَحف اللبلاب على الجدران..

مَوت خفيف..

استسلمت لدُشّ بَارد قبل أن أغرس قَلم الأنسولين الرَّحيم في فَخذي، ثَلاثون وحدة يُعوّضون تَقاعس بَنكرياس مُخزٍ ويَحرقون مقدّمًا ما «سأرمرمه» من الشارع حتّى الليل، سَحقت سَميطة في قطعة جبن وأنا أرمق ظَرف خِطاب الإنذار المُلقى فوق المنضدة، أخرجت الورقة مِنه وتمشّيت بعيني فوق كلماته اللزجات..

إنذار رقم ٢: «انقطاع عن العمل بدون إذن»..

«السيّد/ يحيى... ممم... وحيث إنك قد تعدّيت المدة القانونية «١٥ يومًا» مُنقطعًا عن العَمل بدون إبداء إذن تقبله الإدارة... ممم... فإن الإدارة مضطرّة لاتخاذ... ممم.. وتُطبَّق أحكام المادة ٩٨ من القانون ٤٧ لسنة... ممم.. بالفصل النهائي..».

لعن الله الشئون القانونية وأحرَق ملفاتها وشرّد موظّفيها!

بترت قراءتي وكوّرت الجواب لألقيه في صُندوق القِمامة ليَسقط كالعَادة بجانبه، ثم دلفت إلى غرفتي وفتحت الدولاب لألتقط ما أرتديه حين لَمَحْت سُترة قَديمة تتوارى منّي في رُكن، نَفضتها وجَرّبتها فُضولًا فبَدوت دَاخلها نَحيلًا كمِطرقة الجرس

للجرس، خلعتها ووضعتها في كيس وأكملت ارتداء مَلابسي مُجاهدًا للعثور وَسط العَدم والتيه على جوربين من نفس اللون قبل أن أتّجه لمَايا النائمة على بَطنها قتيلة طَعنات اللذّة، أزَحت خُصلاتها من فوق أذنها ووَسوَست لها:

ـ مايا.. عندي مشوار لازم أروحه..

لم تتحرك ولم تفتح جفنيها، فقط أجابت بشفاه مَبحوحة مِلئها الدَّلال:

ـ بتهزّر.. استنَّى أمّا أصحا..

ـ ما ينفعش.. أبقي كلّميني..

تثاءبتْ..

ـ ok..

ـ اقفلي مَحبس الحمام بعد ما تستحمّي واقفلي الباب بالمفتاح. مايا! سامعاني؟

ـ ok.. ok..

أهم ثلاثة اكتشافات عرفتهم البشرية:

الكهرباء..

الكحول..

ومايا™.. ٢٨ سنة من الخبرة..

طبعت على ظهرها قُبلة قبل أن أخرج إلى الحديقة المَنسية المُحيطة ببيتي، مَشيت فوق العشب الجائع قبل أن أمُر بسَيارتي الراقدة أمام المدخل مثل خرتيت منزوع القَرن، الغطاء كَان مَرفوعًا عن الرَّفرف الأيسر، أرخيته حتى كَسا العَجلة الفَارغة التي عَانقت الأرض ثم عَبرت الشارع واشتريت جريدة هي الأولى التي أبتاعها مُنذ خَمس سَنوات، أشرت لتاكسي غُصت في كَنبته وارتديت نَظّارتي الشَّمسيَّة قبل أن أُخرج عدّتي المُتواضعة؛ بَفرة وتبغًا وماكينة لف، لا أطيق السجائر الجاهزة سريعة الاشتعال المليئة بالفئران المَهروسة وبُصاق العاملين! حَشوت عشر سجائر «شرعية» سَيكفونني نِصف النهار وأنا أُتابع عَينَي السَّائق تلعنني في المرآة بشفتين مُشمئزتين يَستغفر الله من حَشّاش مَارق، هَذا الرَّجل لا يعرف أني لم أزُر «عوني» لثلاثة أيام كاملة حتى الآن!

أطول مدة قضيتها بَعيدًا عن حَشيشه المَغربي!

حَشوت السَّجائر في علبتي وأنزلت الزُّجاج لأنفث نيكوتيني في الشوارع، أُتابع المُنزلقين إلى أعمَالهم أنصَاف نيام يُحاصر العُماص أعينهم، قبل أن أنحَشر في زِحام جَعلني أتساءل: إذا ما تَم غزونا هل سَيجد الغُزاة مَكانًا خَاليًا لدبَّاباتهم؟!

فتحت الجريدة ولم تخذلني، المَلل كان رئيسًا للتحرير! زَحفت حتّى صفحة الحَوادث قبل أن أسأل:

ـ هو المتحف الإسلامي اتسرق؟

سَألت السائق بجهل حقيقي فحدجني في المرآة بنظرة تفوّقت على «سبّة بالأم» قبل أن يُجيبني:

ـ حمد الله على السلامة يا باشا.. الكلام ده من تمنتشهر.. ومش لاقيين اللي سرق لحد دلوقت.. كل يوم يقبضوا على واحد ويطلع مش هوّ.. ولاد الكَلب صَرفوا على تجديده وتأمينه ييجي ديشليون جنيه.. وفي الآخر يتسرق!! كانوا صرفوها على علاج الحشّاشين اللي ملوا البلد!!

استقبلت رسَالته المَسمُومة بابتسامة صفراء فأغلقت الجَريدة وحَشرتها في ظَهر الكُرسي المُقابل هَدية لمن بَعدي، ثم استمتعت بالعَوادم والضَّجيج ودُخاني الذي ضايقه حتّى وصلت أمام سور المُستشفى؛ مُستشفى العبّاسية للأمراض النفسية، حَاسبت السائق السَّاخط واقتربت من كشك الأمن، بَرز لي رَجُل بكِرش تدلّى حتّى الرُّكبة.

ـ زيارة؟

ـ إزيك يا عبد الفتّاح..

ضيّق عَينيه مُدقِّقًا قبل أن يتهلّل وَجهه:

ـ يا نهار أبيااااض، دُكتور يحيى، والله ما عرِفت حَضرتك، الدَّقن مغيّرة شَكلك، المُستشفى نوّرت، اتفضّل..

توغّلت وَسط العَنابر الفيروزية البَاهتة، بِنايات مِن دور واحِد يَرجع بعضها لأكثر من مائة عام[1] مَضت، يَهيم النُّزلاء حَولها بأجسامهم الهزيلة، نَظراتهم الشاخصة شَحيحة التَعبير، نُفوسهم العزيزة بين أكتافهم المَحنية، وأكياس بلاستيكية مُعلّقة في أصابعهم تأوي حياة وكراكيب وأحلامًا تبحث عمن يفسّرها..

لم يكن فراقهم خمس سنين ليغيّر من أكثرهم شيئًا!

قبل أن أصِل أمام مَبنى الإدارة لَمَحت الجثّة في وَسط الحَديقة، مُقطّعة الأوصال لم يَجرؤ أحد على مُواراتها التُّراب، انحنيت ألمس القلب، قلب شجرة الكافور الذي فقد حُمرته وبات في شُحوب التُّراب، عِملاق انهزم وصَار جَسده مَقاعد للعابرين:

ـ يا دكتور!!

بجانبي نَبَتَ «عمّ سيّد» من عَدم؛ أشهر مَرضى المُستشفى، ترزي عتيق تَخطّى العَقد السَّابع ولا يَذكُر أحَد تاريخًا لدخوله، ولا حتّى هو!! «Residual Schizophrenia»[2] كانت حالته حين

---

(١) يرجع بناء مستشفى العباسية لعام ١٨٨٣م.

(٢) الفصام المتبقي: يتسم هذا النوع من الفصام بضلالات وهلاوس واضحة، يظل التفكير غير منتظم مع اختلال في السلوك وتدهور في مستوى الأداء الاجتماعي والوظيفي، يهمل المريض مظهره ونظافته ويظل سلبيًا منسحبًا من الحياة والمجتمع.

تركته منذ خمسة أعوام، يَرتدي قميصًا كان أخضر وقبّعة رياضية هالكة لم تخف ابتسامة شحيحة الأسنان، تطل نِصف قَدميه من قَبقَاب خَشَبي مَهتوك لتُدلي بأصابعه المَنسيّة إلى الأرض، ويَحمل في يده كيسًا مُتخمًا بالأقمشة والخُيوط والإبر:

ـ أهلًا عمّ سيّد.. إزّيك يا راجل يا طيب..

هَمَس بصَوت خَفيض:

ـ هو عارف إنّك هترجع.. مَكتوب نتقابل عَند الشجرة..

تخطّيت إشارته عمّن قال له إنني سأرجع وسألته عن شَجرة الكَافور المَقطوعة.

ـ سمعت بوداني صريخها وهما بيدبحوها..

ـ صريخها!! زي الفل.. أنت لسّه في «رعاية وَسَطية» مش كِده؟ هاعدّي عليك يا عم سيد..

همّ الرجل بالرحيل فاستوقفته ونَاولته سترتي القديمة.. ستبدو على جسده كغطاء سيارة فوق موتوسيكل!

ـ أيّفها بَقى وظبّطها على قدّك أنت أستاذ.. دي كانت جيّالي من برّه والله..

ابتسم الرجل مُمتنًّا قبل أن يَحتضن السُّترة ويَرحل..

صَعدت سَلالم مَبنى الإدارة متجنبًا أعيُن زُملاء وعَاملين

تمسحني مَسحًا، دَرأً لأسئلة لن أجد في نفسي عزمًا للرد عليها، تَجاهلت فُضولهم ودَلَفت إلى مَكتب مُديرة المُستشفى، دُكتورة «صفاء»، رَغم تَخطّيها مُنتصف الخمسينيات لا زالت تحتفظ بمسحة جَمال ترمّمه المَساحيق وأظافر مَصبوغة مُعتنى بها، حين رأتني عند الباب أنهت مُكالمة تليفونية ورَمقتني بعِتاب بائت أرادت منّي استشعاره حين صافحتها «كاتم الأنفاس» كي لا ينفلت منّي عَبَق كُحول الصَّباح..

ـ أهلًا يا يحيى.. إيه! المستشفى ما وحشتكش؟!

جلست أمامها:

ـ وحشتني، بدكاترتها وعيّانينها..

ـ تشرب إيه؟

حاولت تحمّل أشعّة الشمس الآتية من شبّاك خلف رأسها:

ـ قهوة.. نُص مَعلقة سُكّر..

انحنت على التليفون:

ـ قهوة عليها نص معلقة سكّر يا بدر..

ـ إيه اللي حَصل لشجرة الكافور الكبيرة؟

ـ دي كانت فضيحة من أربع سنين.. الحمد لله إنّنا وقفناها على قد كِده.. المُحافظة كانوا عاوزين يشيلوا شجر أصغره ستّين

سنة!! صَعّدنا المَوضوع للوزير و«المصري اليوم» كتبت عنّه.. مش ممكن تكون ما سمعتش!

ـ ما بقراش جرايد.

ـ لسّه قاعِد لوحدك؟ مافيش...؟

ـ ما بارتاحش غير وأنا لوحدي، بس باروح إسكندرية كُل أسبوعين أزور ماما وأختي..

قاطع حَديثنا دخول القهوة مع السّاعي، حيّاني بحضن ودود وخدّ عَرقان قَهرت نَفسي كي لا أمسَح بلله قبل أن يَخرج، أرخت «صفاء» نظّارتها على أنفها تتصنّع انشغالًا في الأوراق فعرفت أنها قد أنهت مُقدمة روتينية لا بد منها وتستعِد حاليًا لانقضاضة! نُبلًا تركتني أرتشف بعض الكَافيين ثم سَألت بدون أن تنظر لوجهي إمعانًا في إرهابي:

ـ وَصَلك جواب شئون العاملين؟

تطلّب الأمر رشفة أخرى قبل أن أُجيبها:

ـ التّهديد؟! وصل..

فجّرها استفزازي المُتعمد:

ـ يحيى أنت بالسنة دي كده كمّلت خَمَس سِنين انقطاع عن العمل! دي عُمرها ما حصلت في تاريخ المستشفى، موظّف خمس سنين ما بيجيش ولسّه على قوّة المُستشفى! طبعًا أنا

مقدّرة اللي حَصل ومفرملة الشئون القانونية ستين مرّة، لغاية ما بَعتوا يسألوا عن وضعك لمّا جت لجنة تفتيش من جهاز التنظيم والإدارة وسألت عنّك وكانت عاوزة تتخذ إجراء قانوني لولا اتدخّلت وأجّلت تقديم الإفادة، أنا طبعًا اللي بيتجاوز ما باسكتش معاه، وفي نفس الوقت سَاكتة معاك!! مش هاسمح لحد يقول عليا بوشّين ولا باكيل بمكيالين.

ـ لأ طبعًا، أنا عارف إن...

قاطعتني:

ـ ده غير إن اللي هيتإذي بتوع الإجازات والشئون القانونية! اللي زعّلني أكتر إن دكتور عبد المُعطي كمان جه اشتكاك، الراجل بيشرف على رسالتك وأنت تلات سنين لا حِسّ ولا خبر!! ولا خطة من أصله، إيه الحكاية يا يحيى؟! لا شُغل ولا رسالة.. فاضل إيه بقى!!

ـ البحث أخد وقت.. وبعدين...

ـ قول لي إن الدكتوراه مش مهمّة.. ماشي.. مُمكن تعيش من غيرها.. تعمل زمالة في أي جامعة من برّه ولو إني أشك.. طب الشغل؟ برضه هتعيش من غيره!!

ـ أنا خلّصت من الرسالة جزء معقول و...

قاطعتني ثانية:

ـ دكتور عبد المُعطي قال لي إنك بتقول له كلمة «خلصت جزء معقول» دي بقالك تلات سنين.. عارف ده يعني إيه؟

ـ عارف.. المشكلة بس إن...

قاطعتني ثالثة:

ـ يعني بتنهي كاريرك ومستقبلك بجرّة قلم..

كلماتها..

الفيلم الهندي المُعاد الذي تشاهده للمرّة الألف!

يحيى «أنا» مش مُديرة المستشفى وبس، «أنا» باعتبر نفسي أختك الكبيرة وأنت عارف، «أنا» أقصَى حَاجة مُمكن أعملها عشان نتجنب الفصل «إني» أرجّعك الشغل كما كُنت، وتنتظم، وده عشان خاطري «أنا» شخصيًّا، أنت مش عارف التفتيش كانوا عاوزين يصعّدوا الموضوع قد إيه و«أنا» منعتهم..

حقيقة علمية: تذكر المرأة في مُحادثاتها لفظة «أنا» أكثر من ضِعفَي الرجل..

ـ أرجع فين؟!

ـ ترجع المستشفى..

ـ آه...!! طيب.. أنا أخلّص الرسالة.. وبعدين أرجع..

ـ تخلّص ما تخلّصش خالص، المُهم وضعك القانوني يكون

سليم أنا مش ناقصة قلق، ده شرطي الوحيد عشان أتدخّل وأوصّي عليك..

قالتها ودَسّت وَجهها في الأوراق تَتصنّع القراءة بعينين لا تتحرّكان فوق السّطور، تتبّلني انتظارًا كشريحة لَحم «جَمَلِي» صَعبة المِراس، تابعت أمشاط قدميها المتقاطعتين في رفض، وعَقرب سَاعة الحَائط خلف رأسها يعدّ الثواني حتّى قرَّرت استئناف جولتها الثانية.. بضربة قاضية..

ـ ما انتظمتش.. هاوصّي عليك برضه.. بسّ هاوصّي إنّك ما تشتغلش تاني بعد ما هتخلّي منظري زفت وسط الموظفين والـزُّمـلا.. وابقى دور على حد يشغّلك بعد ما ترفد من العباسية..

ابتلعت ريقها مع آخر كلمة.. لا تعني تهديدها الأخير بنسبة ٧٢٪.. إلا أنها ستتمادى في تهديدها «النظري» حتّى آخر سـم[٣] من هواء الغرفة..

ـ أحضر إزّاي؟ سألتها.

ـ بالجدول زي زمايلك..

ـ ...!!

ـ وتخلّص رسالتك..

ـ طب ما نأجّل موضوع الرسالة و...

قاطعتني رابعة:

- أنت مش بتقول شغّال في الرسالة؟ أنا عرضي «Package.. Take it or Leave it»..

قالتها وهي ضامّة قبضتها، نقاشي معها تلك اللحظة لن يكون مُجديًا، كما أنها على حقّ بشَكل مُقزّز!

ففَصلي من المستشفى سيضيف إلى حوائطي بقعة لن تزول..

هززت رأسي وزممت شفتيّ بابتسامة «صناعة مَحلية رديئة» فتنهّدَت وهي تقرأ خُضوعي المَشكوك في مِلّته..

- كويس! كويس.. فكّرني موضوع رسالتك كان إيه؟

- Psychoanalysis Through the Body language..

- التحليل النفسي عن طريق لُغة الجَسد.. كويّس.. لسه عندك ورق الدبلومة؟

- عندي..

- ده هيخف عليك كتير.. شِدّ حيلك.. كده ما فاضلش غير نشوف مكان.. تنزل فين؟

فَتَحَت دوسيهًا أمامها وقلّبت أوراقه:

- عندي مَكان في قسم سابع «حريم»..

ـ مش هاستحمل التبول اللاإرادي!!

ـ تحب تنزل في إيه؟

حاولت التغلّب على تثاؤب قهري يُصيبني عند رغبتي في الهرب..

ـ حقيقي مِش عارف..

ـ مم.. «رعاية وَسطية» مَليان! «صِحّة ٥٨» مليان برضُه! إيه رأيك في «٨ غرب»! دُكتور «موفّق» سَافر ومِحتاجة حدّ يسِد مَطرحه..

ـ ٨ غرب! ماشي..

ـ وموضوع رسالتك قريّب من طبيعة المكان هناك.. ده غير إن د. كيلاني ممكن يوافق يشرف لك على الرسالة.. بتضحك على إيه؟

ـ باضحك عشان حضرتك لما قلتي قسم «سابع حريم» قلتيها وأنتي عارفة إني هارفض، وده يخلّي تفكيري يتخطّى رفضي فِكرة وُجودي في المستشفى وأبتدي أفكر في الاختيارات..

خلعت نظّارتها ورجعت بظهرها للكُرسي مُبتسمة باندهاش:

ـ بَدل ما تطلّع عليا كورساتك طلّعها في رسالتك.. يحيى أنت كنت من أكفأ الدكاترة عندي.. مَاحدّش ينسى أنت عملت إيه في

الكام سنة اللي قعدتهم معانا قبل الـ... الخمس سنين اللي فاتوا يعني.. حرام ده كله يروح على الأرض!

هززت رأسي تفهّمًا كي تُنهي مُحاضرة الكيمياء التحليلية التي بدأتها..

ـ بُصَّ على مبنى «٨ غرب» الجديد قبل ما تمشي.. قبل باب صلاح سالم على الشمال..

ـ ماشي..

قبل أن أصل للباب استوقفتني:

ـ بقول لك يا يحيى.. بالنسبة لدقنك؟

ـ إيه؟ بقت ممنوع دلوقتي؟

ـ لأ.. هي بس مكبّراك شوية.. وأنت عارف بنحاول نخِف الـ«Stigma» بتاعت الطبيب النفسي ودقنه والبايب اللي هرونا بيها في الأفلام.. يعني!

بترت كلماتها لما قرأتْ الاستنكار في وجهي:

ـ Whatever.. حمد لله على السلامة..

كيف يمكن أن تسوء الأمور أكثر؟

تقبُّلي العَودة للعمل ثانية أشبه برجوع سَجين مؤبّد إلى سجنه طواعية، بَعدما هرب من صَحو مُبكِّر، توقيع حضور

وانصراف، اجتماعات أمانة الصحّة الدوريّة، والثَّرثَرة الإجبارية مع الزملاء.

الجحيم حين يكون Organic..

كتقنية دفاعية ضِد ارتفاع السُّكر في دَمي تناسيت الأمر مُؤقتًا على أن أعمل جاهدًا وبكل إخلاص وصِدق على افتعال حجّة هروب مُقنعة في الأيام المُقبِلة، استأذنتها ووقعت وَرقة العودة إلى العمل بخطّ غَائر مَملوء غِلًّا قبل أن أتّجه إلى مبنى «٨ غرب»[١]..

المَسافة الطويلة من مبنى الإدارة حتّى الحدود الغربية للمستشفى استغرقت سيجارة، طريق على جانبيه شجر عتيق يَرقُب القادمين، دَعوت في سرّي ألا تُباركني أسراب أبو قِردان الرَّابضة على الأغصان بلطّة كريمة حتّى وَصلت أمام سور عال كُتب عليه بحروف نحاسية كبيرة «وحدة الطب النفسي الشرعي» تَعتلي زَوَاياه كَشَّافات كَبيرة ستُحيل الليل نَهارًا بَعد الغروب وأبراج عالية تأوي الحُرَّاس، تَربض أمامه سَيارة ترحيلات كبيرة، جلس فيها ضَابطان أخفيا المَلل وراء نظّارات شَمس عَريضة، ومن حولهما عساكرهما يهيمون تحت ظِلال ما تبقّى من الأشجار..

---

(١) «٨ غرب» هو الاسم القديم المتعارف عليه والأكثر انتشارًا ـ رغم تغييره ـ بين أطباء مستشفى العباسية.

يستقبل «٨ غرب» المشتبه في قواهم العقلية إثر ارتكابهم جرائم، يُحَالون على ذمَّة التَحقيق تحت حِراسة مُشدّدة ليُودَعوا ذلك القسم تَمهيدًا لاختبارهم نَفسيًّا وعَقليًّا على مَدار خمسة وأربعين يَومًا قابلة للنَّقص أو الزيَادة، لتقييم مَدى وَعيهم عند ارتكاب الجَريمة، إن كانوا لحظتها مَسئولين عن أفعالهم فيُحاكموا مُحاكمة عَادية، أو أنَّهم كانوا تَحت ضَغط مَرضي «عَقلي أو نَفسي» هيّأهم بلا وَعي لتنفيذها، فيتم إيداعهم سِجن مستشفى الخَانكة ليتلقوا العِلاج تَمهيدًا لخروجهم حال الشفاء، تلك مُهمّة أطباء القسم، حَسْم الخِلاف بتقرير استشاري يُساعد القضاء في تحديد حكمه..

لمّا أصبحت أمام الباب الحديدي المُسلسل أشرت لعَسكري يَجتر شيئًا ما، اقترب فأرخيت جُفوني بيقين:

- دكتور يحيى..

دَسَّ العسكري مفتاحه وفكّ سَلاسل حَديدية غَليظة:

- أول مرّة أشوف سعادتك!

- إجازة طويلة..

المَبنى خَلف الأسوار مَكسو بطوب قُرمزي بَاهت، طَابق أرضي كبير على هيئة مُستطيل ينقصه ضِلع، شَبابيكه مُغلّفة بالحَديد وأبوابه غليظة تبثّ اليأس في النفوس، دُرت حوله قبل أن أعبُر بَابًا كُتب عليه «قِسم الرجال (أ)»، أول من قَابلته كان

«محسن»، مُمرِّض مُخضرم عَمِل مَعي لسَنتين من قبل، نَحافة مَقشّة، أسنان طويلة، وعين يُمنَى بؤبؤها أكبر من أختها، سَلّم عليّ بحرارة قبل أن نعبر أمام مكتب يجلس عليه نقيب وأمينا شرطة، دلفنا إلى مَمر طويل مزدحم بطفايات الحريق والأبواب، كَسَر «محسن» خلاله وقع خطواتنا الرتيب برَوح مُرشد سياحي:

ـ المَبنى أحسن بكتير من المبنى القديم، بس أوض التمريض ضيقة شويتين، قَسّموه «أ» خطرين و«ب» عادي، و«ج» حريم.. مَوجود عندنا النهاردة اتنين وخمسين متّهم، سبعة وتلاتين منهم قتل..

وَصلنا أمام باب غرفة فتحها مُحسن ثم استطرد:

ـ دي أوضة الدكاترة.. اللجنة خلّصت بدري النهاردة.. بس دكتور سامح في الحَمّام.. أعمل شاي؟

ـ سامح مين؟ زيدان؟؟

ـ إن شاء الله..

من بين كُل الشخصيات عَديمة الجَدوى التي أفضِّل نِسيانها، لا يوجد من هو عديم الجدوى أكثر من سامِح!

ـ خلّيها قهوة دوبل.. من غير سكّر خالص..

في الغرفة انتظرت، رائحة الطلاء الجديد طاغية، مَكتبان صَاج وتكييف يزمجر وثلاجة صغيرة تحت نافذة عالية بجانب

وحدة أدراج وكمبيوتر مُتواضع.. في مُنتصف سِيجارتي سَمعت الطَّرقات على الباب:

ـ التدخين مَمنوع!

سامح كان واقفًا بالباب مُبتسمًا يَجزّ أسنانه، صَافحني بغِلٍّ يتوارى خلف ودّ مُصطنع:

ـ حمد لله على السلامة.. خسّيت أوي.. بتلُق في الهدوم!!

حاولت السَّيطرة على مَلامحي وأنا أُتابع لُغده المُرتَجف:

ـ إزّيك يا سامح.. ماكُنتش أعرف إنّك هِنا في ٨ غرب..

ـ إيه؟ كنت هتغيّر رأيك؟

عَصَرت على نفسي ليمونة «أضاليا» ولَعَنْت المديرة في سري سَبعين مرّة حين مَسَح سامح على شعره المُبعثر فوق جبينه واستطرد:

ـ بس يعني مالقتش غير «٨ غرب» عشان ترجع عليه!!

ـ نصيب!

ـ كان حقّك تنزِل حاجة خفيفة تسخّن، تأخّر عقلي مثلًا ولا حاجة إداري، أنت تلاقيك نسيت الشغل..

كلماته..

رائحة سِجادة مَبلولة مُخزّنة في شقّة مكتومة!

ـ احكي لي.. إيه الجديد؟

ـ المبنى كله جديد.. تعالى آخدك لفّة..

تقدّمني سَامح بَسطًا لهَيمنته، مَشيت وراءه أتأمّل حَركته القَهرية في المَسح على شَعره كُل بِضع ثوانٍ، يُحاول فَرض سَيطرته على القِسم بمُداعبات مُبالغ فيها مع العاملين والممرّضين، لم ترق لأغلبهم، كان يَنقصه فقط أن يتبوّل على حائط ويهرش ظهره برجله ليكمل رُوتين الكلب البلدي في تحديد منطقة نفوذه! أمسكت نفسي أكثر من مرّة كيلا أركل مؤخرته العَريضة!

سَحلني وراءه يُعرّفني جُغرافيا المَبنى والزملاء قبل أن نَصل أمام عَنبر الحَجز، مُستطيلًا كبيرًا تتخلّل حوائطه نوافذ مُغلقة بشبكات الحَديد، بامتداده تراصَّت الأسِرّة المبنية كالمصاطب على الأرض في صفّين، فَوقها مَراتب إسفنجية مُغلّفة بملاءات ومشمّع داكن لزوم سرعة التنظيف، السَّقف على ارتفاع خَمسة أمتار تَحتله مَراوح كبيرة وشبكة استشعار حريق، وعلى الجوانب شاشات تلفزيونية عريضة تبث فضائيات سخيفة لهَرْس الوقت الطويل، وفي اليمين حمّام مقسّم لسِتّ كبائن مكسوّة بستائر ومنزوع منها كل ما قد ينخلع ليصير سِلاحًا أبيض..

وقوفنا أمام العنبر جذب بعض النزلاء، التصقوا بالباب كجماعات من «الزومبي» في فيلم رُعب رَخيص، يَستجدون عقاقير نَمنعهم عنها لتظهر أعراض الصادِق منهم، أو يَستعجلون

إصدَار تَقارير حَالاتهم، بعضهم بطيء الإيقاع هائم المَلامح والبعض طبيعي أكثر من اللازم، وآخرون تطفح من أعينهم الكهرباء الزائدة..

انتهى سامح من حوار «فضّ المَجالس» حول مَطالبهم ثم اقترب منّي يَهمس في أذني بتفاصيل بعض الحالات في محاولة لتأكيد «كعبه العالي» في المكان:

ـ سعيد ده قتل مراته.. فشنك.. هيترحّل بكرة.. وده فُوكس.. خطف جـارته أسبوعين.. وبعديـن خنقها.. اللجنة لسّه مـا حدّدتش.. واللي جنبه ده عبد المجيد.. سَمِّم أبوه وأمّه.. غالبًا «Delusions of Persecution»..

دقائق وابتعدنا بَعدما استنبط المرضى أنني بديل جديد.. في غرفة الأطباء استبدل سامح علكته بواحدة جديدة قبل أن يخبط بيده على ملفّات فوق المكتب:

ـ هنا الوارد الجديد، وبقيّة الحالات في الدرج، وجَدول النيابات متعلّق ورا الباب، حمد الله على السلامة..

رَحَل سامح بعلكته وغُروره وشَعره المُبعثر على جَبينه، لن تَبرد نَفس الوغد يومًا!! انقضت سنوات ولم يَنْس الفتاة التي ظنّ يومًا أنها تنظر له ولم تكُن، وهَا هو القَدر يَجمعنا عن عَمد في قِسم وَاحِد!

نفضت عن رأسي وَجهه المفَلطح وأشعَلت سيجارة وأنا

أقلّب ملفّات النُّزلاء، وُجوهًا تَحمل وُجومًا وجنونًا وأشياء أخرى لا تَصفها كلمات، منذ خمس سنوات ظننت أنها مسألة وقت قبل أن تُحشر صُورتي بينهم، ألف وثمانمائة وخَمسة وعشرون يومًا أتوقّع عودتي للمستشفى كنزيل.. وها قد عُدت..

مع بعض الاختلاف!!

انتظرت ساعة اضطرارية، تَجرّعت خلالها جردلَيْ قهوة وحَرقت شَجرتَيْ تَبغ، مُستسلم لزملاء يَرمقونني بفُضول مُشاهدة جُثّة طازجة تفترش الأسفلت، امتصصت تطفّلهم بابتسامة حُكومية ستقطع «مُستقبلًا» أرجلهم من المكان قبل أن ألملم نفسي وأهرُب..

كانت الساعة قد تعدّت الخامسة حين رجعت..

دَسست المفتاح في الباب بعدما التقطت مَظروفين وَجدتهما بِجانب دَوّاسة القَدم التي حملت يومًا كلمة «Welcome»، نزعت حذائي وسَاعتي وركلت زجاجات بيرة فارغة ثم أزَحت من فوق الأريكة بَقايا وَجبة أمس وطفّاية مُتخمة بالرماد والأعقاب وغُصت بين وسادتين بعدما فتحت التلفزيون «Mute» على قناة «National Geographic»، أعشق تلك القناة خاصة حين يتعلّق الأمر بأسماك القرش الأبيض، الضِّباع أو دِببة القُطب، وأتمنى من صَميم قَلبي أن تَنقرض دببة الباندا وتريحنا من دلالها غير المبرر، فلون التاكسي كان أبيض وأسود يومًا «for God's sake»!!

التقطت المظروف الأوّل، من الجُزء الشَفّاف في الوَجه طلّ شِعار البنك، بغَثيان قَرأت ديون بِطاقة الائتمان:

جَدول تراكمات القسط الشهري + غرامات التأخير في السداد = رمال رِبا مُتحرّكة انغرست فيها حتّى رَقبتي!

وضَعت صَكّ عُبوديتي جَانبًا والتقطت المظروف الثاني؛ أبيض زيّن أطرافه الشريط الأحمر والأزرق التقليدي، كُتب عليه بخط رَديء: «يحيى راشد إبراهيم وعنواني مفصَّلًا» وبلا اسم للمُرسِل، فقط طَابع بَريد مَحلي وختم مَطموس، فَضَضته فسَقَطت وَرقة عَاجية مَطوية متوسّطة الحجم، فيها رَسْم بدائي أقرب لخَطّ طِفل يَلعَب، نِصف دائِرة علوي تتوسّطه نقطتان سَوداوان، يخرج من تحتهما ذراعان تتدلّيان يمينًا ويسارًا، تحتضنان مُربّعًا مُغلقًا مُقسّمًا إلى تسعة مُربعات بأبعاد واحدة، تشبه مُربَّعات لُعبة «OX» الشهيرة!! قَلَبت الورقة فلم أجِد غير بُقعات صَفراء بَاهتة رَاودتني نفسي أنها بول فاشتممتها ولم أجد لها رائحة، أعدت الورقة في الظرف وكوّرته وهَمَمْت بإلقائه حين تأمّلت عنواني واسمي الثلاثي اللذين لم أجد لدقّتهما تفسيرًا! حِرصًا على البيئة وظاهرة الاحتباس الحراري ونظافة الشقّة التي لا أتهاون فيها قَذفت به مع جواب البنك في حَوض زجاجي فارغ مُتخم بالأوراق، كان يَومًا بيتًا للسَّمك ولم يَعد، ثم قُمت إلى غرفتي وألقيت بجَسدي فوق السَّرير بَعدما أزحت لِباسًا أرجوانيًّا نسيته مايا.. أو لم تنسه ☺.. دقائق وتدفّق النوم في أطرافي..

نَزَل مَساء ذَلك اليوم بَغتة، غروب سَقط كستار مسرح مُهترئ كَسا السَّماء بحُمرة الدَّم، وهواء خَانق لَزج رَائحته حَريق هَيّج جيوبي الأنفية بمُجرّد فتحي للباب، تَمشيت تَحت الأشجار

المُغبّرة خَمس دقائق قبل أن أتلقى مُكالمة من مَايا، مُنذ «ألو» عرفت أنها انتزعت طابع الـ«LSD» من فوق لسانها فقط منذ دقائق، وهذه ميزة حقيقية في مايا، تَحفظ رأسها الجميل من الانشغال الذي يؤثر سلبيًّا على فيزياء جَسدها ومنحنياته القياسية، تطفئ عَقلها وتتركه يسقُط سقوطًا حُرًّا في رَحلات تمتد لثماني ساعات مع طوابع الهَلوسة، تَطرق فيها أبواب جنّة ما لتركض فيها حافية بلا توقّف، ثمّ تَغُطّ في سبات عميق تقوم من بعده مُنتشية يُضحكها كَلب جَربان في خرابة، قبل أن تنزل لتتابع صَالونها اليَومي في «Deals» الزمالك، البار الذي تعرّفت عليها فيه منذ سنتين، تَقضي وَقتها مع شلّة مُزدحمة بحِكايات الفيسبوك التافهة حتّى يأتي مُنتصف الليل، تَقوم كسِندريلا ثَملة لا تَنسى فَردة حِذاءها لتتجه إلى بيتها، سبع ساعات من النوم ثم تصحو لترتدي ملابس رسمية تتحول فيها إلى مسئولة تسويق «Sexy» في شركة فخمة، تبيع الهواء تقريبًا، وتُنهي عملها لتحدّثني بَعده مُكالمة تكون عَادة تقريرًا مُفصّلًا عن ليلة أمس وكيف كُنت معها WOW.. بِجد.. أنا رايحة في داهية لحد دلوقتي.. مش عارفة أمسك نفسي وأنا باكلّم العميل.. هاشوفك إمتى؟»..

أحيانًا أسألها ما الذي أعجبها فيّ؟ فتجيبني بأني في نظرها أجمل من «براد بيت»!!

بالطبع أنا أشبه براد بيت «وهو ميّت» + نِسبة عَطف وشَفقة لا تخفى عليَّ في كلماتها..

وتنتهي المُكالمة مَعها في العَادة بمَوعِد في بَحر يومين أكون فيهما قد هيأت نفسي:

للقبضة الجهنمية.. اللقاء الدَّامي.. صِراع الجبابرة «الجزء الثالث»..

أنهيت مكالمتي معها حين وصلت أمام بناية «عوني»، عِمارة حديثة يزيّن مَدخلها رُخام أسود ونباتات زينة، حَييت البَواب ورَكبت المِصعد ونقرت بابًا سَميكًا داكِنًا، لَحظات وفتحت «نيجوزي»؛ خَادمة إفريقية في منتصف الأربعينيات حَكَت لي يومًا أن اسمها في بلدها «رواندا» يَعني «المُباركة».. كَمَا حَكت لي أيضًا عن عائلتها التي أبيدت في صراعات ١٩٩٤ العِرقية قبل أن تأتي مِصر!

حيّتني بأسنان نَاصعة وَسط بَشرة أبنوسية لامعة ثم تقدّمتني لغُرفة مُغلقة بباب جرّار جَاهدت وهي تجذبه فتسلل صَوت وردة الجزائرية بأغنية «حكايتي مع الزمان»، غَابت دَقيقة قبل أن تَخرج وخَلفها «عوني» بقميص ضيّق أسود مَفتوح الصَّدر..

أنيق ذلك الشيطان!

أغلق الباب وهو يتقدّمني ناحية باب الخروج:

ـ النهاردة «Full» يا «Man»..

ـ «شاكر» موجود مش كده؟

بنفاد صبر تخلّل عَوني شَعره الفِضّي بأنامله:

ـ أنت نسيت اللي حصل المرّة اللي فاتت؟!

ـ هوّ اللي شِبِط لمّا عِرف إني «Psychiatrist».. مش ذنبي إنه ما استحملش يشوف تحليل لنفسه على الحقيقة..

جحظت عينا عوني استغرابًا:

ـ تحليل!! ده أنت حلّلت له بول يا «Man».. شمبرته.. تقول له في وشّه أنت ٩٠٪ عندك ضعف جنسي! اقسم بالله الراجل كان حالف ما ييجي هنا تاني.. أنا كنت هابوس دماغه..

سَحبت نفسًا من سيجارتي:

ـ هو «Definitely» عنده ضعف جنسي.. طول الـ«Round» بيتكلم عن تقطيعه للنسوان في السرير، بيحكي وعينيه في عين اللي بيكلّمه، بيراقبنا عشان يطّمن إننا مصدّقينه، ولما قال إن الفياجرا دي للعجزة مش للعناتيل اللي زيّه لعب في مناخيره.. دي كِدبة جِسمه مِش مصدّقها.. أنا قلت له مِن الأوّل إن كلامي ده هيزعّله.. هو اللي صمّم!

ـ تقوم تدبحه! وقدّام الناس!!

ـ كان عَمّال يرغي وما كنتش عارف أركّز في اللعب يا عوني.. كان لازم حاجة تخلّيه يتهدّ..

طقطق عوني فقرات رقبته:

ـ يا «Man»، الناس بتيجي هِنا عشان تلعب، تنبسط، مافيش خصوصيات، مافيش أسرار« This was always the rule»..

قالها وأرسل عينيه للسقف هربًا من ابتسامتي الضاغطة:

ـ امشي يا عوني؟ امشي؟

داعب السلسلة المتدلية وَسط صَدر خَالٍ من الشَّعر ثم زَفر استسلامًا:

ـ No ya man.. بس...

ـ من غير بسبسة يا عوني بطّل دلع.. زيتك بكام النهاردة؟

ـ الصُّباع عامل ميّة وتمانين جنيه..

ـ يا واطي! من عشر تيّام كان بميّة وستين..

ـ دي فرشة مَغربي بزيتها، أنا لا باحُط حِنّـة ولا باطحن كيميا وأنت عارف، وبعدين أنت زعلان ليه! هو أنت اللي بتشيل الترابيزة آخر الليل؟ أنت سِيد من يشيّل الناس يا دكتور..

ـ بتلعبوا إيه؟

ـ Poker..

سِرت خلفه إلى الغرفة.. أمسك عوني مقبض الباب ثم استدار لي:

ـ Please مافيش تحليل نفسي مع حد.. Especially شاكر..

هززت رأسي وابتسمت.. نِفاقًا!

الغُرفة كانت واسعة، التَّكييف جَعلها في بُرودة ثلاجة لَحم، تتوسطها مِنضدتان؛ الأولى تَحمل كئوسًا وأطباقًا مُشهيّات وعِدّة زُجاجات لوّحت لي من بينهم عشيقتي «Chivas»، بجانبها صِينية تَحمل وَرق بفرة وتبغًا وفَرشة حشيش «سَبعات» تقطر زيتًا، المِنضدة الثانية مُستديرة مَكسوّة بالجوخ، فوقها لمبة خافتة متدلّية من السقف تخترق سَحابة دُخان ظلّلت خَمسة رجَال عَلَت مَلامحهم الجديّة، التفتوا لي حين دَخلت وحَدجني «شاكِر» بسَخَط قبل أن يَسحق سِيجارته بين أصابعه ويَرمق «عوني» بعتاب وهو يكاد يقف ليُغادر، حَييتهم فهزّوا رءوسهم بودّ مُصطنع قبل أن أتجه للمِنضدة المُقدّسة، لففت قِرطاسًا وصببت كأسًا، خلط الكحول والحشيش يصنع منك أعدى الأعداء.. وهو بالضبط ما أحتاجه!

سَحبت نَفسًا قبل أن أتعمّد بسَادِيَّتي المُحببة إلى قلبي دَسّ كُرسيي في مُواجهة شَاكر، انحنى عوني على الأخير «تثبيتًا» وبَثّ في أذنيه مَا هدّأ مَلامحه قبل أن يرجع مَكانه، بامتعَاض أشعَل شاكر سيجارة بدل التي سَحقها فحييته بابتسامة:

- شاكر بيه.. مساء الفل..

لم يجب.. صبّ لنفسه كأسًا تجرّعه في حنق:

- شكلك لسّة زعلان!

ـ عاجبك اللي قلته المرّة اللي فاتت؟!

ـ ده مجرّد رَأي يا شاكر بيه.. مِش أنت اللي قلت حلّل يا دكتور؟ لو حَابب نشهِّد الناس أنا ما عنديش مُشكلة!

امتقع وَجه شَاكر واحمرّت أذناه فأمسك أوراق اللّعب بأنامله البَدينة ودفن فيها وجهه، انتظرتهم يُكملون الدور الذي توقّف في مُنتصفه قبل أن أدخل مَعهم في بداية دور جَديد، خَلَط عَوني ـ بصفته الراعي الرسمي ومنسِّق اللعب ـ الأوراق بأصَابعه المُدرّبة قبل أن يَسحب وَرقتين لكُل من الجالسين ويضع في منتصف المنضدة ثلاثًا، رفعت طَرف ورقتيَّ واسترقت النظر، تِسعتين تنقصهما تسعة ثالثة وأكمِل «Full House»، أوراق جيّدة، وضعتهما على وجهيهما وأشعلت سيجارتي ثم ألقيت رهاني، ووجه «عوني» يصرخ فيّ التماسًا:

ـ «كمِّل الليلة على خير في عرض دين النَّبي»..

كان ذلك مُتأخرًا، فالحَكّة كانت قد بدأت، حَكّة قراءة من حولي، فَكّ شفرتهم، تَعريتهم ورؤية أكاذيبهم بالعَين المُجرّدة، لُغة الجَسد التي لا تكذب، فمداعبة أرنبة أنف تَفضح من يدّعي ثقة وأوراقه سيئة، جذب شَحمة أُذُن تعني أوراقًا جيدة لكنّها مترددة، كما أن هزّة قدم رتيبة تَعني شَخصًا فقد صَبره، على وشك الفوز لكنّه يَنتظر انقضاضة، تلك الأخيرة استشعرتها من شاكر، اهتزازه كموتور سيارة مفكوك من قواعده وسيجارته التي

يأكلها جوعًا، ورهان يتضاعف بتهوّر، ذلك الرَّجُل ينزف قلقًا، يَملك ورقًا جيدًا، أو هكذا يظن!

مقطع من كتاب «Poker for Dummies» (البوكر للمبتدئين) صفحة ٢٦:

سياسة البوكر:

- إمّا أن تُوحي لخصمك أنّ أوراقك أعلى قيمة من أوراقه ـ وهي ليست كذلك ـ فينسحِب خوفًا مُكتفيًا بخسارة قريبة خيرًا من مكسب بعيد فيه مُخاطرة.
- أو أن تُوحي لخصمك أن أوراقك أقل قيمة من أوراقه ـ وهي ليست كذلك ـ فيزيد رهانه جَشعًا حَتّى يَصير مَاله غَنيمتك.. ويصاب لاحقًا بذبحة صدرية أو جلطة!

مع ثاني لفّة نفض أربعة من اللاعبين أوراقهم انسحابًا، لم يتبق في الجولة سواي وشاكر، نَظرت له لأتأكّد أنه يقرئني ثم قرّرت أن أعطيه هدية.

ـ Raise..

ضاعفت رهاني ورَعَشت أصابعي وأنا أسحب نَفسًا عَنيفًا من سيجارتي قبل أن أمسح عَرَقًا غير موجود على جبيني، طلّت من بين شَفتيْ «شاكر» ابتسامة ظفر، قَرأ لا إراديًّا عَلامَاتي المُزيّفة، فكُل لاعبي البُوكر يمتلكون جهاز «كشف كذب» فطري يضيء لهم وجه منافسيهم.

إلا أن الأجهزة الصينية الرخيصة انتشرت تلك الأيام!

ضاعف شاكر رهانه ظنًّا أني أرهبه بالتعلية ليتقهقر، تَحوّلت هزّة قدمه إلى ثبات قبل أن يئد سيجارته في المنفضة، حسم أمره بثقة، ورَجع بظهره إلى كُرسيه وَسط ترقّب المُحيطين، نَظر إلى ورقتيه ببُطء ثم لنقوده قبل أن يَكشفهما، سَحبهما عوني لمُنتصف المنضدة ليكمل المجموعة «٢ ـ ٤ ـ ٦ ـ ٨ ـ ٩» قلب أحمر، «Flush»، أوراق كافية للفوز، أو هكذا ظنّ! كان ذلك قبل أن أكشف ورقي، ببطء، سحب عَوني الورقتين إلى منتصف المنضدة واستبدل وَرقتَيْ شاكر بهما، أتممت بالتسعة الباقية «Full House»، يَد أعلى من يَد شاكر، تأوّه الأخير كمن اغتُصِب في الظَّلام على غَفلة، رَماني بنظرة كادت تُرديني حِقدًا قبل أن أسحَب نقوده إلى منطقة نفوذي وأطعنه بابتسامة لا لون فيها.. ذلك السكير المُقامر!

الذين قالوا إن المال لا يصنع السعادة؛ لا بد أنهم لم يكونوا يقصدون أموال الآخرين..

بعد ثلاث ساعات انفضّ اللّعب، كنت آخر الباقين، احتَسيت كَأسي الثالثة ووقفت في الشُّرفة أستجدي نسمة صَيف وأُحصي غنائم الليلة:

ألف وثمانمائة جنيه سيُغطّونني الأيام القادمة..

سيجارتا حَشيش وثلاث كئوس أوصلتني لحَافة أعشق المَشي

عليها، مع مساحة كافية من الاتزان تضمن لي عودة لنفس البيت الذي أعيش فيه.

رؤية وَجه شاكر مَهزومًا.. سَادية مَحمودة في حُدود النِّسب المعقولة..

لَملَم عَوني مِنضدته ثم أتى والدهشة على كَتِفيه:

- تلات سنين معايا هاتجنن أعرف بتعملها إزّاي؟

- هي إيه دي؟

- بتلم الـ«Round» لحسابك أكنّك شايف الورق كلّه!!

- الورق مِستخبِّي.. بس الوشوش بتفضح.

- مش كِده.. أنت إيه؟ مِخاوي؟

- مخاوي آه.. جِن من نوادي لوس أنجلوس..

- لأ صحيح.. بتعِدّ الورق هه؟ بتحفظ الأرقام؟

- عوني.. عوني!! ما تفصلش الكاسين والسيجارة الله يبارك لك.. دي كلّها حاجات بتطلع في الغسيل..

- الغريب إن فيه أيّام بتبقى «Down» مُوت!!

- دي الأيام اللي حشيشك فيها بيبقى مَضروب..

قهقه عوني:

- أنت مجنون يا «Man».. بس «Genius»..

بادلته الابتسام ولم أُعقّب، فطَاقتي تبدّدت على طاولته كأرنب بدون «Energizer»، ودّعته وتمشّيت حتّى عثرت على البيت، خلعت ملابسي في طريقي لغرفة النوم قبل أن أنهار على سَريري.

كشجرة بلا جذور..

قبل الفجر..

دَرجة الحَرارة: ٩٠ °C..

تنبّهت حَواسي دفعة وَاحدة، كنت رَاقدًا على ظهري غارِقًا في عَرقي حين استشعرت اللّهاث، فتحت جفنيّ أسترق نظرة فوجدته عند باب الغُرفة واقفًا! كَلبًا أسود فَاحمًا يَلهث كأنه رَكض شَهرًا، شَعره مُبعثر ولِسانه لَون الكَبد يقطر زَبدًا، يحدق فيّ غَضبًا بعَينين مَحجريهما دمّ، زمجر فارتفعت شَفته العُليا لتَكشف عَن صفّين من الحراب المُدببة ونيّة في الانقضاض، انتفضت هلعًا، انتصب شعري وتعرّقت مَسامي، حاولت أن أثب أو أحتمي بشيء، هنا أدركت الخَدَر الذي أخضَع أطرافي مُسبقًا، قرية نمل كاملة استعمرت جَسدي وبنت فوق أطرافه حَضارتها، كالمشلول لم أقدر على الإتيان بردّة فعل تُذكر، نَبضات قَلبي تَسارعت وتَهدّج نَفسي جَزعًا، كان ذلك حين رأيت خيال شخص لم تسمح العَتمة بتبيّن وَجهه، يقف خلف الكلب، رغم انعدام التفاصيل أيقنت أنّه يَرمقني، يتخلّلني، لحظات ثقيلة غادرت الدماء فيها عروقي قبل

أن يَقبِض على عُنق الكلب بصَرامة، زَمجر الحَيوان ثمّ استدار مُطيعًا بَين يَدَيْ آمِره وانسحبا إلى العدم.

انفك أسري فاعتدلت كالملدوغ، تلوّت يَدي بهستيريا فوق المِنضدة أبحث عن التليفون، ضَوؤه البَاهِت لم يكن كَافيًا لاتقاء حافة السرير التي عانقت أصبع قَدمي الصغرى في ألم وأنا أقفز تجاه زر النور، أضيأت الغُرفة فتأذّت حَدقتاي قَبل أن أستَوعب التفاصيل، فتحت الباب بحَذر، ألقيت برأسي أولًا ثم خَرجت، أضَأت الأنوار كُلّها ومَررت على الأبواب والشَّبابيك أمسَحها.. لا شيء!!

جلست في الصالة أستعيد دقيقتين مَضَتا، سَرَت قشعريرة في جَسدي حين رَاودني وَجه الكَلب وخيال صَاحبه الذي رَمقني..

قبل أن أستيقظ! كابوس أصدق من حقيقة!!

تحسّست أصبع قدمي التي تنزف، وحَلقي الجَاف كَكَهف فتجرّعت زجاجة بِيرة أسعَرت شبقي للتبوّل، أفرغت مثانتي ثُم مَلأت حَوض الاستحمام واستلقيت فيه أنزف عَرقًا يَفوح كُحولًا، التقطت رواية سخيفة مُلقاة فوق الغسّالة منذ شهرين، تصفّحت فيها بضع أوراق مقاومًا إيقاعها البطيء وثقل رأسي قبل أن يقهرني النوم..

بعد ساعتين أيقظني صَوت بَائع جائل - لن يَرد جَنّة - يبيع

شيئًا ما بلُغة مُنقرضَة، مُبتلًّا نَهَضت وقَدماي تَنفلتان مِنّي حتى كدت أرشق في المِرآة، علقت الرواية التي تَعجّنت صَفحاتها فوق مَاسورة البانيو لتجِف ثم اتجهت لغرفتي، ارتديت مَلابسي واتخذت طَريقي للمستشفى بَعدما أضفت زُجاجة بيرة فارغة إلى هرم الزجاجات..

دخلت مَبنى «٨ غرب» بنظّارتي الشَّمسية أُخفي وَراءها إرهَاق لَيلة أمس وكَابوس لَم تتآكل تَفاصيله، كان سامح أوّل من قابلني، اقترب منّي يَشتَم رَائحتي مُستفزًّا، مُقتحمًا مِساحتي الحَميمية المقدّرة «بالنسبة لأمثاله» بثلاثة كيلومترات:

ـ كانت سهرة جامدة شكلها.. دي «Ray-Ban» أصلي النضّارة دي؟

بحثت بعيني عن كيس للقيء ولم أجد:

ـ صباح الخير يا سامح..

ـ فيه اتنين وارِد لسّه جايين.. لو فايق نقّي لك واحد.

دلفت إلى غرفتي وأغلقت الباب ورائي، انتظرت حتّى اختفى صوته من المَبنى ثم نَاديت محسن المُمرض:

ـ هو سامح ما بيروّحش؟

ـ هيروّح يِعمل إيه؟! مِش مِتجوّز.. ده بينام ساعات في الاستراحة حتّى لو مش نايب إداري..

ـ زي الفُل.. هَات لي مَلفات وارد النّهاردة واعمل لي قَهوة بَس اظبطها بقى مش زي آخر مرّة.. اغليها يا محسن.. اغليها..

دقائق وعاد محسن بقهوة وأوراق النزيلين، وَضعهما أمامي وانسحب، خلعت النظَّارة وأمسكت بأوّل مَلف أُقلّب صَفحاته، أبعَدت الأوراق قليلًا لتَفُض الحُروف اشتباكها من بُعد نظر بدأتْه عيناي مُبكرًا..

الحالة الأولى كانت لرجل في مُنتصف الخمسينيات، صُورته توحي بشَخصية روتينية لم تكُن لتؤذي دَجاجة، مُتّهم بقتل زميله في الشركة، أقواله مُرتبكة وغير مُتجانسة، يقول إنه ضَحية استهزاء مُستمر من شلّة في العمل يَصْلوه اضطهادهم منذ سِنين وكان على رأسهم القتيل، لكنّه ينفي صِلته بالجريمة رغم القبض عليه على بُعد أمتار من الجثّة وفي يده سِكِّين، مُحاميه طلب الكشف على قوى مُوكله العَقلية؛ حِيلة الدِّفاع الأخيرة التي قد يَضمن لمُوكِّله عن طَريقها عَفوًا، بموجبه يَقضي مُدّة عقوبته في مُستشفى، عوضًا عن الإعدام..

٩٠٪ يتّضح أنّهم أسوياء ويدّعون المرض هربًا من الحُكم..

لكن ١٠٪ من الأبرياء تظل نسبة لا يُستهان بها..

أكملت الاطلاع على الملف الأول ثم سَحبت المَلف الثاني، فَررت صَفحاته سَريعًا حين تَوقَّفت بَغتة قبل أن أرجع للخلف صَفحتين! ذلك الوجه!! وَثَبتُ بين صورة صاحب المَلف واسمه

الرُّباعي حتّى حُسِم شكّي، قُمت مَلدوغًا فأسقطت قَهوتي على المَكتب وبَنطلوني وخرجت قبل أن أتوقَّف وأرجع للملفّ شكًّا، دَقَقت النّظر في الصُورة تيقنًا ثم اتّجهت إلى العَنبر، دَلفت إلى غُرفة التَمريض المُطلّة على عَنبر المُتّهمين أتصنّع هدوءًا لم أعد أملكه، حيّيت ممرضَيْن لم يفرغا من تناول فولهما وبَصلهما وأنا أجول بعينيَّ في العنبر الطويل، قبل أن أسأل أحدهما عن الوارد الحديث فأشَار إلى شخص بَدين يتحدث مع زميل له، ذلك كان صَاحب الملف الأول، تخطّيته وسألت عن الثاني، بَحث المُمرِّض بعينيه ثم أشَار إلى شَخص يَجلس على حَافة السرير الأخير في العنبر، يَرتدي بَنطلون «ترينج» كُحلي وفانلّة نِصف كُمّ بَيضاء، سَاكن مثل صخرة، عَيناه مُثبَّتتان على مروحة سَقف تَدور فَوقه، لم أكن لأخطئه رغم المَسافة.. هو.. شريف! شريف الكُردي..

انسحبت لغُرفتي، طَلبت قَهوة بَدل التي أُريقت وفَتَحت ملفّه الجِنائي الآتي معه من إدارة البَحث الجَنائي، دُوسيه سُمكه ثلاثة سنتيمترات مِن الكلمات والصُّور الجِنائية..

«شريف ماهر الكردي، طبيب نفسية عَمِل حتّى عَام مَضى بمُستشفى «بهمن» النَّفسي قَبل أن يُفصل مِنها لأسباب لم تُذكر، متّهم بقَتل زوجته «بسمة مجدي»، حلّقت عارية من الدور الثلاثين لأحد أبراج عثمان بالمعادي، مُحاميه دَفع بمَرض مُوكله العقلي إلى هيئة المحكمة لتبرير عَدَم مسئوليته الجنائية عن الحادث،

كما قال إن مُوكله لم يَكن حَاضرًا لَحظة الوفاة وإنّما جاء بَعدها، وأكّد أن الضَّحية انتحرت لعَدم وُجود ما يُبرّر أو يُثبت تورّط موكِّله، فصدر القرار بفَحصه تَحت أيدي خُبراء العبّاسية في قسم ٨ غرب»..

فوّت ديباجة الشرطة التفصيلية سَريعًا قبل أن أقابل تقرير الطبّ الشرعي، في صفحته الأولى صورة للمجني عليها، WOW!! لا أذكر أني رأيت قسمات بذلك التناسق تلتقي في وجه واحد من قبل! تحمل عيناها نظرة الثقة التي تنفي مَوت أمثالها، إلا أن صور مُعاينة مَوقع الحَادث كذّبت الشائعة، جسدها خِرقة مُستعملة حلّقت من السماء السَّابعة إلى الأرض، قبل أن يَمرّ فوقها بابور زلط صَدئ، لِترات دَم غَليظة نَضَحَت من جَسدها المَغروس في الأسفلت وعظام اتّخذت اتّجاهات مُخالفة أثَارت مَعدتي رغم التعوّد في مشرحة الكلية، لم أتمالك نفسي فأغلقت الملف، ابتلعت ريقي عَنوة وناديت المُمرِّض:

ـ مُحسن، هات لي «شريف الكردي» اللي جِه إمبارح..

دقائق وسَمعت الطرقات على الباب، سَحَبْت لرئتي نفسًا عَميقًا وأسندت كِليتي إلى الكرسي حين دخل المُمرِّض وفي يده شريف، بهدوء أجلسه على الكُرسي المُقابل قبل أن أُشير له أن يَتركنا، سَاد صَمت لزج لا تقطعه إلا زمجرة التكييف، شريف شارد في نقطة وهمية على الحائط وأنا أستجمع فروق عَشر سَنوات فَاتتني بُعدًا، كم تغيّر!! يبس وَجهه وحُفر خدّيه بخطّين

غَائرين، انخَسَفَت عَيناه الخضراء في محجريهما كجزيرتين في مُحيط، وطَال شَعره المُطَعّم بخطوط بيضاء عَقَصها إلى الوراء بخيط أسود سَميك، أظافره طويلة وذِراعاه بَارزا العُروق، اليسرى مَوشومة بخطّ رأسي يَمتد من الكتف لينتهي في الكفّ، تَقطعها بالعَرض خطوط تلتف حول الذراع كدرجات سلّم، نهاية كل منها مشبوكة بما يشبه حرفَيْ «ص» مُتعاكسين..

ـ شريف!!

ندائي كان مِرساة مَركب قُذفت في بحر لا قاع له! لم يتحرك ولم يُعرني أدنى انتباه!! حتّى عَيناه الشَاخِصَتان لم تَطرفا طَرفة، استندت على مكتبي مُقتربًا وكررت النداء:

ـ شريف.. أنا يحيى.. يحيى راشد..

تمثال من الرُّخام تُمطره الطيور بالفضلات! قُمت وجَلست في مُواجهته، وتعمّدت قطع خَطِّ نَظره المربوط بالحَائط تَشتيتًا لشروده:

ـ شريف.. مَعقولة مِش فَاكِرني!!

رعشة خاطفة مَرّت بعَينيه فتَشَبّثت بها:

ـ إزّيك يا شريف.. مِش مِصدّق إننا قاعدين مع بعض.. إيه!! عشر سنين تقريبًا ما تقابلناش..

شبح ابتسامة مُرتعشة دَاعب شفتيه ما لبس أن اختفى ليزيغ ببصره إلى الحائِط ثانية:

- بس تصدّق لايق عليك اللوك الجديد ده.. شعرك والتاتو.. جَوّ جديد خالص.. أنت لسّه نِفسك تمثّل؟ ياأه يا شريف.. فاكر المدرسة.. فاكر رانيا وشيرين.. ولّا البت لينا اللبنانية؟

رَمَقني لكَسر من الثانية.. رَعشة مُترددة مرّت بجَانب فَمه ثم هَربت مع عينيه..

- شريف أنت عارف إحنا فين؟

ببحّة لم تكن فيه وعينين مُتحجّرتين أجاب:

- ملح..

- نعم؟!

- عاوز ملح..

- ملح!!!

- كتير.. في الأكل..

- ليه يا شريف الملح؟

- ...

- ماشي.. هاوصّيلك.. شريف أنت عارف أنت هِنا ليه؟

هرب بنظره ناحية الحائط فاستدركته:

ـ شريف بُصّ لي! فيه حاجة مضايقاك في الحيطة؟ تحب تقعد في مكان تاني؟

رَمَاني بنظرة جوفاء فعَاجلته:

ـ إيه اللي حَصل؟ مكتوب في الورق كلام غريب أنا مش مصدّقه.. الكلام ده صحّ يا شريف؟

كالأصم لم يُبد ردّة فعل، بحثت في جسده عن إيماءة إيجَاب أو سَلب فلم أجد، ظهره مَحني ويَداه مُسترخيتان في وضع منفتح صادِق، وسبّابته بهدوء ترسم دوائر في الفراغ:

ـ شريف أنت مَوقفك صعب.. لو كان فيه حد هيساعدك في اللي أنت فيه ده يبقى أنا.. مافيش مرض اسمه اللي ما بيتكلّمش، أنت دكتور وعارف.. اللجنة هتتابعك من أوّل بُكرة تلات أسابيع.. صَدّقني لو مكانك تتكلّم معايا أنا الأوّل..

لم يبعد نظره عن الحائِط فقمت إلى مكتبي، طقطقت أصابعي قرب أذنيه وأنا ألتف من ورائه..

ـ شريف.. فوق معايا شوية الله يبارك لك..

جفناه حتّى لم يرمشا، لمّا جلست التفت ليدي والقلم فيها، قطعت ورقة من أجندة وناولتها له:

ـ لو مش عاوز تتكلم اكتب.. ارسم!

لوّحت بالقلم لحظات قبل أن يلتقطه بتردّد، نظر للورقة كشاعر

ينتظر وحيًا تأخّر، دَقيقة بَدت سَاعة لم أرد مقاطعته فيها قبل أن يتحرّك وحده وبيد مرتعشة كتب أحد عشر رقمًا ثم توقّف.

برفق سحبت الورقة من أمامه ودققت في الأرقام:

ـ «٩ ١ ٠ ٠ ٢ ٠ ٠ ١ ١ ٠ ٤».. ده تليفون مين؟ بس فيه رقم زيادة!

أمسكت القلم وطَمَست رقم ٤ فهز رأسه نفيًا فكتبت رقم أربعة ثانية..

ـ إيه الأربعة اللي في الأول دي؟ اتصالات الرقم ده! ولا مُحافظة؟

لم أتلقّ رَدًّا فرفعت عَينيّ إليه، كان واضعًا أصبعه الوسطى في حلقه، قبل أن أعي ما يفعل قام بَغتة وأسقط كرسيه، أمْسك بمعدته وقفز إلى الركن مُنحنيًا، أفقت من المُفاجأة ولَحقت به، أصدر حَشرجة جَافة قبل أن تندفع السوائل من فمه بسُعال عنيف، أفرغ جوفه وكاد يُخرج معدته، تفاديت تَقيؤه بالكاد وسَندته حتّى انتهى وخَمد، استلقى على الأرض شَاخصًا لا يَكاد يَلتقط أنفاسه، صَرخت فسمعني مُمرِّض عابر، عاونني على حمله إلى الحمّام وتركنا المياه تَغسله قبل أن نُودعه سريره في العنبر، تابعته يتكوم على نفسه في وضع جنين حتّى غَفا فَرَجَعت إلى غرفتي التي عبقت برائحة القيء، فتحت نافذة للتهوية ولففت سيجارة نسيت

أن أشعلها ثم فتحت الملف الطبي المطلوب منّي ملء خاناته بتفاصيل جلستي مع شريف، انطباعي وتكهناتي! تجلّط حبر القلم وحُشرت الكلمات، نَقَرت المكتب بأصابعي مُستحضرًا تركيزًا هاربًا حتّى استقررت:

- Time Disorientation, Flat Affect, weak insight and concentration, Possibility of audiovisual hallucination.. Check for (Chest, Gastrointestinal and Nerve Diseases + X-Ray) (١)

أغلقت الملف الطبّي وسَحبت الملف الجنائي تحت ذراعي، تمشّيت في الطرقات حتى توقّفت أمام غرفة يجلس فيها مُوظف إداري بجانبه مَاكينة مُستندات، التقطت رقم خَطّه الداخلي المدوّن على تليفون بجانبه وأنا أحيّيه، أعلم أن نَسخ الملف الجنائي مَمنوع، لكن استدعاء موظّف إلى مبنى الإدارة ليس مَمنوعًا، خاصّة إذا آمن أن مكتب المديرة هو الذي يطلبه! رحلة لأقصى شرق المستشفى على مسافة نصف ساعة ذهابًا وإيابًا! تَرك الشاب مَكتبه ورَحَل فأغلقت الباب على نفسي وصَنعت من الملف نسخة قبل أن أُعيده لشئون المتّهمين، دسست الأوراق

---

(١) ارتباك في الإحساس بالزمن.. مشاعر الوجه مسطّحة.. إدراك وتركيز ضعيفان.. احتمالية وجود هلوسة سمعية وبصرية.. مطلوب كشف صدر وباطني وأعصاب + أشعة x..

في حقيبتي الجلدية ورحلت، فتلك الليلة كان عليّ البحث بين ثلاثة سنتيمترات من الورق..

عن بداية طريق..

وَجبة دَجاج مَشوي سَتُغضب قَولوني + سَلطة خَضراء غَير مَغسولة جَيدًا غنية بميكروب السالمونيلا..

علبة بيرة مايستر ماكس مثلّجة «٥٠٠ مللي» ستَصرعني تجشؤًا وبعض الترمس المملح..

وثلاث سجائر تبغ «Golden Virginia فلتر ٨ مللي» رفعت «الدوبامين» في رأسي إلى مُستوياته المُعتادة..

جلست أمام الملف المُتخم في صَالة شَقّتي وبجانبي ورقة أدوّن فيها المَعلومات وأضيف إليها تكهّناتي بين الأقواس:

حين فُتحَت الشَقّة عُثر على شريف في ركن الغرفة التي أُلقيت منها المجني عليها، شرايين يُسراه مُقطّعة بأربعة جروح تردّدية[١] (Culpability delirium)[٢]، نُقل إلى المستشفى في حالة سيئة ولمّا أفاق ظلّ صَامتًا ليومين قبل أن ينتزعوا منه الكلمات للتحقيق،

---

(١) جروح قطعية سطحية متوازية تشير إلى التردد في تنفيذ الانتحار.

(٢) هذيان الذنب..

جاءت أقواله متضاربة لا تحمل منطقًا ثابتًا، قال إنه لم يَمسّ زوجته، ثم قال إنّه دفعها، ثم أنكر مَعرفته بالحادث من أصله، قبل أن يجزم بأن شخصًا آخر قد فعلها وأنه جاء مُتأخرًا ولم يتحمّل، فقرر الانتحار! أعراض الـ«Schizophrenia»[1] تُعلِن عن نفسها..

تبيّن من عينات البول في الزجاجات البلاستيكية المنتشرة بجانب حائط الغرفة التي ألقيت منها الضحية أنّها تخص المتّهم، يبدو أنه أقام لفترة فيها ولم يُغادرها..

بالكشف على المجني عليها ثبت وجود كدمات وسحجات بنفسجية في مناطق متفرّقة من الظهر والفخذ بأطوال وأعماق مختلفة تُشير تطوراتها الالتئامية إلى كونها جائزة الحدوث ما بين أسبوع إلى عشرة أيام قبل الوفاة..

كما تبين حدوث قطع دائري مشرذم «قُطر ٥ سم» أعلى الفخذ اليسرى، يشير تطوره الالتئامي إلى كونه جائز الحدوث ما بين أسبوع إلى عشرة أيام، نتيجة سلخ الجلد بآلة حادة..

وبالكشف على المجني عليها تبيّن حدوث اعتداء جنسي يرجع لساعات قبل الوفاة أحدث تهتكًا حَادًّا بمنطقة المِهبل والعِجان، ونزيفًا أدى للإجهاض، وبفحص الرحم تبيّن أنّ عُمْر الجنين من سبعة إلى ثمانية أسابيع تقريبًا..

---

(١) فصام.

لم يتم العثور على بقايا جلدية تحت أظافر المجني عليها ناتجة عن مقاومة أو تفيد حدوث التحام جسدي مع الجاني.. كما تم العثور على بقايا سائل منوي اتّضح بالتحليل أنها تخُص الزوج..

قاطعت قراءتي رنّة المَحمول برقم غير مسجّل:

ـ ألو.. يحيى؟

تلك الـ«ألو»!!

ـ مين معايا؟

ـ أنا لُبنى..

تعرّقتْ فروة رأسي وخفق قلبي فمشيت خطوتين ورجعتهما حين قطعتْ صمتي:

ـ مش فاكرني!!

أفقت من ذهولي فسلّكت زوري بكحّة:

ـ لأ.. طبعًا فاكرك..

ـ باكلمك في وقت مش مناسب؟

ـ خالص.. أنا...

ـ أنا جبت رقمك من أختك.. هزأتني ساعة عشان ما كلّمتهاش من زمان..

ـ إزّيك يا لُبنى؟

ـ أكيد أنت أكتر واحد ممكن يكون مُتخيّل حالتي النفسية دلوقت عاملة إزّاي.. يحيى.. أنا محتاجة أقابلك في أقرب وقت.. لو ممكن بكرة؟

ـ بكرة!

ـ مش فاضي؟

ـ لا لا ماشي.. فين؟

ـ «سيكويا» اللي في شارع أبو الفدا.. الساعة تمانية كويّس؟

ـ الساعة تمانية.

أغلقت التليفون وارتميت فوق الكنبة دُمية خَشبية مُنحلّة الخُيوط، تيبست دقائق أتأمّل رقمها على الشاشة، قرأته ثلاثين مرة حتّى حفظته، بعد سيجارة وزجاجة ودورتين حول نفسي اتّجهت إلى غرفة النوم وفتحت الدولاب، من بين الملابس سَحبت الصُندوق الكرتوني وجلست على السرير، أزحت عدّة ألبومات مُعتقلة منذ زمن بشريط لاصق والتقطت وَاحدًا أخيرًا يَرقد في القَاع، ألبوم يَرجع لفترة التسعينيات، الصُّور فيه تكدّست بلا ترتيب زمني، أغلبها لقطات لشلة الكلّية في نُزهات القاهرة وعلى شواطئ الإسكندرية، قلبت الصفحات سَريعًا

قبل أن أتوقّف أمام صُورة لي في فَرَح وبجانبي شريف يَضع يَده على كتفي، مُتورّد الوجه يضحك من قلبه، ويتأبّط في ذراعه أخته، شفاه رقيقة رُسمت بحرفة، عينان فيهما تساؤل لا إجابة له، وشَعر كستنائي يَموج قُرب كَتفيها في طاعة عمياء، أزلت الغلاف الشَفّاف وجَذَبت الصُورة برِفق مُتجنبًا تَمزيقها، وجدت على الظهر كلمات كتبتها يومًا..

«أنا وشريف ولُبنى في فرح حاتم رفعت، ٢١ إبريل ١٩٩٨».

أخذت الصورة وخرجت، في طريقي للصالة مَررت بالحمّام، نَظَرت لنفسي في مرآته ثم للصُّورة، أربعة عشر عامًا تفصلني عن ذلك الشخص، لو قابلتني صدفة لن أعرفني! قَررت تَخفيف لحيتي قليلًا «بالطبع بمَا لا يَسمح لمايا بالاعتراض» فالخربشة تعني الكثير لبشرتها الملساء! وضعت الصورة على الرفّ الزُّجاجي ثم فتحت دولاب المرآة وسَحبت مقصًّا، ذبحت خُصلة تابعتها تَسقط على جِدار الحوض قبل أن أبدأ في التشذيب يَمينًا ويَسارًا حتّى بَدَت لحيتي كغابة دهستها الأفيال! فلتذهب مَايا للجحيم.. مؤقتًا! وَضعت الصَّابون على ذقني واستللت موسًا، نِصف ساعة وأصبحت حَليقًا، ذقن فاتحة لم تر شمسًا منذ أمد، وكمية لا بأس بها من الجروح والخربشات!

ستظن «صفاء» أنّي قد انصعت لرغبتها، لا بأس، إرضاء أنوثة «مديرة» متأخّرة لن يضير شيئًا!!

تركت أفكاري في الحوض وخرجت لأجلس أمام الملف، حَدقت في صورة شريف على الفيش الجنائي، مُمسكًا أمام صدره بلوحة سوداء فيها أرقام!! تَذكّرت الأرقام التي كتبها صَباحًا، بَحثت في جُيوبي حتّى عثرت عليها، سَحبت تليفوني وطلبت ١٩٠٠٢٠٠١١٠٤٠..

الرقم الذي طَلبته غَير صَحيح.. نَرجو التأكُّد من الرَّقم وإعَادة المُحاولة!

شريف لم يكتب الرقم الصحيح.. اختلط عليه الأمر.. أو ربّما لم يكن يكتب رقم تليفون!!

كان ذلك تساؤلًا من بين ألف سينازعوني حتّى الصباح..

في اليوم التالي وبمُجرّد دخولي من بوابة المستشفى أسرَعت الخُطى مُحاولًا تفادي «نعيمًا يا دكتور» التي انهالت عليّ من كل صوب كأني امرأة زانية يجرّسونها قبل أن تُرجم، الرَّبط بين حلاقة الشعر وكلمة «نعيمًا» سيظل لغزًا لا حل له!!

لمَّا وصلت ٨ غرب ناديت محسن وأنا أنقِّب في حقيبتي عن تبغي، وجدت حفنة بالكاد تكفي سيجارتين، دسست واحدة بين شفتيَّ حين دخل:

ـ صباح الفل يا دكتور.. «نعيمًا».. أجيب فطار؟

ناولته نقودًا:

ـ اطلع على «On the Run» اللي في بنزينة «موبيل»، هات لي كيس دُخّان زي ده، وربع بُن غامق، اعمل لي كوباية على الريحة، قول لي، شريف الكردي أخباره إيه إمبارح؟

ـ التحاليل أهِه جنب ملفّه.. كل ساعتين يحط صابعه في بقه ويستفرغ..

قلّبت أوراق التحاليل سريعًا، لم تَعثر عَيناي على خَلل إلا في صُورة الدم، نَقص واضح في الصوديوم سيتولّى أمره فوّار مُكمِّل، والتهاب في العينين نتيجة زيادة في الضغط، وأنيميا..

ـ اتكلّم معاك يا محسن؟

ـ هو قليل الكلام.. حاولت ألاغيه.. أجيب له حاجة من برّه.. مافيش.. طول الوقت متنّح في الحيطة ويستفرغ..

ـ خلاص يا محسن قرفتني الله يحرقك.. رأيك إيه؟

ـ لا.. صعبة شويّة.. دكتور نفسية يجيلنا ٨ غرب! لو مش عيّان يبقى سابكها أوي..

ـ بياكل؟

ـ بينقّر كام حاجة ويسيب باقي الوجبة زي ما هي وبعدين...

ـ يستفرغ! حاول تضغط عليه ياكل عشان عنده نقص في الأملاح.. وهاتهولي قبل ما تخرج.

اتّجه محسن مع عسكري للباب الحديدي للعنبر فدلفت إلى غُرفة المُتابعة أراقب سلوكه حين صاح العسكري مُناديًا من خلف الحديد:

ـ شريف.. شريف الكردي!!

لم يتلق إجابة.. شريف كان جَالسًا على سَريره سَاكنًا يحدق

في ركن خالٍ، نودي اسمه ثالثة ولم يتحرّك فدخلا العنبر يتخلّلان المتّهمين حتّى وَصلا أمامه:

ـ أنت أطرش! أنا مش ندهت اسمك!!

التفت شريف إلى العسكري بنظرة جَعلته يعيد التفكير فيما قال حين عاجله محسن ملطّفًا:

ـ دكتور يحيى عاوزك..

قام شريف ومَشى بينهما وَسط نظرات المَرضى المُتربّصة حتّى خرجوا فرَجعت مَكتبي، ثَوانٍ وسَمعت الطرقات قبل أن يُجلسه محسن أمامي، لم يبد أفضل من أمس، عينان هاربتان تجاه الحائط ووجه أكثر شحوبًا:

ـ إزّيك النهاردة؟ فِطرت؟

بِصمت رَمق ذقني فاستطردت مُحاولًا الحفاظ على التواصل الهزيل:

ـ بتشوّكني.. الجو بقى حر والتكييف في البيت عطلان بقى له سنة.. والتوكيل قفل! عارف.. إمبارح بادوّر في الدولاب لقيت صورة قديمة..

أخرجتها من جيبي ووضعتها أمام عينيه.. حَدق فيها طويلًا:

ـ شفت كنت تخين أنا إزّاي.. أنت برضه اتغيّرت كتير يا

شريف.. بالمناسبة لُبنى كلمتني إمبارح.. هاقابلها النهاردة عشان أطمنها عليك.. مش عاوز منها حاجة؟

لم يَطرف له جِفن، انتظرت منه انطباعًا بالانفتاح، رَعشة استنكار في الوجه، لا شيء، طوبة حمراء مثبّتة في جدار:

ـ أنت شوية وهتقعد مع اللجنة.. إدِّيني فُرصة أسمع منك حاجة قبل ما تقابلهم..

بصعوبة نزع شريف عينيه من الركن ونظر لي.. شعرت أنه يتخلّل مَسام وجهي:

ـ أنا ما قتلتش..

ـ جميل.. مين اللي قتل؟

ـ هوّ..

ـ هو مين؟

استغرق ثواني ليجيبني:

ـ اللي قاعد جنبك دلوقت..

التفت إلى يساري حيث أشار:

ـ هو فيه حد تاني معانا في الأوضة؟!

رمقني بغضب لإنكاري ما يدّعي وجوده، فتصديق المريض ضلالات مرضه جزء لا يتجزّأ من الأعراض..

ـ أنا بس مش شايف حد!

حدق شريف في وجهي بعينَي تِمثال فرعوني زجاجية..

ـ أنت سامع صوته دلوقت؟ سألته..

ـ ...

ـ شريف.. أنت دكتور.. خلّي عندك وعي بالحالة بتاعتك..

ـ ...

ـ تفتكر لجنة دكاترة عُقر هتصدّق بسهولة دكتور حافظ الأعراض؟ خليك منطقي..

لم ينبس بكلمة! أحتاج لبداية جديدة:

ـ طب ممكن توصفهولي؟

ـ ...

بدأ يرسم بإبهامه الدوائر ثم انسحبت عيناه إلى الركن فحاصرته:

ـ طب وهو قتل بسمة إزّاي؟

صمت للحظات قبل أن يزفر:

ـ أنا عاوز أمشي..

ـ جاوب سؤالي..

احتد شريف:

ـ عاوز أمشي..

ـ هتمشي بس إهدا.. إهدا يا شريف..

حاولت تغيير الموضوع تخفيفًا:

ـ صحيح.. الرقم اللي كتبته إمبارح ده تليفون؟

لم يُبد شريف تعبيرًا فسألته:

ـ حساب في بنك؟ فيزا؟ أنت محتاج فلوس؟

ـ ...

فتحت الدُّرج وأخرجت أوراق اختبار رودشاخ؛ عَشْر وَرقات بيضاء تتوسَّطهم بُقع حبر مُتماثلة النصفين كصورة في مرآة، تَصنع أشكالًا عشوائية يُسقِط عليها المريض حين يصفها انعكاسًا لما في نفسه:

ـ شريف الشكل ده بيفكرك بإيه؟

بصعوبة انتزع عينيه عن الحائِط، نَظر للورقة ثواني بدت دَهرًا لما لم يَرمش بجفنيه فعرضت عليه الورقة الثانية.. لم يتكلّم.. الثالثة.. الخامسة.. السابعة.. في التاسعة حرّك شفتيه ببطء:

ـ بَحر..

ـ بَحر!!!

البحر كان أبعد وصف لِما في الورقة.. البقعة كانت أقرب لوجه حِصان!!

لم يُجبني فمررت الصورة العاشرة، لم تكن بقعة حِبر، كانت صُورة زوجته، جَسدها المَزروع تحت البرج مَسقيًّا بدمائها، كنت أحتاج لاستفزازه ومُراقبة ردّ فِعله حين يتعرّض لصَدمة، نَظر للصُّورة برَوح صَنم جاهلي، عيناه مُستقرتان لا تشوبهما اختلاجة! لو كان رأى مجلة أطفال فيها صورة جثّة ميكي مَاوس مَقتولًا لنضح وجهه بتعبير!!

ـ شريف.. شريف!!

لم يُخرجه نِدائي من مَوته.. طقطقت أصابعي وربتّ على كَتفه ثم جَلَست القرفصاء أمام كُرسيه:

ـ شريف.. تهمتك فيها إعدام.. مُدرك ده؟

رمقني بنظرة جوفاء لم أقرأ منها أي علامة..

ـ شريف.. بيني وبينك كِده.. حَصَل خيانة؟ بسمة كانت على علاقة بحدّ؟

ابتسم..

ـ أنا مش فاهم أنت بتضحك على إيه؟

ـ ....

ـ الشخص اللي قتلها تقدر ترسمه؟

لم أمهله وقتًا للتفكير، قرّبت الورقة منه ودسست القلم بين أصابعه:

ـ ارسم يا شريف.. أي حاجة..

لم يرسم.. كتب ٩ ١ ٠ ٠ ٢ ٠ ٠ ١ ١ ٠ ٤..

لم أتمالك نفسي غيظًا:

ـ شريف مش كلام ده! أنت كده بتعجّزني!!

كان ذلك حين انفتح الباب بَغتة، سامح كَان وَاقفًا، بدون أن يتكلّم أشار لي أن أتبعه فخَرَجت وَراءه:

ـ نعيمًا.. فين ملف الحالة اللي معاك؟

ـ فيه مشكلة؟

ناولني سامح ملفًّا كان في يده:

ـ استلم أنت الملف ده وسيب لي الـ«Case» دي أقرا بسرعة عشان أظبّط لو فيه حاجة ناقصة قبل ما تيجي اللجنة..

ـ ناقصة إيه.. أنت بتهرّج!! مش هينفع.. شريف هيفضل معايا..

ـ ومالك قافش كده ليه؟ اللجنة دلوقت بتطلب طريقة معينة في العرض أنت ما تعرفهاش..

قاومت رغبة ملحّة في لكمه..

- أنا درست الـ«Case» وعاوز أركّز معاه وهاعرف أعرِض.. وبدأ يرتاح لي ويتكلّم.. مِش عاوز أشتّته..

رمقني سامح لثوانٍ قبل أن تعتلي وجهه ابتسامة شكّ فعاجلته:

- اللجنة هتقعد مع تلاتة تانيين النهاردة.. اشمعنى الـ«Case» دي؟

- أنت لسّه راجع ودي «Case» تقيلة عليك!

اللجنة وصلت..

كان أعضاء اللجنة قد ظهروا وراءه في آخر الطرقة، ثلاثة أطباء قادرون على غربلة «هولاكو» لو جلس بين أيديهم، حيّونا قبل أن يسأل أقدمهم عن الطبيب المُتابع، اصطحبتهم إلى الداخل وأغلقت الباب في وجه سامح..

جلس أعضاء اللجنة كالقضاة خلف مكتبين عَريضين، وشريف على كرسي في مواجهتهم، أوّلهم انشغل بقراءة الملف الطبي، والثاني طالع الملف الجنائي، والثالث كان د. كيلاني؛ كبير اللجنة وأقدم الأطباء، أشار لي فاقتربت:

- حمد الله على السلامة يا يحيى..

- الله يسلّمك يا دكتور.

ـ هنبقى نقعد مع بعض عشان تطمّني عليك.. إيه أخبار الـ«Case»؟ شفت إيه؟

ـ Audiovisual hallucination.. و OCD [1]. بتتكلّم في «Schiz» واضِح..

ـ ما تستعجلش..

تعمّدوا ترك شريف خَمس دقائق من الانتظار المدروس تكسيرًا للأعصاب، سَحبت كرسيًّا وجلست على مسافة تسمح لي برؤية ملامحه إذا تكلَّم:

ـ مرتاح في القعدة؟

لم يُعره شريف أدنى اهتمام فأردف د. كيلاني:

ـ بُص يا ابني، من أوّلها كده إحنا مش وكلاء نيابة وده مش تحقيق، وأنت بتسمع كويس فرُد عشان نقدر نساعدك..

نَجحت الكلمات في تحويل رأس شريف ناحية الطبيب..

ـ اسمك إيه؟

بشخوص لم يُجبه، هزّ الرجل رأسه وتجاوز السؤال..

ـ سنّك؟

ـ ...

---

(١) يعاني من هلاوس سمعية ـ بصرية.. ووسواس قهري.

ابتسم د. كيلاني:

ـ ماشي.. بتشتغل إيه يا شريف؟

ـ تاجر بِغال..

عاجله الطبيب الثاني:

ـيا بني عيب كده.. احترم نفسك ورُد صحّ.. إحنا مش بنسألك عشان مش عارفين.. اترفدت ليه من المستشفى يا دكتور؟

تابعت ملامحه.. لم يُبد استياءً من كلمة الرفد..

ـ بيقولوا إنّك قتلت مراتك.. الكلام ده صح؟

مال شريف برأسه لليمين ولم يجب!

ـ أمّال مين اللي قتل؟

التفت شريف ونظر لي قبل أن يستقر بعينيه في الركن.. لم يُمهله الطبيب الثالث:

ـ أنت عاوز ترمي على أي نوع من أنواع الـ«Schiz»؟ Paranoid مثلًا؟ عرفنا عشان نساعدك!

لم يتغيّر وجه شريف فأردف الطبيب:

ـ طيّب.. إحنا كام واحد في الأوضة يا شريف؟

طقطق الطبيب أصابعه جذبًا للانتباه:

ـ شريف! خلّيك معايا..

تنقّلت عينا شريف بين أعضاء اللجنة قبل أن يجيب:

ـ ستّة..

ـ ممكن تعدّهم لي؟

رجع بنظره للحائِط فعاجله الطبيب الثاني:

ـ يا ابني الدكتور كيلاني بيكلّمك.. عِد لنا الموجودين..

مَرّ شريف بعينيه على الثلاثة ثم نظر لي قبل أن يمر بالركن الخالي ويحسم أمره:

ـ ستّة..

سأله الكيلاني:

ـ إحنا تلاتة ودكتور يحيى وأنت نبقى خمسة.. جبت منين السادس بقى!!

نقل شريف نظره بين الركن ود. كيلاني..

ـ واسمه إيه بقى الأخ اللي إحنا مش شايفينه ده؟

عاد شريف للركن فرجع الطبيب بظهره إلى الكرسي:

ـ ده شغل تمثيل.. وفاشل كمان.. إيه يا دكتور!! عيب.. طب ادرس حتّى الحالة كويّس!

رعشة غضب لمحتها في رفعة أنف أخذت لحظة قبل أن يَحني شريف رأسه في الأرض ويقوم بهدوء ليسحب القلم من يد الطبيب ويرسم على الحائط متتالية «٩ ١ ٠ ٠ ٢ ٠ ٠ ١ ١ ٠ ٤» بِخط رَديء..

ـ أنت يا ابني اقعد.. اقعد!! يا يحيى قعّده.. إنده مُمرّض..

لم يُعره شريف انتباهًا، أخذ يَكتب أرقامه ذاتها بشكل ميكانيكي، يُكررها كَمَن يَنوي تَغيير لَون الحَائط! قُمت إليه لأثنيه برفق فوجدته مُتيبسًا كَسيخ حَديدي في خرسانة، جذبت ذراعه فوكزني بكوعه في صَدري، شعرت بألم رهيب فتحاملت وناديت محسن، ثوانٍ وجاء شاهرًا حُقنة «هالدول»؛ مُهدّئ نستعمله في حالات الهياج، تركها في كفّي وانقض على شريف اعتصارًا وتثبيتًا فرشقت الحقنة في ذراعه، أفرغت محتواها فبدأ يرتخي نسبيًّا بعد ثوانٍ، ثم انطفأ كماكينة فقدت مَصدر طاقتها قبل أن يسحبه محسن للخارج..

رمقني د. كيلاني وهز رأسه مبتسمًا:

ـ دي هتبقى حالة الموسم..

قالها ثم انهمك في كتابة مُلاحظاته فسَحبت كُرسيًّا وجلست بجانبه:

ـ إيه رأي حضرتك؟

ـ هيتعبنا.. واحد زي ده سَهل جدًّا يختلق أعراض.. بس مين ما بيقعش.. أنا مش بقول إن الـ«Psychiatrist» مستحيل يمرض.. بس ياما شُفنا ألاعيب..

ـ «Schiz»؟

ـ الفصام أقرب تشخيص طبعًا.. عامة أكِّد على التمريض يتابعوه.. وحاول تشوف سبب رفده من المستشفى.. واتّك عليه شوية.. استفزّه.. عاوز أشوف نرفزته هتطلّع إيه لغاية ما أقعد معاه تاني.. المُهم.. أخبارك إيه؟

ـ تمام..

ـ هاستنّاك في مكتبي نشرب شاي ونتكلّم براحتنا.. هات اللي بعده..

هممت بنداء النزيل التالي حين استوقفني د. كيلاني:

ـ شريف ده دفعة ٩٩؟ مش دي دفعتك يا يحيى؟ أنت تعرفه؟

ـ دفعتي كانت أكتر من ألف ونُص يا دكتور..

ـ ما علينا.. هات لي اللي بعده..

خرير المياه الساخنة فوق أذنيّ عزلني عن العالم، تخلّلت بأصابعي فروة رأسي أحرثها خدرًا واسترخَاءً، أنهيت حمّامي قسرًا ووقفت أمام المرآة أمسح بخارها، أسفل عينيّ بَدا متفحمًا وشفتاي متشققتان كأرض بور، رششت مُزيل عَرق تحت إبطي ونتفت من مقدّمة رأسي شَعرة بيضاء تعمّدتْ بوقاحة جذب الانتباه عن باقي زميلاتها، في غُرفتي أزلت السلوفان عن قميص جديد مقاس (L) بدلًا من (XL) الذي ودّعته تدريجيًّا على مدار خمس سنوات، ارتديت بنطلوني وتجرّعت نصف زجاجة بيرة فقط حفاظًا على ثباتي الانفعالي حين وقعت عيناي على كمبيوتري العتيق فتذكّرت أرقام شريف، قد أجد حلًّا على الشبكة، انتظرت حتّى أتمّ الـ«Windows» ديباجته المُملّة قبل أن أضرب الأرقام على صفحة «Google»، ثوانٍ وأتتني النتائِج بأرقام شُحنات تصدير وشحن وموقع وحيد في إنجلترا يبيع الحشيش والماريجوانا بشكل مؤمّن عن طريق كارت الفيزا!

سَجَّلت المَوقع احتياطيًّا عملًا بنظرية تنوّع مصادر السلاح

ثم فَصَلت سِلك الكمبيوتر كما تُفصل الكَهرباء عن المكواة وانطلقت إلى الزمالك، في نهاية شارع «أبو الفدا» دلفت إلى المطعم، الجو كان شرقيًّا دافئًا، اخترت مِنضدة مُتطرّفة قُرب النِّيل وجلست، طلبت «Espresso» دوبل وبدأت لا إراديًّا في ممارسة هوايتي، كَم أعشق لُغة الجسد حين يتعلّق الأمر برَجل وامرأة يجلسان في مطعم.

بطولة عالم في المراوغة «وزن ثقيل»..

تلك الجالسة التي تضع يَديها أسفل ذقنها وتميل برأسها، تنصت لهراء الجالس أمامها بشغف وانبهار، إلا أنّ السفيه يكذب فيما يحكيه، كتفه اليسرى ترتفع لا إراديًّا كل عشر ثوانٍ ليُنكر ويستغيث مما يختلقه فَصّ مخّه الأيمن المسئول عن طمس الحقائق واستبدالها ببطولاته الزائفة، أمّا تلك التي تضم ذراعيها أمام صَدرها وتضع حقيبة يدها بينها وبينه تصنع حائلًا يمنعه من اقتحامها رافضة لما يقول، كما أن ساقيها تميل نحو مخرج المطعم، تنوي الهرب وستنتهز فرصة، رغم أنه صادق، فراحة يديه مبسوطتان أمامه وقامته مُنحنية تجاهها رَغبة في خَطب ودّها، بعد بضعة أشهر ستهجره طبقًا لنظرية «حِب البنت تسيبك.. سيب البنت تحبك»، وذلك الجالس وَحيدًا يراقب مَن حوله في حذر قبل أن يميل مَيلًا بَطيئًا إلى اليسار، إنه فقط يُطلق ريحًا! وتلك القادمة من بعيد، ساقاها متناسقة ملفوفة في الجينز الأزرق وكعبها العالي طاغي النغمة!!

جذّابة بالنسبة لأم تمسك في يَدها ملاكًا صغيرًا..

ملاك يشبه إلى حد الجنون.. لُبنى!

بَحثتْ بعينيها بين الجالسين حتّى لاقتني فاضطربت خطوتها لحظة، لفّت خُصلة بأناملها وضعتها خلف أذنها مُحاوِلة بث الثقة في دقّات كعبها على الأرض، اقتربت، البلوزة البنفسجية أضْفت الكثير لبشرة النسكافيه الفاتحة، والحزام فوقها أحاط خصرًا لم يتغيّر، اقتربت، عنقها الطويل تزيّنه السلسلة! الفراشة الزرقاء التي لم تخلعها يومًا منذ هاديتها بها، اقتربتْ، حواجبها السّميكة وشفاه الكريز والرموش تخفي توترًا في عينين يانعتين أطفأهما حُزن، شَاحبة مُرهقة رغم تفاوضها مع الـ«Makeup»، قُمت مادًّا يدي فألقت في كفّي أنامل لم أنس يومًا ملمسها، وجلسنا، كتِرام غشيم بلا سائق خرج عن القضيب دَسست نيكوتيني بين شفتيّ قبل أن أتدارك طفلتها التي حدقت فيّ ببراءة، أعدتُ السيجارة لجيبي حَرجًا فنادت الخادمة الفلبينية التي كانت تتبعها، أشارت لها أن تجلس و«هانيا» في منضدة مُنفصلة ففعلت، جاء النادل فطَلَبت لنفسها «Espresso» وللصغيرة تشيز كيك بالشوكولاتة ثم حدقت في وجهي تبحث عن بداية:

ـ اتغيّرت كتير!

ـ عَشر سِنين مش قليلين.. أنتي كمان اتغيّرتي..

ـ للأحسن؟

هززت رأسي إيجابًا وأنا أرمق الدبلة الذهبية في بنصرها:

ـ أكيد..

ـ أعرفك يا سيدي بهانيا..

نظرت لصغيرتها التي تحمل جينات أمها ولوّحت لها فابتسمتْ خجلًا ولاذت بصدر الخادمة هربًا منّي..

ـ هانيا.. سلّمي على أونكل.. معلش.. وشّ كسوف أوي.. ما شفتهاش في النادي بتعمل إيه؟

ـ هانيا.. جميلة.. ربنا يخليها لك.. أخبارك إيه؟

ـ زي ما أنت شايف.. اتجوزت وخلفت هانيا وباشتغل «HR Manager» في كريدي أجريكول.. وأنت؟

ـ زي ما أنا مع المَجانين..

بدون أن تنظر في عينيَّ ألقتها وكأن شخصًا آخر يسأل:

ـ اتجوّزت؟

كنت أعدّ الثواني حتّى تسأل السؤال الحتمي.

ـ كُنت..

ـ الطلاق بقى عادي.. معاك «Kids»؟

ـ كان معايا.. نور..

لفظة «كان» وتّرت ملامحها، رَجَعت بظهرها للكرسي وقطبت جبينها فخفّفت نبرة صوتي وحاولت أن أنطقها بإحساس من يخبرك أن الجو حار وأن التكييف مُعطل.

ـ بنتي.. ومراتي.. ماتوا في حادثة على طريق الساحل الشمالي من خمس سنين!

وضعت أناملها على فمها تبحث عن لسانها ونظرت لا إراديًّا لجميلتها، سئمت تلك الملامِح، خَليط الفَزع والشَفقة مع تدلّي الفك ثم البحث عن كلمات مواساة رتيبة لا معنى لها، هذا بخلاف الفأل السيئ الذي يسببه أمثالي في أي مكان.

ـ أختك إزّاي ما قالتش.. مِش عارفة أقول لك إيه!! أنا.. البقاء لله.. متأخّرة أوي.. أنا...

ابتسمت لها تخفيفًا:

ـ ما تقوليش حاجة.. الموضوع انتهى خلاص.. خلّينا نركّز في اللي نقدر نساعده..

ابتلعت ريقها بالـ«Espresso» ثم استطردت بعدما تَمالَكت نفسها:

ـ أوّل ما عرفت إن شريف هيتحول على العباسية دعيت تكون لسه هناك.. شُفت شريف يا يحيى!!

ـ ملفّه معايا.. احكي لي.. بالتفصيل من البداية..

ـ شريف وبسمة اتعرّفوا على بعض من أربع سنين في فرح واحدة صاحبتنا، حُب من أوّل نظرة، الموضوع مِشي بسرعة، مافيش شهور واتجوّزوا، أنت عارف شريف وطقطقانه، بس هو بجد كان بيحبها أوي.

أخرجت أجندة لأدوّن ما تقول حين أردفت:

ـ كل حاجة كانت ماشية كويس لحد قبل الحادثة بشهرين.. وعلى حظّي كنت في فرنسا تبع البنك لمّا عرفت من ماما إن فيه مشاكل بين شريف وبسمة.. على ما رجعت كانت كل حاجة انتهت..

ـ إيه طبيعة المشاكل؟

ـ كلمت بسمة من فرنسا لما شريف فجأة ما بقاش يرد على مكالماتي.. حكت لي أن شريف متغيّر من ناحيتها.. كانت شاكّة إن تأخير الحمل هو السبب.. مُكالمة تانية بعدها كانت بتعيط وقالت إنها حاسة إن فيه واحدة تانية.. ما بقتش تعرف أي تفاصيل عن حياته.. عازل نفسه وبيغيب كتير ولمّا بييجي بيقفل على نفسه بالمفتاح بالأيام في أوضته.. و«During Sex» بقى عنيف جدًّا.

ارتبكت ملامحها خجلًا فهززت رأسي تفهمًا لتكمل:

ـ طبعًا حاولت أوصل لشريف.. قافل تليفونه ليل نهار وما بيفتحش الباب حتّى لو بسمة قالت له إنّي على التليفون.. دي

الحاجة الوحيدة اللي مش فاهماها.. إحنا طول عُمرنا أصحاب وسرّنا مع بعض.. عُمره ما عمل كده معايا.. ودَه اللي أكّد لي إن فيه حاجة غلط.. المهم.. بعد كام يوم بسمة عرفت من جواب التأمينات اللي وَصَل البيت إنّه اترفد من المستشفى.. كلّمتها.. حكت لي كلام غريب..

ـ كلام زي إيه؟

ـ شريف بيكلّم حدّ معاه في الأوضة وهو قاعد لوحده.. حدّ شايفه.. بيقعد بالساعات باصص في رُكن، عينيه ما بتنزلش عنّه.. ما بياكلش ولا بيشرب معاها.. عمال يقول إن دراعه الشمال فيها مرض وهيقطعوها!!

ـ دي أعراض طبيعية للسكيزوفرينيا..

ـ شخصيّتين؟

ـ ده الجانب اللي بيحبوه بتوع السينما، بس السكيز مش كده، هو خلل عقلي مش نفسي، بيعمل أوهام، تسمعي كلام غريب، مُخابرات بتراقبني، بيتصنّتوا عليًّا، بيقروا أفكاري، عاوزين يموتوني، جنّ راكبني، مِراتي بتخوني وعاوزة تسمّني، عندي مرض خطير.. إلخ.. ومُمكن ييجي على «جنون عظَمة»؛ يعني أنا أقوى واحد، معروض عليا أكون رئيس، أنا المهدي المنتظر، أنا نبي! والمريض ممكن يسمع أصوات، وفي حالات نادرة بيشوف..

توتّرت مَلامحها:

ـ يتعالج؟

ـ لو الأعراض حَصَلت في وقت بسيط زي ما فهمت منّك ممكن.. المشكلة الحقيقية في اللي بتبدأ عنده في سن المراهقة..

ـ لكن شريف دكتور، مش المفروض يكون...!

ـ مفيش حد كبير على المرض.. مش دي المشكلة.. المشكلة في القضيّة..

ـ أنت مصدّق إن شريف يقتل؟؟

ـ أعراض الـ«Schiz» نادرًا ما تبقى عنيفة.. يمكن لو فصام هيبفريني ساعات بيكون عدواني..

ـ هيبفريني يعني إيه؟

ـ مش عاوز أدوشك بمصطلحات.. يعني لو فعلًا قتلها يبقى ما كانش في حالته الطبيعية.. كمّلي..

ـ فجأة شريف طرد بسمة وغيّر كالون الباب.. راحت عند مامتها ماحاولش يكلّمها أسبوع.. وبعدين اتّصل بيها واترجّاها ترجع.. راحت له.. فتح لها الباب عريان وراسم «Tattoo» أكيد شفته.. همّا الاتنين مجانين تاتوهات أصلًا.. تخيّل بعَمِل إيه؟ «He raped her».. بمُنتهى العُنف..

ـ اغتصاب.. اغتصاب؟

ـ ده اللي قالته في التليفون وهي مُنهارة..

ـ وبعدين؟

ـ وبعدين بسمة اتقطعت أخبارها، آخر مرّة اتّصلت بيهم اترفعت السمّاعة، قعدت أقول ألو.. ألو الخط قفل، بعدها بشوية جات لي «SMS» من تليفون شريف..

قالتها وعبثت في تليفونها قبل أن تُناولني شَاشة الرسائل القصيرة.. كان فيها كلمة واحدة.. «إلحقيها»... فقط..

ـ إلحقيها!! الرسالة دي كانت إمتى؟

ـ يُوم ما بَسمة رَمت نفسها!! وبعدها بيوم رجعت من فرنسا..

سكتتْ وسَحبتْ نفسًا مُحاولة السيطرة على رعشة ألمّت بأنامِلها ثم أشعلت سيجارة مارلبورو «Slim» بالنعناع..

ـ يحيى أنا هاتجنّن وماما هتموت.. أنت ما شفتش أبو بسمة عمل فينا إيه في المَحكمة.. بهدلنا وصرّخ فينا وماما انهارت.. الراجل كان بيعتبر شريف زي ابنه.. وشريف في القفص بيعمل إيه تخيّل؟ يبتسم للراجل أكن مافيش حاجة.. حاسّة إنّي في كابوس مش عارفة أصحا منّه.. كابوس حقيقي..

مَسحت بمنديلها دموعًا اختلطت بالمسكاراه، بلّت شفتيها

والمنضدة ووتّرت ابنتها فالتفّت إلينا الرءوس التي ظنّتني نذلًا أهجرها.

ـ إهدي.. الموضوع فيه حاجة مش منطقية.. مش عارف أنتي تعرفي ولا لأ.. بس بَسمة لمّا ماتت كانت حامل..

شحب وجهها دُفعة واحدة:

ـ شريف كان هيموت على «Baby».. مش ممكن يكون قتلها بعد ما كانوا مستنيين أربع سنين!!

ـ العيب كان من مين؟

ـ كان فيه ضَعف في الـ«Sperms» عند شريف..

ـ وفَجأة بَسمة بقِت حَامل! تِفتكري وارد يكون شكّ إن اللي في بطنها مِش ابنه؟

قاطعتني باستنكار:

ـ يستحيل.. بسمة أنا أعرفها أكتر من نفسي.. بنت ناس..

ـ يبقى مافيش غير إن شريف في لحظة.. ماكانش شريف.. أو...

ابتلعت الكلمة من على لساني فأكملت هي:

ـ أو إن شريف خلَق كل ده عشان يخلص منها.. مش كده؟

ـ ممكن تكون استفزّته بكلمة بسبب الحمل؟ مش عاوز أقول

عايرته عشان بلدي الكلمة دي.. بس إحنا دايمًا بنتضايق من اللي يلومنا حتّى لو بالسكوت.. اللي بيحسسنا بضعفنا..

ـ عمرها ما كلِّمته في المَوضوع دَه..

ـ ممكن يكون فيه واحدة تانية؟

صدمتها شكوكي فابتعدت بظهرها هربًا إلى طرف الكرسي وشبّكت يديها انغلاقًا..

ـ معقولة يكون ده تفكيرك في شريف!!

لم أشأ نبش جرح اندمل.. فشريف لم تكن لتردعه منظمة حلف شمال الأطلسي عن فتاة يرغبها..

ـ ما تفهمنيش غلط.. أنا بافكّر زي اللجنة ما هتفكّر..

ـ اللي أعرفه إن شريف وبسمة ما يستغنوش عن بعض.

«اللي أعرفه»: قائلها غير واثق أو لا يملك معلومة..

ـ المشكلة إن أخوكي دكتور نفسية.. وده مخلّي موقفه صعب.

ـ وصَعب يتعالج؟!

ـ لو مَريض فيه احتمال يتعالج ويخرج...

ـ ولو مش مريض؟؟

لم أجد ما أقوله فأشاحت بنظرها بعيدًا قبل أن تعود:

ـ عاوزة أشوفه..

ـ صعب.. الموضوع عاوز إذن من النايب العام.. سيبيني أشوف ممكن أعمل إيه.. صحيح قبل ما أنسى.. أخوكي كان ليه حساب في بنك؟

ـ أه.. فاتحة له حساب عندي..

عرضت عليها أرقامه التي كتبها..

ـ ده مش رقم حساب ولا حتى فيزا.. أنا حافظة الأرقام.. يمكن رقم دولي والكود غلط أو ناقص..

ـ اتّصلت ما ادَّانيش حاجة.. مَبدئيًّا انقلي الأرقام دي وحاولي تعرفي أي معلومة عنها.. يمكن حسابات في بنوك تانية.. خزنة شايل فيها حاجة تهمّه.. قولي لي.. معاكي مفتاح شقّته؟ ممكن ألاقي حاجة تساعد..

أخرجت سلسلة مفاتيح من حقيبتها وعزلت واحدًا:

ـ لو أهل بسمة ما غيّروش الكالون هيفتح معاك..

ـ تقدري تيجي معايا؟

ـ أنا أعمل أي حاجة تخلّصني من الكابوس ده..

نظرت في عينيها وبثقة لا أملكها أجبتها:

ـ هيخلص.. أوعدك.. مَعاكي عربية؟

انتهينا وخرجنا إلى سيارتها الراقدة أمام الباب، حمراء موديل السَّنة زيّن كنبتها الخلفية كَمٌّ من الدببة القطنية يكفي محل هدايا وكُرسي لهانيا جلست فوقه بجانب خادمتها الصامتة، ضغطت لبنى زرّ التكييف ورفَعَت الزُّجاج فانعزلت الأصوات، تحرّكنا والصَّمْت يرخي حبائله فوقنا، كان علينا اختراق زحام الإشارات والمارة السائرين وفجوة عشر سنوات تفصلنا عن آخر مرّة جلسنا بذلك القرب، شَغلت نفسي بالطريق، ووجهها، أسترق نظرة إلى صفحته كل بضعة ثوان متجنبًا أن تتلاقى النظرات فتستشعر الأسئلة التي تلح عليّ إلحاح مطر غينيا الاستوائي، لم أستطع منع نفسي من تأمّلها، استيعابها، تسجيلها في ذاكرتي وجرد الحَسَنات التي تُزيّن عَضدها، أربع عشرة نجمة بُنّية لم ينقُص واحدة! أفقت منها لمّا سَحَبت لرئتيها نفسًا وأغمضت جفنيها قبل أن تخطف دمعة بسبّابتها لتواريها وتضغط زِرّ الكاسيت تَشتيتًا للصَّمت، لَحظات وتسلّل صَوت فيروز كدُخان أزرق لا يُوتّره هَواء:

«عندي ثقة فيك.. عندي أمل فيك.. بيكفّي.. شو بدّك يعني أكتر بعد فيك..».

ما زالت أسيرة فيروز! لاحت من بين شفتيها ابتسامة خاطفة عند مَقطع «باجرب ما بافهم شو علقني بس فيك!»..

ـ لسّه بتضحكي عند نفس الكوبليه!

قلتها في سرّي فأجابت:

ـ مش قادرة أطلع من فيروز.. مافيش واحدة بتقول اللي بتقوله.

ـ آه.. طبعًا.. جامدة فيروز..

لم أجد ما أعلّق به فباركت كلماتها بهزّة رأس كما أبارك آراء سائقي التاكسي السياسية، ثِقل دمّي بَلَغ لُزوجة مربّى تين، ظللت صامتًا حتّى وصلنا أمام عمارات عثمان بالمعادي، أبراج رفيعة شاهقة تثير رُهاب الارتفاعات في مدرّب قفز بالمظلات، تتناثر عليها وحدات التكييف كحبّ الشباب في وجه مراهق، تركنا السيّارة وفيها ابنتها والخادمة قبل أن ننعطف عند المَدخل، دلفنا إلى مصعد مكسو بمرايا عكست صورتنا لا نهائيًّا، كأننا نُحلّق في فضاء أسود، تابعت الأرقام المتصاعدة بسرعة سَحَبت الدم من العروق وانعكاس شعرها الواصِل لنصف ظهرها حتّى وصلنا الطابق الثلاثين..

لمبة سلّم ترتعش وهواء يُصفّر من فَتحة ضَيقة في شباك كئيب عَريض، أشارت لُبنى إلى بَاب الشقّة ثم قبعت في المصعد تحسبًا لوجود أحد من آل بسمة، أعرف النساء، عند الهلع ستضغط هي الصّفر وعليَّ أنا أن أنزل ثلاثين دورًا قفزًا!!

اقتربت من الباب، بقايا الشمع الأحمر تترنّح قرب ثقب المفتاح بهزال، قَرَعت الجرس وأنا أرتّب في رأسي سيناريو

افتراضيًا، سُؤالي عن اسم شخص غريب بَدا حتميًا، تلقيت صَمتًا، دقيقة وناديتها، خَرَجت مُنكمشة والتصقت بكتفي كأننا نقتحم كهفًا يَسكنه دبّ، نزعت الشمع الأحمر وأدرت المفتاح مُقاومًا تيار هواء دفع الباب في وجهي، نافذة بَحَرية نُسِيَت مفتوحة، بحثت بأناملي عن مقبس نور وضغطته فلم يبدّد الظُّلمة، على ضوء تليفوني تلمّست علبة الكهرباء الرئيسية حتّى وجدتها، رَفَعت المَفاتيح النازلة واحدًا واحدًا حتى أضيئت الصَّالة، دخلْت ودَخَلَت ورائي تتخبّط، تركتها واتّجهت مُباشرة لنافذة الشرفة المنسية المُطلّة على النيل وأغلقتها فهدأت الأصوات بغتة، يبدو أن أحدًا من آل بسمة لم يقو على المجيء، فالأثاث مُبعثر والسجّاد مطموس بآثار أقدام رجال البحث الجنائي والطب الشرعي، والأركان تكدّست بأكواب شَاي مَدفون فيها أعقاب سَجائرهم، تُحف أسقطتها ريح متهوّرة، وبرواز تناثر زجاجه على الأرض، انحنيت على صورة تجمع شريف وبسمة مُتعانقين على شاطئ، يضحكان ضحكة من القلب، انتزعتها من بين الزجاج المكسور حين اقتربت لُبنى فعلّقت:

ـ شكلهم كانوا بيحبوا بعض أوي!

ـ مافيش حدّ بيضحك كِده غير لما يكون بيحب..

ـ عرّفيني أروح فين.

أشارت إلى طُرقة على اليسار يتفرّع منها ثلاث غرف:

ـ آخر أوضة..

دسست الصورة في جيبي ومَشيت في الطرقة باتّجاه الباب المُغلق، فَتحته فصَدمتني رائحة عَطنة مَكتومة قبل أن أضيء نور غرفة كانت غرفة مَعيشة! في اليمين كنبة مُتهالكة منزوعة الكسوة مُقعّرة من المنتصف، وفي اليَسار حَائط مَوشوم بمتتالية شريف الرقمية ذاتها! مَكتوبة ببنط كبير خلف مكتبة صَغيرة خالية إلا من زُهرية نَبتَتُها الصِّناعية ذَبُلت واصفرّت، تكدّست الزجاجات البلاستيكية التي تميّزها آثار صُفرة البول في ركن لن أطرقه، الركن الذي وجدوا فيه شريف، عَرفته من بقايا دماء شرايينه التي لم تغادر السجّادة، اقتربت من النافذة وفتحتها تهوية فصَفَع الهواء وَجهي، تَحاملت ونَظرت إلى أسفل فُضولًا، لو سقطت من هذا الارتفاع لتوقف قلبي قبل أن أصِل نِصف المَسافة، ألمّ بي دوار فأغلقت النافذة والتفتّ للُبنى التي وقفت تتأمل الأرقام على الحائط:

ـ مش دي نفس الـ...؟

ـ هي.. واضح إن شريف بتزاوله فكرة «OCD».. وسواس قهري بيلح عليه يكتب أرقام.. بيبقى لها عنده مدلول إحنا ما نفهموش..

ـ حتى لو دكتور ما يقدرش يحس إن دي هلاوس؟

- ممكن يحس لو هلاوس، جلستين كهربا وأدوية نقدر نفصله عنها واحدة واحدة، المشكلة لو «Delusions».. ضلالات..

- إيه الفرق؟

- الهلاوس بتيجي سمع، رؤية، وممكن حتّى شمّ، إحساس مش حقيقي بيخلقه المخ.. تروح أعراضه مع الأدوية، ولو بطّل الجرعة ترجع له أعراضها تاني فيفهم المريض ويستوعِب إنه مريض، لكن الضلالات أفكار مغروسة، مصدّقها ويجادل اللي يعارضه فيها، بتاخد وقت..

فتحت كاميرا تليفوني لألتقط صُورًا للغرفة، وتعمّدت «صدفة» أن ألتقط لبنى في واحدة حين لاحظت أن المتتالية قرب حدود المكتبة نهايتها مبتورة، رَقمين نَاقصين تَواريا خَلفها، المَكتبة تَحرّكت عن مَكانها المَعهود، كما أن الظِلّ الأصفر من أثر حَجْب الشمس والهواء عن الحائِط متأخر عنها سنتيمترات، دَسَست أصابعي في الفراغ خلف المكتبة وبعزم قوتي بدأت أجذبها، اقتربت لُبنى بدون أن تسأل وجذبت مَعي المكتبة التي صدّتها السجّادة فاهتزّت للحظة كانت كافية لتسقط الزهرية مُحدثة دويًّا مبالغًا فيه، تبعثرت أوراق الشجر البلاستيكية الباهتة بين أجزاء الإناء وكارت شَخصي وتليفون مَحمول انفصلت بطاريته!!

- ده تليفون شريف!

قالتها وأنا أجمع أشلاء النوكيا.. وَضعت الشريحة وضغطت زِر التشغيل فلم يستجِب.. سَكتة بطارية لن تسعفها سوى شحنة كهرباء..

ـ التليفون ده طالما عَدّى على المباحث يبقى أكيد كان قاطع شحن قبل يوم الحادثة..

ـ وإيه اللي جابه هِنا؟

ـ مش عارف.. يمكن أخوكي خبّاه!

قرأت الكارت الشخصي..

Buddha ..Tattoos designs..

اسم مَحل في مصر الجديدة لرسم الوشم، مذيّل بعنوان ورقم تليفون..

ـ ده لازم المحل اللي رسم فيه الـ«Tattoo» اللي على إيده..

خرجت منها بمرارة، دسست التليفون والكارت في جيبي وأزحت المكتبة لمسافة تسمح بمروري، المتتالية اكتملت برقميها الناقصين كما كتبها شريف..

انحنيت لألتقط بقايا كتاب حُشر بين المكتبة والحائِط، كتاب مُهترئ، لغته عربية عتيقة، استُعمل استعمال حِدوة حصان قبل أن يُمزّق جزئيًّا، ما تبقّى من غلافه حمل عنوان «عجائب الآثار

في التراجم والأخبار» لعبد الرحمن الجبرتي!! بالداخل كانت الكلمات مُكدّسة مَضغوطة بالكاد تُقرأ، وهوامش منمنمة تُحيط الصفحات كبرواز مُزعِج، حين تفحّصت الأوراق عثرت بين الصفحات على رسوم متقنة بخط اليد لرجل وامرأة في أوضاع جنسية تُشبه أوضاع كاماسوترا الهندية، طويت الصفحة خجلًا حين علّقت لُبنى:

ـ ده مش طبيعي!

ـ طبيعي مع مريض سكيز.. دِماغه مُمكن توديه في أي حتّة.. أعرف ناس كانت بتحوش أعداد «طبيبك الخاص» بهستيريا عشان باب الاستشارات الجنسية.. هاسأله عنها يمكن يفتح معايا كلام.. الحمّام فين؟

السكري اللعين وشعير البيرة يجعلان مَثانتي لَحوحة إلحَاح ذُبابة لا تستقر، إفراغ نهري الأصفر بَلَغ في تقديري نِصف مُتعة المُعاشرة الجنسية! راودتني ذكرى مُراهقتي عندما كُنت أصطحِب مَجلات السِّكس للحَمَّام حين لاحظت أنّي وضعت الرسوم الجنسية في جيبي وطلبت دخول الحمام فجأة، «Which means» حدث يستنتجه طِفل لم يبلُغ!! تمنيت أن تفقد لُبنى الذاكرة قبل أن أنهي بثّ نداء الطبيعة حين اكتشفت أن المياه مقطوعة ومَحبس السيفون مكسور! سأترك ورائي جريمة! بَحثت عن منديل ورقي حتّى عثرت على واحد في جيبي حين لاحظت خزانة الدواء المُعلّقة بجانب المرآة، فتحتها فَوَقَعت فُرشاة أسنان

ومَاكينة حِلاقة وخَمس علب «زيلورك ـ ٣٠٠» من بين خمس عشرة علبة رُصّت بعناية فوق بعضها!! دواء يعمل على سَحب الملح من الجسم! كان ذلك حين انطفأت عيناي فجأة وسَمعت لُبنى تَصرخ!!

على طريقة برايل استرشدت مَكان مقبض الباب، بتفاهة وقِلّة عَقل عاندني لا ينفتح حين سمعتها «يحيييياااا؟» جذبت المقبض حتّى انفتح عَنوة، لم أعلم وقتها أني نسيت أمر الترباس، خرجت أركض على ضوء المحمول الواهن ناحية الغرفة، خرجت من الباب أُنادي لُبنى حين تعثّرت في الكنبة لأسقط على رُسغي، طَار التليفون منّي وطار صوابي لمّا أتت استغاثتها الثانية من الغرفة المجاورة، تحاملت وقمت أتحسس الطريق وعيناي منفرجتان على آخرهما أستجدي نورًا..

ـ يحيى.. أنا مش شايفة حاجة..

ـ أنا جاي.. خليكي في مكانك..

ضرير تحسست الجدران حتى عثرت على باب الغرفة، مَددت يدي أمامي حتّى لامَست شَعرها فوق كتفها، انتفضت رعبًا فأمسكت يدها، قرّبتها منّي حتّى سَمِعت نَهيجها وشَمَمت الأريج الذي لم يغادرني يومًا..

بعضنا يعيش عُمره حَسرةً على قِطار فاته!

ـ أنت كويسة؟

ـ أنا عاوزة أمشي..

ـ إهدي.. النور قطع بس.. مش مُمكن ننزل تلاتين دور على رجلينا! امسكي فيا..

تشبّثت بي بأنامل مُثلّجة هَاربة دماؤها وخَرَجنا من الطرقة إلى الصالة تتعثّر أقدامنا في الكراكيب الملقاة على الأرض، الشُّرفة بدت أكثر حميمية لانفصالها نظريًّا عن الشقّة، دخلناها نستقي بقايا نور الشارع المشتت في السَّماء ونثرات قَمر متآكِل، دفَعَها الهواء كلعبة بلاستيكية تترنّح وطيَّر شعرها، غريزيًّا ألصقت ظهرها بالسور تُحدق بترقب في الفراغ داخل الشقّة كأعزل يَرتَقب وَحشًا ضاريًا، وعيناها الخضراوان منفرجتان على اتساعهما جوعًا للضوء، رَمقتني فابتسمت لها في استهانة صِناعية أبثّ الطمأنينة فيها، هدأت رعشة يدها قبل أن تنسلّ أصابعها تدريجيًّا من كَفّي حرجًا وتهرب بعينيها ناحية أضواء القاهرة البعيدة، وقفت بجَانبها أتأمل ذلك المنظر المَهيب؛ النهر العَتيق يعكس نصف قمر مُرتعش على صفحته، وصوت الريح مُهيمن يصرخ في شعرها ويُبعثره قُرب وَجهي، تتجنّبني عنوة وبيننا ألف كلمة تفور، دقيقتان من الصَّمت المدوي مرّا كساعة قبل أن يَعود النور ومَعه لون وجهها، ظللنا على صَمتنا لحظات حتّى لفّت خصلتها خلف أذنها فوفّرت عليها الارتباك..

ـ يلّه بينا قبل ما يقطع تاني..

كان ذلك حين أصدر تليفونها جرسًا فنظرت للشاشة قبل أن تُنهي الاتصال:

ـ ده خالد.. أصله ما يعرفش أنا فين!

«خالد» في مُعجم «لسان العرب» من مصدر «خُلد» وتعني:

«خَلَدَ، يَخْلُدُ، خُلْدًا، وخُلودًا» أي بقي وأَقام..

دوام البقاء في دار لا يخرج منها..

دوام البقاء مع أنثى لا يُفرغ منها.. لا يشبع منها..

لا أعرف إن كانت لغة الجسد خانتني أم أني في قرارة نفسي تمنّيت «بدناءة» رؤية ذلك التعبير في وجهها فرأيته؟ مَلامح لُبنى لم تَبد مُسترخية وهي تنطق اسم زوجها، تقلّصت شَفتاها لجزء من الثانية كان كافيًا بالنسبة لي لألتقطه، اللعنة على لغة الجسد وما تفعله في دارسيها! خرجنا إلى المِصعد أتحسس رُسغي الذي تورّم وصدرًا أحاط قَلبًا منتهي الصَلاحية، هَبطنا من البروج المُشيّدة صامتين وكادت تقبّل الأرض شكرًا بإحساس نملة فلتت من الدهس قبل أن نركب السيارة، احتضنت ابنتها التي انفلقت بُكاءً ثم بحثت عن شاحن لتليفون شريف لكن الثقب كان يحتاج شاحنًا مختلفًا، تَحرّكنا بالسيارة وبقايا كرامة لا زالت تستغرب المسافة بيننا، عيناي تندفعان إليها مثل المياه على السد، بالكاد أصدّها، لُبنى أيضًا تقاوم فُضُولًا جعل قبضتها تعتصر عجلة

القيادة! صَرَفت شياطيني وتابعت الشوارع بشرود مُصطنع حتّى وصلنا أمام بيتي بعدما أصرّت على توصيلي..

ـ تقّلت عليك..

ـ بتهزّري!!

ـ خلّي المفتاح معاك يمكن تحتاج تروح تاني.. عندي نُسخة..

ـ أنا هاتابع شريف وأطمِّنك.. قبل ما أنسى.. هو شريف أو بسمة حدّ منهم عنده أملاح؟

ـ مش فاكرة حاجة زي كده!

ـ غريب.. أصل لقيت أكتر من عشرين عِلبة دوا للأملاح في الحمّام!! وأخوكي في نفس الوقت طلب ملح زيادة في أكله!! Anyway.. هاخلّي تليفون شريف معايا.. عندي نفس الشاحن.. خدي بالك من نفسك.

ـ متشكرة يا يحيى..

ربي.. لِم لَم تخلق آدم بلا ضلوع؟!

تابعت سيارتها تبتعد، لوّحت لي «هانيا» من الزجاج فابتسمْت ورفعت يدي بعفوية قبل أن تُواري نَفسها في حُضن مُربيتها الفلبينية حتّى اختفت كشافات السيارة، لم أشعر برغبة في دخول شقّتي، سحبتني قدماي إلى عوني، الطريق ضيّق لكنه يكفينا نحن

الاثنين، أنا وهواجسي، أنتقي علب السجائر وأوراق الشجر الجافة لأدهسها بقدمي، صوت التهشيم يُشعرني براحة لم أعرف يومًا سببها، حاولت ترتيب أفكاري لكن ضيّ القمر على عينيها، وملمس أناملها في كفّي وأريج شعرها جعلوا تحليلي مشتتًا مُهلهلًا كبضاعة صينية المَنشأ، أقاوم تشاؤم «مُحترف» يتسلل إلى عقلي بشأن الأمر برمّته، اللعنة على الباب الذي انفتح على حياتي المستقرة الهادئة الميّتة بخشوع ناسك بوذي أبكم أطرش أعمى، كم أكره التغيير!!

خاصة حين يأتي حاملًا معه عِطرًا قديمًا لم تغادر رائحته صدري.

وصلت لعوني وحييت الجالسين ثم صببت لنفسي كأس «Jack Daniel's» قبل أن أقتنص مكاني وسْط خمس فرائس سَيكونون سببًا في إعادة هيكلة أفكاري، يَحدث هذا دائمًا، بل وأبيت صَافي الذِّهن حين أفتري على أحدهم وأحمّله ثمن جوخ المنضدة والحشيش، ذنب سأكفِّر عنه فيما بعد..

انزلقت في كرسيي أرقب الأوراق في وجوه من حولي، وللأسف لم يكن من بينهم شاكر، العَاجز جِنسيًّا، سحبت أوراقي ونظرت فيها وبدأت الدّورة، لم أعرف يومها إن كانت الكأس أفقدتني التركيز! أو أنّنا نلعب «شطرنج» ولا أدري! نصف ساعة وتوقّفت قبل أن أنسحب وقفًا لنزيف وَصَل خمسمائة جنيه!!

تشتّتت قراءاتي كإبرة بوصلة قُرب مَغناطيس وضربني الصداع

تدريجيًا حتّى احتقنت عيناي ولَم أكن قد أنهيت كَأسي الثَّالثة بعد، التقطت كيس سُكّر أفرغته تَحت لِساني وقُمت مُستأذنًا وَسط الشماتات، صَحبني عَوني إلى الباب متسائلًا إن كنت على ما يرام، طمأنته بكلمات مُبهمة لن أتذكّرها ثم رحلت..

حين وصلت البيت خَلَعت ملابسي وأعددت شريحة خبز بالتونة قبل أن يرنّ تليفوني برقم مايا، لا بد راغبة في استرجاع لباسها، أو ربما ترْك واحدًا آخر على سريري! لم أجد في نفسي عزمًا للرد عليها، كما أنّي في حاجة لحوار جاد والحوار مع مايا لا يأخذ أكثر من خمس دقائق ثم نَصمت، لنتحدث بطريقة برايل قبل أن نتشابك بالأيدي والأرجل في معركة نَخسرها سويًّا!

الله جعلها جارية حسناء؛ كما جعل بعض الزهور سامة، لكنها على أي حال أفضل بالنسبة لي من عروسة جنس بلاستيكية!

ضغطت زِر كَتْم الجرس ثم أخرجت تليفون شريف، كان مَطليًّا بالخدوش كقبقاب في حمّام بلدي، لكنه على أي حال يستخدم نفس شاحن مَحمولي، أوصلته بالكهرباء تغذية وضغطت زِر تشغيله، نَبَح النوكيا بنغمته الرتيبة وأُضيئت نِصف الشَّاشة بضوء واهن بسبب الشرخ الواسِع الذي تمشّى فوقها، فَتَحت قَوائم «استقبال وإرسال المُحادثات» فوجَدتها خَالية، فقط قائمة «المُكالمات الفائتة» ضمّت طَابورًا طويلًا من الأسماء من بينها زوجته وأخته، شريف لم يجب متّصلًا لمدّة شهر على أقل تقدير! فَتَحت قَائمة الاستوديو فصفعتني مفاجأة جعلتني أوصل التليفون

بالكمبيوتر لأتوغل في التفاصيل، أكثر من ستين صورة لبَسمة، عَارية مُستلقية في السَّرير! لقطات مقرّبة لشفتيها، عنقها، ظهرها، ساقيها وأصابع قدميها وكاحلها، تصوير عاشق يُقبل الأرض تحت قدمي أفيونته! بدت مثيرة رغم الكدمات البنفسجية في جلدها! تلتها مجموعة صور لشريف معها، يقبّلها، يلعقها، ينهشها ويمتص رحيقها، مُوليًا وجهه للكاميرا مبتسمًا بفخر مسئول يفتتح مستشفى أطفال، ووجه بسمة شارد إلى سماء الغرفة، غائبة، يقظة ربما لكنها غير واعية، غير مبالية، لا.. مُنتشية! تعبيرات مختلفة لا تؤدّي إلى طريق! وضعية الكاميرا أيضًا بدت غريبة، قريبة، موضوعة على منضدة بجانب السرير، ومَمسُوكة بيد شريف أحيانًا، من التاريخ عرفت أن تلك المجموعة تم التقاطها على مدار أسبوعين قبل السقوط! تتخلل تلك المجموعة صُور لمبنى قديم أعرفه! نعم أعرفه، المتحف الإسلامي بباب الخلق أمام مديرية أمن القاهرة! بَعدها مجموعة صور لفاترينة عرض زُجاجية في المتحف نفسه اضطررت لتكبير مُحتواها، عباية؟ جلابية كانت أقرب وصفًا للرداء المَفرود على ماسورة بيضاء، لونها سَمني فاتح ومُقسّمة بخطوط عَرضية إلى مُربَّعات مائلة تملؤها مُربعات أصغر فأصغر مملوءة بالأرقام، وعلى الأكتاف والأكمام أربع دوائر مرسوم فيها ورقة شجر سداسية! بجانب بعض اللقطات لكاميرات مُراقبة ونظام إنذار وبوابة مكتوب عليها «الطب»!

المتحف الإسلامي!!

بعد «عطل فنّي» في رأسي دام لحظات فتحت متصفّح «Google» وكتبت «سرقة المتحف الإسلامي»، تجنّبت الديباجات المنقولة بغُشم حتى وصلت للُب الخبر:

«... وقد أكّد الأمين العام للمجلس الأعلى للآثار أن المتحف قد تعرض للسرقة بالفعل أثناء فترة الانفلات الأمني، مُشيرًا إلى أن ما تمت سَرقته هو قِطع بسيطة وغير مُهمة، قميص من الكتَّان يرجع للعصر العثماني وأطباق منقوشة بالزخارف، ونسخة من كتاب «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» للجبرتي!! وعلى الرغم من أثرية المسروقات فإنها ليست بأهمية سيوف السلطان الغوري وبونابرت التي سُرقت أثناء الترميم..»..

ولم يذكُر الخبر لِم يمتلك شريف هذا الكتاب! وهل يملك باقي المسروقات!!

ضغطت سهم التمرير فأتتني الإجابة مع آخر صورة، شريف في مرآة الحَمّام مُتصلبًا يَرمق انعكاسه مبتسمًا، ويرتدي القميص، قميص المتحف الإسلامي!! يَده اليسرى المُزيّنة بالوشم تصوّب كاميرا التليفون للمرآة، ويُمناه مَرخية وجُروح الانتحار فيها تنزِف الدماء! وتاريخ الصورة يشير ليوم محاولة تحليق بسمة الفاشلة!

شريف كان حاضرًا مُسجلًا لحظة فريدة؛ لَحظة انتحاره، أمعنت النظر في الابتسامة المحفورة حَول فمه مُحتلّة جوانب

شفتيه بقهر، ابتسامة تجمع الظفر بالضَّعف، حواجبه تصنع رقم ثمانية مُرتعشًا هَزيلًا، ورُسغه يَعتصر التليفون بقوة نفّرت العروق، شريف انتهى من تلك الصورة وألقى تليفونه في الزُّهرية البِلاستيكية!!

أسدلت جفوني منعًا لعقلي من لَضْم هَواجسي ببعضها لأن الـ«Pullover» التي ستصنعه سيكون مُغلقًا من ناحية الرقبة، وبلا أكمام! لماذا صوّر شريف زوجته بتلك الطريقة؟ شَبق مُبالغ فيه لمتزوّج لا بد اعتاد رحيق امرأته وملّه كعادتنا نحن الرجال! تصويره لنفسه والجرح ينزف؟! الثبات في ملامحه وابتسامته؟! قميص المتحف الإسلامي؟! الكتاب المهترئ بين يديّ؟! صور فاترينة العرض وأجهزة الإنذار التي توحي بمؤامرة؟!

ألغاز لا محل لها من الإعراب ومُستنقع مظلم أكره الخوض فيه، أحتاج سيجارة محشوّة..

لففت واحدة ووضعت يدي في جيبي أبحث عن الولاعة حين عثرت أناملي على صورة الشاطئ التي التقطتها من شقّة شريف، أشعلت سيجارتي وأنا أتأمل ملامحهما، السعادة والتوائم لا شك فيهما، الضحكة غير مُصطنعة، حَركات جَسديهما لا تكلّف فيها، والوشم المُغوي على فَخذها اليسرى يشير لزوجة لديها «Desserts menu» من مائتين صفحة.. من أجل زوجها..

الوشم!

التقطت دوسيه شريف وقلّبت صفحات تقرير بسمة الجنائي حتى عثرت على الفقرة: «... كما تبين حدوث قطع دائري مشرذم «قُطر ٥ سم» أعلى الفخذ اليسرى، يشير تطوره الالتئامي إلى كونه جائز الحدوث ما بين أسبوع إلى عشرة أيام، نتيجة سلخ الجلد بآلة حادة!!».

لقد أُزيل وشمها! سُلِخ بآلة حادة! أضفت لتقريري ملحوظة «نزعة سادية» قبل أن أُقرب الصورة لعينيّ، لم أستطع تبيّن الرسم جيدًا، ربما ثلاثة خطوط متقاطعة تصنع شكل وردة مبسّطة!!

توقّف عقلي بعدما امتصّ السُكّر من دمي، دَسَست الصُّورة في الملف الجنائي وتركت تليفون شريف الجائع يُكمل وجبته الكهربية قبل أن أنزلق في الكرسي أقلّب الصور على شاشة الكمبيوتر مع زجاجة «Meister».. حتى اختفت معالم الغرفة..

قبل الشروق تنبّهت..

قمت من فوق لوحة المفاتيح التي حُفرت أزرارها في رسغي، عَقلي مَسنون في قمّة تركيزه كمن نام عامًا، الشاشة كانت تعرض صورة شريف في المرآة، حين أطلْت النظر لَمحت خيالًا مَهزوزًا لجِسم يقف خلف شريف لم أكن قد لاحظته أوّل مرّة، جِسم أسود يتكئ على أربع قوائم، شكل أقرب لكلب! كلب أسود!! قبل أن أضغط (+) على لوحة المفاتيح لأزيد تكبير الصورة شعرت به

قد تَحرّك.. نحوي! هنا انتابتني الرعشة، تلك البرودة التي تعتريك حين تُدرك أنّك لست وحدك في الغرفة، وتنصب شعر جَسدك كجمهور استاد يصنع موجة تشجيع! لم يكن الانعكاس خلف شريف، الانعكاسِ كان خلفي! انتفضت لأجده ورائي، بحُمرة عينيه يحدق فيّ غِلّا والزبد ينسال من شدقيه، أنفاسي انسحبت بلا رجعة، ضربات قلبي فَقَدت إيقاعها والعَرق أغرقني في ثانية، كنت أعرف أن أي حَركة كَفيلة بتَنسيلي كَصَدر فَرخة، كما كنت أعرف أن تلك الزيارة قد تعوّض استعجاله في زيارته الأولى، بَحثت عن شيء في نِطاق مِتر أذود به عن نَفسي، مَضرب ذباب، كِتاب، وزُجاجة البيرة الفارغة! الأخيرة كانت الأكثر مَنطقية، حين ألقيت كفّي لألتقطها كان ذلك متأخرًا ثانية عن تحرّكه، قبل أن أصِل لعنقها كان بالفعل قد قفز، بردّة فِعل لاإرادية واريت وَجهي بيدي وانتظرت بَراثِن، تليها أنياب، لكني تلقيت شظايا زجاجة الـ«Meister» في مشط قدمي! كان ذلك ما أسقطته بصوت مسموع حين قمت مَلسوعًا من النوم..

صباح اليوم التالي..

خنجر غُرس في ظهري غَدرًا وصَمغ عَربي استبدل الدم في عُروقي، التفتّ خلفي حيث كان يَقف ضَيفي الفاجِم، ضيفي الذي رَحَل قبل أن أستيقظ، اختلجت عَيناي للحظة ومَرّت بجِلدي قَشعريرة من أثر التَّهديد!! لَم أستطع هَضم الفِكرة! هل ما تلقّيته تهديد؟ جرجرت نفسي حتى المطبخ أقاوم نور الشمس «نجم

أصفر كبير.. لا يفوتك..»، التي تتجول في الشقّة كأنها شقّة أبيها، تُصلي عينيَّ نارًا لا أتحمّلها، رشقت الحُقنة في عَضدي وضخخت أنسوليني تحت الجلد قبل أن أرتشف قهوة وأسحب لرئتي مليجرامات النيكوتين مع بقايا بيتزا شبه حامضة سَخّنتها في المَحمَصة ثم ارتديت مَلابسي ووضعت تليفون شريف في حقيبتي، حين هَممت بالرحيل زلّت قدمي للحظة كدت أهوي فيها على طرف الكرسي قبل أن أستعيد توازني، انحنيت على الأرض ألتمس ما مَيّعها فوجدت بقعة سائلة شفّافة، باشمئزاز لامستها بسبابتي، لزِجة مُقزّزة، رفعت إصبعي إلى أنفي، الرائحة كانت كريهة لا تأتي إلا عن بول أو.. لُعاب!!

طوال الطريق لشارع «المَرصد» بحلوان حاولت طرد الفِكرة من رأسي؛ فكرة أن ذلك السواد قد ترك تذكارًا على أرض غرفتي، يُطاردني وجهه مُطاردة الأغاني العتيقة رتيبة الإيقاع التي تلازمك حتّى الانهيار، لم يبدّد صورته سوى وُصولي مستشفى «بهمن» النفسي، تربض بلونها البنفسجي الرائق مَغروسة بين الخُضرة، نزلت أمام الباب المَنقوش بحَرفي «BH» مَجدولين، تمشيت وَسط السُّكون حتّى وقفت أمام فتاة استقبال سألتها عن اسم شريف الكردي، اضطربت مَعالمها لمّا ذكرته:

ـ هو مِشي من فترة.. حضرتك قريبه؟

ـ لأ.. ممكن أقابل حد من الـ«Staff» اللي يعرفه؟

ـ استريّح خَمس دقايق..

قَرصني المَلل رُبع سَاعة، مرّت خلالها سيدة عجوز اغتصبها الزمن ولا يزال، جَالسة على كُرسي مُتحرّك يَدفعها مُمرِّض، لمّا أصبحت أمامي رمقتني بمقلتين جاحظتين مشمئزتين، ثم ابتعدت ورأسها تلفّ ناحيتي تتابعني قبل أن تختفي في ممر! أي مرض

نفسي قد يصيب سيدة بتلك السنّ! انتفضت حين وضعت فتاة الاستقبال يَدها على كتفي تنتشلني من شرودي..

- Sorry عمّالة أندهك مش واخد بالك.. اتفضّل.. تاني باب شِمال.

تمشّيت ثم طَرقت وفتحت..

مَكتبة متخمة بالمَراجع ومَنظر طبيعي في شباك عريض ورَجل في العَقد الخامس يجلس خلف نظارته، أبدى عدم ارتياح وهو يُصافحني بابتسامة لم تَصعَد من حيّز الشفاه إلى العينين، سريعًا أسعفتني قراءة تفاصيله، دبلة في يساره، شفتان مزمومتان في توتر لا يُظهِران أسنانه، نظراته تمسَحني بسرعة وجبهته متشنّجة..

رب أسرة متحفّظ كثير الشك..

- يحيى راشد.. «Psychiatrist» في العباسية..

- صلاح رجائي.. «Consultant Psychiatrist»..

لم يبد عليه انفتاح ولا فكّ اشتباك أصابع يديه إلا لمّا حكيت عن شريف كـ«متّهم» وصِفتي كطبيب مُقيّم لحالته، ولم أذكر بالطبع علاقتي الشخصية به..

- في آخر أيامه هنا كان غريبًا..

- إزّاي؟

ـ شريف بطبيعته كان بيهتم بنفسه.. شيك.. لكن بدأت ألاحظ عليه إهمال.. صحّته كَمان بَقت في النازل.. أنا شخصيًا شكّيت إنّه بيتعاطى حاجة.. كلّمته مرّة.. ما فهمتش منه حاجة فمارضيتش ألفت النظر.. بسّ الزملاء لاحظوا.. شريف لغاية هنا كان بيعمل شغله صَح.. لغاية ما في يوم قعد مع مريض.. فجأة سِمعنا المريض بيصرخ في هستيريا فظيعة..

ـ إيه المشكلة؟

ـ المشكلة إن المريض ده كان حالة «Catatonic Schiz» من ٥ سنين.. ما بينطقش كلمة وما بيتحركش.. بمنتهى البساطة لقينا قلم رُصاص مَغروز في إيده!

ـ شريف هو اللي غرزه!!

ـ يَعني المَريض فجأة فاق بعد خمس سنين تيبُّس وغرز القلم في نفسه!

ـ المريض ماكانش مريض؟!

ـ لأ طبعًا! الحالة بتتعالج هنا من سنين.. وبعد ما بعدنا شريف عنّه اتيبس تاني..

ـ وبعدين!

ـ مَجلس المُستشفى لمّا قَعد مع شريف ما قدروش يفهموا تصرّفه.. بمُنتهى البَساطة شريف بقى خَطر.. اضطَروا يفصلوه..

ـ تشخيصك إيه؟

ـ شريف كان زميل مش عاوز أخوض في سيرته.. لكن فيه حاجة في عينيه بتخليني مش مقتنع بأنه مريض.. الموضوع حَصل بسرعة غريبة يمكن في أقل من شهر ونص.. May be أكون ظالمه.. بَس تعالى نقول إن أقرب حاجة «Latent Schizophrenia».. كامنة من فترة ما حدش كان ملاحظها وطلعت دلوقتي.. وممكن يكون «Tumor» ضاغط على منطقة معينة و...

ـ مافيش ورم..

ـ لكن فيه «Schizoparagraphia».. مجنون بالأرقام.. شريف لما مشي لقينا كمية ورق مَهولة ورا الباب مليانة أرقام.

ـ الورق لسّه...؟

ـ لأ طبعًا.. رميناه.. لكن.. فيه ورق دبلومة كان بيذاكرها نسيه لما مشي.. أعتقد لسّة موجود..

ـ ممكن أشوفه؟

استدعى الدوسيه مع أحد العاملين ووضعه بين يديّ.. العنوان كان:

«Body language and schizophrenia» دراسة عن لغة الجسد والسكيزوفرينيا!!

قرأتها مرّتين قبل أن أبحث عن ترجمة أسفل الشاشة تزيدني

توضيحًا، صُدفة واحد في المليون أن يختار شريف نفس المجال الذي درسته ليبحث فيه، قلّبت الدوسيه بحثًا عن بصمات شريف الرقمية فلم أجد غير ديباجات أكاديمية مُنظّمة آخرها كان قبل سنة من القضيّة.

ـ شريف ما حكاش عن مشاكل مع مراته قبل كده؟

ـ بصراحة ما أعرفش.. شريف كان كَتوم.. مِش بيحكي لحدّ أسراره.

رجع بظهره إلى الكرسي وبسط كفّيه على المكتب فعلمت أنه نَضَب، شَكرته على وَقته وقهوته وسَوالفه البيضاء «المنكوشة» التي أزعجتني طوال الجلسة قبل أن أقفز في تاكسي، طلبت من السائق إخراس فردة الجزمة الذي يغنّي في الكاسيت قبل أن أغوص في الكنبة الخلفية ألملم أفكاري..

علامات المرض على شريف جاءت سريعة، تصرفاته حادة وصلت للاعتداء الجسدي رغم ما شاهدته في صور تليفونه من عِشق ورغبة، ينكر ما فعل؛ الإنكار!! احتمالات جرائم العنف الجنسية المرتبطة بالفصام نادرة إلا أنها موجودة، ونسبة ظهور العنف بين المرضى أقل من ظهور العنف لدى الأشخاص الطبيعيين، ذلك لا ينفي أن مريض الفصام غير المنتظم في علاج أو المُهمَل من قِبل أُسرته أو المصاب بالنوع الهيبفريني قد يكون لديه أحيانًا نوبات اندفاعية تظهر في صورة عنف أو اعتداء على الآخرين، وهي حالة غير قابلة لإيذاء نفسها على

عكس مريض الاكتئاب الذي قد يسعى للانتحار، إلا أن شريف حاول إنهاء حياته!!

(..)

تستطيع أن تضع بين الأقواس كل علامات الاستفهام التي تنزغك..

خرجت من التاكسي إلى المُستشفى مُبلبلًا كمن لم يدخّن سيجارة الصباح، طوال طريقي إلى ٨ غرب حاولت استكمال قِطع اللغز المتناثرة، أبحث عن وجه بلا مَعالم، جلست إلى مكتبي ووضعت مَلف شريف أمَامي حين تذكّرت زميل «بهمن» ذا السوالف البيضاء لمّا تحدّث عن وجود ورم في مُخ شريف يضغط على...!

أخرست صوت أفكاري وأخرجت أشعّة شريف ورفعتها إلى نور الغرفة وأنا أنبش معلوماتي المتآكلة عن شيء لن يظهر في أشعة عادية.. بؤرة؟ بؤرة صرع بلا بصمات؟

صَرع الفصّ الصّدغي!!

أحتاج مَرجِعًا، فخمس سنوات من عدم الممارسة قادرة على محو الطبّ من رأسي، خرجت من ٨ غرب ركضًا إلى المكتبة، بحثت بين الكُتب في أنواع الصَّرع حتّى عثرت على صفحة صرع الفصّ الصّدغي، بؤرة في فصّ المُخ تُشعل الجنون اشتعالًا، تعطي نفس أعراض المرض النفسي، ينفصل المريض عن الواقع

لثوانٍ وربما دقائق، يفعل فيها ما يفعله قبل أن يعود لوعيه جاهلًا تمامًا بما حدث فاقدًا للذاكرة كليًّا، الأعراض تتطابق بنسبة ٩٠٪ مع سلوك شريف، هلاوس سمعية وبصرية، نوبات عنف مع من حوله، اضطراب اللغة، كتابة بشكل قهري مكثف دون توقف.

أمل ضعيف.. لكنه مثالي..

رجعت ٨ غرب وقبل أن أجلس في غرفتي طلبت عمل رسم مخ لشريف.. في منتصف قهوتي دخل سامح وأغلق الباب.. جلس على الكرسي أمامي للحظات ثم زفر..

- أنت طالب رسم مخ لشريف؟

- آه.. شاكك في صرع؟

- مافيش نوبات!!

- «TLE»..

- صرع الفص الصدغي! بعيدة.. أنا باقول إنّه واحد بيرسم جريمة كاملة.. عامة رسم المخ هايبيّن.. عندك أكاونت على الـ«Facebook»؟

- ماليش فيه..

- يا راجِل! فيه حد ما عندوش دلوقتي!! أنت دفعة ٩٩ مش كده؟

هززت رأسي إيجابًا..

- علي شعبان كان دفعتك؟

- مش فاكر..

- علي شعبان! التخين شويّة ده أبو نمش في وشّه..

- آه.. علي.. افتكرته..

- أصله بقى عندي على الفيس بوك.. اصلَعّ وخلّف بنتين..

- سلّم لي عليه.. عقبالك..

- حاطِط صور لدفعتكم في رحلة الأقصر وأسوان.. وألاقي لك مين تخيّل؟

قرأت اكتشافه مبكرًا فاتّخذت قرارًا تاريخيًّا بحرق مراكبه قبل أن تصل شواطئ..

- شريف الكردي؟

أذهله كشفي لأوراقي..

- أنت عارفه بقى كويس!!

- كان صاحب علي شعبان.. بس ما كانش صاحبي..

- غريبة.. أنت واقف جنبه في سَبَع لقطات أكتّك أنتيم!! أنا افتكرتك صاحبه.. أصل أمانة الصحّة مشدّدة الأيام دي على موضوع المَعارف في ٨ غرب.. و...

- قلت لك ما أعرفوش.

قبل أن يُكمل سَامح ابتزازه فتح محسن الباب بغتة ينهج كمن تسلّق جبلًا..

ـ دكتور.. عندنا مشكلة في عنبر «أ».

رغم استبعادي شريف لم أفهم الهاجس الذي جعلني أقفز من فوق مكتبي، خرجنا إلى الطرقة رَكضًا حتى باب العنبر، المتهمون كانوا يلتفون حول نُقطة قُرب آخر سَرير، سَرير شريف.

دلفنا في سُرعة يتقدمنا نقيب وعَسكريان وثَلاثة مُمرِّضين أفسحوا الطريق أمامي وسامح، لمّا فرّقوا الواقفين رأيته مُلقى على الأرض، متّهم ينادونه «فوكْس»، تنتفض أطرافه وينهمر الدم من أنفه في غليان إبريق يُبقبِق، صَرخ سامح في الموجودين بشكل مسرحي ليبتعدوا قبل أن ينحني عليه يتفحّصه، ثوانٍ وأتى الممرضون بمناشف لسدّ النزيف، بحثت بعينيّ عن شريف فوجدته جالسًا على طرف سريره موليًا وجهه للنافذة في سلام!

حقنّا «فوكْس» بمضادات النزيف ونقلناه إلى غرفة جانبية حتّى توقف الفيض الأحمر بعدما ترك بقعة على الأرض ورائحة عروق احترقت من الداخل، لمّا استقرت الأمور سَحَبْت محسن في ركن لأسأله عمّا حَدث.

ـ والله يا دكتور ما شفت.. فوكْس ده أصله زي القرد ما بيقعدش.. غِبت عنّه دقيقتين لقيته مفرفر!

استعاد فوكْس وعيه ببشرة لون التراب وعينين زائغتين.. اطمأن عليه د. كيلاني بنفسه قبل أن يسأله عمّا حدث، بصوت واهن أجاب:

ـ أنا قاعد لقيت القطّة على سرير الزفت شريف..

ـ قُطة!! إيه اللي دخّل قُطة العنبر؟!

سأل د. كيلاني قبل أن يقذف المُمرِّض محسن بنظرة أردَته «مَخصومًا منه الحوافز» مقدَّمًا..

ـ من شباك الحمّام المَكسور، قُطّة غيّتها القسم بقى لها كام يوم، أهي بتسلّينا، ببسبس لها لقيت البعيد بيبحلق لي أوي أكنّه اشتراها، باقول له إيه يا عمّ وأنا هاكُلها، فِضل متنّح لي بعنيه المفنجلة دي، قمت أقلّبه، أهو بنفضفض بدل ماحنا قاعدين، باسأله الوشم اللي على إيده ده دقّه فين، فضِل متنّح، بحط إيدي على دراعه وعهد الله باشوف «الدّق» بس، قفش على إيدي وراح زاغدني في رقبتي وبعدين ما حسّتش بروحي..

تابعت رقبته وهو يتكلّم، كانت محتقنة كأن بابًا قد انغلق عليها..

ـ ورحمة أبويا ما هاسيبه..

ـ فوكْس.. لو قرّبت له هاحجزك في العزل متكتّف أنت وهو.. مفهوم.

قالها د. كيلاني بحزم ثم سَحبني وسامِح خارج الغرفة ليلكزنا بوعظ مَدرسي في المسئولية، حاول سامح دفع التهمة عن نفسه بكلمات وتفتفة وعَرَق على الجبين، واكتفيت أنا بالصمت حتّى تقيأ الرجل طاقته الإنشائية وطلب منّي تحقيقًا مع شريف حول الواقعة، عُوقِب المُمرِّضون بخَصم يَومين من الأجر لإهمالهم، وتم غلق الثغرة في شباك الحمَّام بالأسمنت، ولم يُعثَر للقطّة على أثر!

اضطررت لإبعاد شريف مؤقتًا عن العنبر، غُرفة العزل بَدت مَكانًا مناسبًا حتى لا يعتدي عليه «فوكْس» انتقامًا، غرفة ضيقة مبطّنة بالإسفنج والجلد مخصصة لحالات الهياج الشديد، لن تجد فيها شيئًا لتؤذي به نفسك إذا نويت..

جلست في غرفتي أنتظر رسم المخ، خمس وأربعون دقيقة ثم حَضَر مُمرض يَصحب شريف وتقريرًا تحت إبطه، أجلَس شريف فيما فتحت التقرير الذي نفى وجود بؤرة صَرعية لكنه أشار لزيادة عامة في نشاط المخ لا تدخل في حيز الخطر..

خرج صَرَع الفصّ الصّدغي من التصفيات! وضاقت الغرفة على شريف مترين إضافيين..

حين أنهيت قراءة التقرير ورفعت عينيّ لم أجد شريف على كرسيه، كان واقفًا ظهره للحائط تحت الشبّاك يرمقني بابتسامة أراها لأول مرّة!

ـ ما تقعد يا شريف!

لم يستجب لندائي..

ـ شريف!!

نظر لي ثواني ثم أجابني:

ـ شريف خرج.

ـ نعم!!

ـ خرج!

ـ مين اللي خرج؟

ـ شريف.

يدا شريف منبسطة بجانبه منفرجة الأصابع ووَجهه مُسترخٍ.. ظاهريًّا هو لا يَكذب.

أمر عادي.. فقط هو ينفي وجود نفسه!!

ـ أمّال أنت مين؟

ـ صديق.

ـ والصديق ده ليه اسم؟

ـ ممكن تناديني.. نائل.

ـ نائل!!

رمقني بيقين وابتسم..

ـ أوكي.. يا نائل.

شريف يدفعني دفعًا إلى حائط خرساني مليء بالمسامير.. اقتربت منه.. سبَّابته لم تكف عن الدوران كما لم يتوقف مُخّي أيضًا..

ـ أنت اللي كنت مَعانا دايمًا في الأوضة؟

هز رأسه في إيجاب ثم ابتسم وهو يسألني:

ـ لسّه بتحبها؟

ـ هي مين؟

ـ لُبنى؟

باغتني السؤال.. تَعرّقت رغم تَحكّمي وأنا أُتابع نشاط عينيه..

ـ ما أنت عارف!! لُبنى زي أختي..

ابتسم بخبث:

ـ وكنت عاوز تتجوّز أختك؟

ـ دي قصّة قديمة وانتهت..

ـ الكدب!

ـ أنا مش كدّاب..

ـ دي كدبة.. مافيش بني آدم ما بيكدبش.. وبعد مدّة حتى الحقيقة بتبقى كِدب!

بادلته الابتسام.. فأنا آخر من تقال له تلك الكلمات..

ـ ضربت فوكْس ليه؟

ـ فيه ناس بتأذي نفسها بنفسها..

قالها ومال برأسه يتأمّلني كمن يتأمّل سَمكة زينة في حوض زجاجي..

ـ كنت بتحب مراتك؟

شخص ما ثرثر عن تاريخي أمام نزيل! سأنتزِع أحشاء الواشي على انفراد حين أتأكّد من هويّته.

لم أجب.. فأردف شريف:

ـ أنا وتّرتك؟

ـ أنت اتكلّمت مع سامح؟

ـ كنت بتحبها؟

حاولت الحفاظ على هدوئي بصعوبة..

ـ أكيد.

ـ أكيد إمبارح.. جايز بكرة!!

ـ أنت اللي قتلت بسمة؟

ـ أجاوبك.. بس بقواعد اللعبة.. سؤال قصاد سؤال.

ـ ماشي.. أنت اللي قتلت بسمة؟

لوى شفتيه بابتسامة:

ـ تقدر تقتل حد بتحبّه؟!

ـ دي مش إجابة.

ـ أنت عارف الإجابة بس مش عَاوز تصدّق.. بتدوّر على مَخرج لصاحبك.

ـ لو صَاحبي قتل مِش هاتردد أكتب في تقريري إنّه كدّاب..

ـ ومِستنّي إيه ما هي باينة زي الشمس.. ولا عشان خاطر لبنى؟

ـ لُبنى مالهاش دَعوة بالموضوع..

ـ تنكر إنك ما نستهاش يوم واحد؟ تنكر إن هي اللي بوّظت لك جوازك وحياتك؟ تنكِر إنك عاوز تثبت نفسك قدّامها؟ تورّيلها إنّك أحسن واحد كنت يستحقّها؟!

ـ ليه ما تقولش أساعدها؟

ـ مساعدة! بنسبة كام؟ أرجوك ما تقولش ١٠٠٪.

- ...

- لسّة حلوة لبنى.. مش كِده؟

الإجابة لم تكن متاحة سواء بالإيجاب أم بالرفض!

- مش مُمكن تكون عينك فوّتت صدرها وهي بتقعد.. ولا فخادها وهي بتركب العربية.. ده جزء من الإعجاب بالأنثى.

قالها وهو يتابع انفعالي الذي جاهدت في كتمه..

- مش أنا.. ومش مع لبنى يا شريف.. أنا لمّا كنت عاوز أختك كنت ببص لها باحترام.

- ماحدّش بيبص لواحدة عاوزها باحترام.. لو ما كنتش جبتها من فوق لتحت ما كانتش عجبتك.. خمسين في الميّة من نيّتك لازم تعيد النظر فيهم.

- أنا عارف نَفسي كويّس.

- أنت ما تعرفش عَدد الأسنان اللي في بقّك؟

- اتنين وتلاتين.. مين اللي قتل بسمة؟

- صَاحبك.

- وشريف يعمل كده ليه؟

- ومن الحب ما قتل! قول لي.. الحادثة حصلت إزّاي؟

لم أستطع كتم انفعالي..

ـ دي حَاجة مش بتاعتك.

ـ دكتور النفس الصح ما بيتنرفزش.

لم أكن ملزمًا بالرّد لكني مُجبر على مُسايرته..

ـ اللّي حَكى لك أكيد ما فوّتش دي.

ـ التفاصيل.. أنا باعشق التفاصيل.

حاولت التوقف عن هزّة قدمي العصبية..

ـ اتقلبت بينا العربية.. أنا عشت.. وهمّا ماتوا.. قدر.

ـ قَدَر سُرعته ١٦٠.. الكحول بيعمل المعجزات.

الآن أدركت شعور آدم حين التقط ورق الجنّة ليداري عورته..

ـ يعني إيه؟

ـ ساعات الكحول بيتكفّل بحل مشاكل مالهاش حل.. ساعات الكحول بيبقى عامل زي القدر.. ما ينفعش نقول له لأ.

ـ أنت مالكش تتكلم في الموضوع ده..

ـ ما تنكرش إن فيه حاجة جوّاك ارتاحت..

ـ مين اللي اتكلم معاك؟

- واحد حبيبك..

- سامِح؟

مال برأسه وابتسم معلنًا أنه لن يفشي اسم الواشي، كِدْت أكسر طَرف ضرسي غيظًا قبل أن أسأله:

- كنت موجود يوم ما ماتت بسمة؟

- صاحبك كان معاها لآخر لحظة.. اسأله..

قالها ولانت فقرات عنقه دُفعة واحدة فسقط ذقنه على صَدره..

- شريف! شريف!!

ببطء رفع رأسه.. نظر لي بعينين زائغتين كأنه يَراني لأول مرّة..

- شريف! مين اللي دايمًا معاك؟

تبدّلت ملامحه إلى فراغ وأشاح بوجهه للحائط ثم أغمض عينيه.

- هو اللي قتل بسمة؟ سألته..

لم يجبني.. ظل شاردًا لا يسمع حتّى دخل محسن المُمرِّض..

- دكتور كيلاني عاوزك في أوضته..

تركت له شريف مرتخي الأعصاب كمنديل ورقي مُستعمل، اصطحبه لغرفة العزل التي أصررت أن يبقى فيها ليلة إضافية ثم اتّجهت لمكتب د. كيلاني.. في الطرقة المؤدية لغرفته وقبل أن أطرق الباب استفزّني سؤال شريف عن عدد أسناني الذي أعرفه، تمشّيت بلساني فوق الضروس والأسنان إحصاءً وتأكيدًا فوجدتهم واحدة وثلاثين!

نسيت ضرس عقل وئِد قبل أن يولد!

طرقت الباب على د. كيلاني ودخلت، غُرفته مُزدحمة كما تركتها من خمس سنوات، شهاداته التقديرية تملأ الحوائط ومكتبه العتيق مُكدّس بالدوسيهَات والرجل يجلس مُلقيًا بنظارته على أرنبة أنفه المدبب.

ـ تعالَ يا يحيى.. أقعد.. لسّة دكتورة صفاء قافلة معايا بتسألني عليك.. أخبار الرسالة إيه؟

ـ شغّال.

ترك ما في يده وخلع نظّارته ونظر في وجهي..

ـ أنت ما بدأتش! إيه حكايتك يا يحيى؟ أنا عارف إن موضوع الحادثة...

ـ الموضوع ده انتهى يا دكتور.. صدّقني انتهى.

ـ طب نركز عشان الحياة تمشي.. زمايلك سبقوك يا يحيى...

ـ إن شاء الله يا دكتور.

ـ بقول لك إيه.. بتفهم في الـ«ipad»؟

ـ نعم؟

ـ دكتور فوزي السيّد نازل بكرة من قطر إجازة، وقلت له عاوز «Laptop»، قال لي أجيب لك الـ«ipad» أحسن.. بعدين دورت على النت لقيت فيه كذا نوع، وفيه برضه سامسونج عاملة...

كان عليّ أن أُقاطعه..

ـ دُكتور أنا ماليش في التكنولوجيا للأسف.. أنا مش عارف إيه الـ«ipad» ده أصلًا.

ـ إزّاي يا يحيى.. ده شاشة كِده قد الكفّ وباللمس...

ـ أنا كنت عاوز آخد رأي حضرتك في حالة شريف الكردي.

ـ حقّقت معاه؟

ـ هو ضرب فوكْس فعلًا.. بس فوكْس هو اللي بدأ يضايقه.. حضرتك عارف فوكْس ده مشاغب شوية.. المهم إني وأنا باكلّمه ظهرت عليه أعراض «MPD».

صَهَل الرجل بضحكة صاخبة أتبعها بسُعال عنيف أدمع عينيه..

ـ ازدواج!!!

ـ ازدواج! إيه المشكلة!!

ـ المشكلة إن نُص اللي بييجو ٨ غرب مش حافظين غيرها من الأفلام يا يحيى.. فيها إن الأبحاث بره دلوقتي نفت ازدواج الشخصية كنوع من أنواع المرض العقلي، وبيضموها تحت أنواع الهستيريا النفسية باسم «Dissociative Identity Disorder»[1].. مرض نَفسي.. مش عقلي.. عارف ده يا دكتور ولا صدّيت من القعدة في البيت؟!

ـ عارف.. بس فيه في الكُتب حالات زي «شيرلي ميسون» و...

ـ آديك قلت في الكُتب.. كُتب من العشرينيات.. أنا ستّة وعشرين سنة في المستشفى ما شفتش حالة واحدة..

ـ يمكن دي تكون أول حالة؟

نزل الصبر من فوق أكتاف الرجل فأشعل سيجارة:

ـ أنا هامشي مَعاك واحدة واحدة.. احكي..

---

(١) اضطراب الهوية الانشقاقي..

دخل علينا الساعي بالقهوة قبل أن أبدأ، ضَخَخْت كافييني وبدأت في سَرد التفاصيل حتّى آخر دقيقة بدون ذِكر الجزء الخاص بلُبنى، استمع لي بعينين مَرخيتين مُستخفّتين وأنامله تنقر المكتب في رتابة قبل أن يزفر زهقًا:

ـ يا يحيى ما تقولش الكلام ده قدام حدّ عشان ما يضحكش عليك.. بُص.. مُود شريف بيعلا؛ بيتكلم عادي.. إنسان طبيعي.. موده بينزل بيرجع للأعراض بتاعته.. ده على فرض إنها أعراضه حقيقية أصلًا.

ـ هوّ ما كانش بيتكلم عـادي.. دي حتّى مش شخصيته الحقيقية!

ـ وأنت شفت شخصيته الحقيقية فين؟

العبث مع طبيب نفسية أشبه بالعبث مع ثعبان أناكوندا ذي رأسين وستّ أرجل.

ـ أقصد.. مش طبيعته زي ما شفته أول مرّة.. فيه تحوّل..

ـ دي حالة صايعة يا دكتور.. محتاجة وقت..

للأسف الرجل على حق، ازدواج الشخصية أصبح في مقام أنثى العنقاء، سوق رائِجة في أفلام الخيال، لكنها لا تطير في سماء الدنيا!

من فوق نظّارته رمقني:

- دكتور «جيكل» ومستر «هايد» بتاعك مَعاك، قلّبه واقراه وشيل موضوع الازدواج ده من دماغك، وهاشوفه لما أرجع من الإجازة، لسّه عندنا خمسة وأربعين يوم، مش عاوز حاجة من طنطا؟

خرجت أجرجر خلفي أفكاري المختلطة بتحليله المتماسك وتخبّطًا مفجعًا لم أعهده، شهادتي المجروحة في الصديق «السابق» تترنّح، تتهاوى، كما أن كلماته عن لبنى أثارت الاشمئزاز في نفسي، لصحّتها! لست نبيًّا رغم يقيني، فقط نسيت، وأتناسى عمدًا أنّي نسيت! لن أغافل نفسي، اشتهائي للُبنَي لم يكن أبدًا أفلاطونيًّا، فكُل تفصيلة فيها لها عندي مَرجع لم أتوقف يومًا عن مُذاكرته..

ذلك الكي الذي يشوي صدرك حين تجوع لأنثى تذوّقتها فقط ولم تلتهمها..

شاردًا سَحبتني رِجلاي لشارع «٩» بالمعادي، أمارس ضروريات الـ«Single» المُملة، قِسط فيزا متأخر، استلام مَلابس مَكوية، ووجبة سَريعة مُهدرجة الزيوت قبل أن أتّجه للبيت، استسلمت لدُش سَاخن وفتحت زجاجة «Meister» تكفي لتحليق منخفض قبل أن أرمي بنفسي على الكنبة أتأمّل بقايا كتاب «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» الذي وجدته خلف مكتبة شريف في شقّته، وثَبتُّ بين الصفحات أحاول استيعاب مَضمون الكتاب، لم يكن سوى تأريخ وتفريغ للحوادث اليومية

فترة ما قبل الحملة الفرنسية على مصر وبعدها، مرورًا بعهد مَحمد علي! قلّبت الصفحات حتّى أوقفتني صفحة مليئة بخطوط أسفل السطور، كانت تتحدث عن باب زويلة والبيوت المحيطة به!! وضعته جانبًا بعدما التقطت الرسوم الجنسية التي كانت محشورة بين صفحاته، تفسيري لرسم شريف مثل تلك الصور ووضعها خلف مكتبة حائط، يدخل في نطاق هوس جنسي يصل لحَدّ الرغبة في التّجويد، بحثًا مُضنيًا في مفاتح أنثى لم تستسلم، طرقات على باب قلعتها بطُرق سحرية تجبر الحرّاس الذين يحمونه على السقوط، أوضاع إعجازية تُحرّك شجرة بجذورها، قلّبت الصُّور حين فوجئت بصورة منها لم أكن قد لاحظت الشَّكل المَرسوم فوقها بالقلم الرصاص، شكلًا عرفته! قُمت مَصعوقًا وقَفَزت في حَوض سَمكي الجَاف أنقّب عن الرسالة، اللعنة على أحواض السمك، حين ترمي فيها شيئًا لا تريده؛ تقابله يوميًا، وحين تبحث عنه يوم تحتاجه يختبئ منك شَهرًا، أخرجت أحشاء الحوض الزُّجاجي حتّى وجدت الورقة، فتحتها ووضعتها بجانب صفحة الكتاب.. تطابق تام! صورة المُربعات التِّسعة المُحاطة بذراعَي الشخص والعينين الصغيرتين في الرأس البيضاوي!!

الرسمة التي جاءتني في رسالة تحمل اسمي وعنواني منذ أيّام!

هل أرسل شريف تلك الرسالة من سجنه؟!

علامة استفهام كبيرة انضمّت لأخواتها في جُمجُمة ضاقت بهم..

قاطعتْ أفكاري رنّة تليفون برقم لُبنى، أخفيت الأوراق بين صفحات الكتاب التاريخي كتلميذ إعدادي يُخفي مجلته الجنسية الأولى:

ـ معطّلاك؟

ـ إزّيك؟

ـ كويسة نسبيًّا من سَاعة ما قعدنا مع بعض.. إيه الأخبار؟

ـ مش عارف!

ـ قلقتني!

ـ الموضوع مُركّب شوية..

ـ أنت فين النهاردة؟

ـ نايب إداري في المستشفى..

ـ نايب؟

ـ يعني بايت نباتشية بالليل..

ـ لو جيت لك ينفع أشوف شريف؟

ـ تشوفيه لأ.. ممكن أحاول أخليكي تكلميه في التليفون..

ـ آجي لك الساعة كام؟

أعرِف..

أعرِف أن وقتًا كَافيًا قَد مَرّ لأنسى وأتناسى..

أعرِف أنّ القِصّة تآكلت كفيلم هندي رَخيص مدته أربع ساعات..

أعرِف أن أفضل علاج لقلب مُحطّم.. هو أن يتحطّم مرة أخرى..

اصمُت.. اكتب ما سأمليه عليك بلا ورقة ولا قلم:

ضَيّق الخُلُق، مُتبلِّد الإحساس جانح للوحدة، فاقد للثقة فيمن حولي، نابذ للارتباط، مَذعور من المسئولية تجاه أي شخص أو كائن «ولا استثناء للنبات»، كَسول، يائس بإيجابية، أضيق كَثيرًا بمن يُحاول قراءتي رغم ولَعي بقراءة الآخرين، إدمَاني للقمار توغّل حتّى الغُدة النخامية ولن يفيده علاج كيماوي، أقلعت عن الكحول منذ شهرين، كانت تلك أسوأ نصف ساعة في حياتي! لكني على أي حال أشرب في حالتين فقط؛ حين أكون عَطِشًا،

وحين لا أكون! فقد اتّضح أن الماء ليس جيدًا كما ظننت، ألا يُصَدِّأ المواسير! أوقفت تمارين البطن وانهار حِلمي في بناء مُربّعات العضلات التي شاهدتها في فيلم «٣٠٠ إسبارطي»، أكتفي بشفطه حين أمرّ بأنثى جميلة، كما اكتشفت مؤخرًا أنّي مُطرب سَيئ الصوت ينوح صمتًا على فراق حبيبة رحلت إلى حبيب أخلد..

ذلك أنا الآن، والسنوات العشر القادمة، إن لم أسقط في غيبوبة سُكر أو ينفجِر مُخّي من تُخمة كحول..

مُواجهة نفسي تبقيني حَيّا، مُنذ طِرت من السيارة وطار طُحالي وتضرّر بنكرياسي حزنًا وأنا أسجّل شفويًّا تقريرًا نصف سَنوي يُجسّد أحدث الصفات التي اكتسبتها، أو التصقت بي فباركتها، أو اكتشفتها فسايرتها، قبل أن أُلقي أمرها جانبًا ولا أحاول مُتابعتها، أدّخِر كراكيب حُزن ومَلل شرعي وبقايا كرامة عنيدة ترفض حقيقة أنّي حتمًا كنت صاحب دور النذل في الفيلم الذي مثلته مع شريف، لن أنسى لحظة الذروة التي شهق فيها الجمهور لما اكتشف علاقتي بأخته من وراء ظهره! قبل أن يُطلِق عليّ الرصاص من مسدس صوت ويطردني من الفيلم! وماذا أتوقع منها غير الانصياع لرأي أخيها.. وأمّها وأبيها.. وصاحبتها.. وقبيلتها التي تئويها!

سؤال:

هل تعرف ما الفرق بين حبيبة سابقة لم تظفر بها لأسباب تتعلق بسلوكك وحبيبة أصبحت زوجتك؟

الإجابة:

لا فرق.. إنه عُشب الضفّة المقابلة الذي سيبدو «دائمًا وأبدًا» أكثر اخضرارًا طالما لم تطأه قدماك..

إذا لم أستطع أن أكون قدوة حسنة.. فلأكن عفريتًا لحكايات الأطفال!

قاطعتْ تقريري الشَّخصي كشّافات سيارتها الآتية من بعيد، مُتأخّرة نِصف ساعة كعَادتها، شعرها يهفو على وجهها ليزيده إثارة، كعَادتها، سلّمت عليّ وعيناها تتأمَّلان المكان في فضول، دَعَوتها إلى دكّة تتوسَّط حديقة تحت عَمود إنارة حتى لا تلعب الخيالات بالزملاء المتحفزين، أمّا خيالاتي فسأتكفّل أنا بها..

استوت لُبنى ولفّت خُصلة خلف أذنها:

ـ لو حدّ قال لي من تلات شهور إني هاقعد السَّاعة حداشر بالليل في مُستشفى المَجانين ما كنتش هاصَدّقه.

ـ إيش عرفك إن هُمّا اللي مجانين؟ ما يمكن إحنا ومش دريانين.

ابتسمت ونظرت في عينيّ لثوانٍ ثم ابتسمت..

ـ ما اتغيّرتش يا يحيى!

- بيتهيأ لِك.. اتغيّرت كتير.. للأسوأ.

- تجربة زي اللي مرّت بيك أكيد لازم تهزّك.

- تشربي قهوة؟

نظرَت للفراغ من حولها:

- هو فيه حدّ صاحي في المُستشفى؟

- عندي سخّان وحاجة ساقعة في التلاجة.. فيه كمان عصير بتاع العيانين.

- أنا كِده كِده مش قادرة.. فتحت تليفون شريف؟

حكيت لها ما رأيت في التليفون ثم مهّدت لها الصدمة قبل أن يتورّد وجهها وهي تتأمّل الصور بحَرَج أسعر خدّيها احمرارًا..

- أنا مش فاهمة! الصور دي تعتبر دليل براءة.. ولا إدانة؟

- الاحتمالات فوق ما تتخيلي.

- لو قلنا إننا بنواجه شخصيتين.. ممكن تكون شخصية بتحب بَسمة والشَّخصية التانية بتكرهها..

- حتّى لو افترضنا إن فيه «Multiple Personality» وده احتمال مالوش أي وزن في تقييم اللجنة بالمناسبة لأنها مش معترفة بيه، لازم يكون فيه سبب للكُره اللي يوصّله يقتل.

- أنت شايف إيه؟

سؤالها كان أصعب من مُعادلة خوارزمية..

أخذت نفسًا من السيجارة استنزافًا لدقيقة أستجمِع فيها نفسي ثم سلّكت حلقًا حُشرت فيه الكلمات:

ـ خلّينا منطقيين، بوعي أو بغير وعي مش هنقدر نهرب من إن شريف قتل، ده بعد ما اعتدى عليها زي ما حكيتي لي وزيّ ما قال تقرير الطب الشرعي، حتّى لو عنده فصام اللجنة مش هتنفي المسئولية عنّه وقت الجريمة، خلينا نتفق على ده، مَريض الفصام بيبقى واعي يا لُبنى، كمان الصور وتعبيره فيها بتأكِّد إنه شخصية وراها كتير، شريف بيستعرض، بيسجِّل لحظة انتصار، بسمة يا غلطت فيه، يا مع غيره، مافيش احتمال تالت.

هل تعرف الجزّار الذي غرز سكينه «غير المسنون» في رقبة ذبيحته وأكمل كلامه؟

ـ اللي زوّد الطين بلّة موضوع الشخصيتين.. ده هيجرجرنا ببساطة لأعراض أفلام سينما.

ـ اللجنة شاكّة في شريف!

ـ اللجنة مهمتها تشك في شريف.. وتحلل.. بس كده كده تقريرها استشاري مش مُلزِم للقاضي.. أنتو المحامي اللي معاكو كويس؟

هل تعرف الجزّار الذي ذبح ثم مَسح العرق من على جبين ذبيحته بمنديل ورقي؟

رمقتني بيأس رقرق حدقتيها عتابًا على صراحتي الصادمة..

ـ المحامي كويس.. إيه أجمل نهاية ممكن تحصل؟ سألتني:

ـ نلاقي إثبات على مرض عقلي مش نَفسي ينفي مسئوليته.

ـ يطلع عيان أحسن ما يتعِدِم.

ـ هيتحط في «الخانكة» لغاية ما يخِف.. وممكن يُخرج.

ـ وأسوأ حاجة؟

ـ إن أخوكي يكون عنده سِر مش ناوي يقوله.. رسوماته اللي لقيتها ورا الدولاب خلتني أفكر.. شريف ناقصه حاجة.. يمكن موضوع الخِلفة.. يمكن أداؤه الجنسي ما كانش على المستوى! ودي مشكلة الكل بيخاف يتكلم فيها! ووارد تكون بسمة قالت كلام مش المفروض تقوله لمّا اتأخر الحمل.. الموضوع ده يِجرح أي راجل.. حتى لو بالنظرة.. خصوصًا لو عنده عقدة معينة في الطفولة ما كانتش ظاهرة.. وده خلاه يعمل اللي عمله في الصور ويسجِّله.. تعويض نفسي يساعده على الاتّزان.. كل واحد فينا بيدوّر على نوع من أنواع الاتّزان.

ـ مش متخيّلة إن اللي بنتكلّم عنّه ده شريف! شريف أكتر واحد بيحب الناس ومش منطوي و...

ـ أنا عارف.. عارف.. بس كل حاجة واردة.. فيه حاجة كمان.. هو شريف كان يعرف مكاني قبل ما تحصل الحادثة؟

ـ شريف ما عرفش حاجة عنّك من ساعة ما... آخر مرّة يعني كنا مع بعض..

ـ الجواب اللي جالي قبل ما أرجع المستشفى فيه نفس الرسم اللي رسمه شريف ولقيناه ورا المكتبة.. والمتحف الإسلامي؟ القميص اللي لابسه في الصورة! شريف كان غاوي أنتيكات؟ بيشتري؟ كل دي أسئلة ظهرت فجأة.

ـ مش عارفة.. ومش فاكرة إنه عمره اهتم بالأنتيكات أصلًا!!

سكتت لمّا التقطت أفكاري وخمّنت أين تتجه بي..

ـ وأكيد مش هيكون سرقه؟

ـ أنا ما قلتش ده.. بس دي قصّة تانية مش قادر أفهمها.. صور المتحف! هو في إيه ولا في إيه! وصوره مع بسمة في نفس الوقت تقريبًا.. وصورته في المرايا من معلومات الصورة ساعة الحادثة بالظبط.. شريف كان موجود يا لُبنى.. ووسط اللي هو فيه ده بيتغزّل في مراته وبيصوّر متحف ومصوّر نفسه في الحمام بقميص أثري.. فسّري لي أي حاجة لو تقدري!

أغمضتْ عينيها حزنًا ثم أردفت:

ـ هتودّي الصور دي للمباحث؟

سؤالها عن عدد شعر رأسي كان ليبدو أوقع.. طلّت منها نَظرة شكّ قرأتها إجباريًّا..

ـ أنا مش بانتقم من أخوكي عشان موقف مات وانتهى.

ـ أنا ما قلتش كده.

ـ قلتيه بعينيكي.

ـ أنت ما تعرفش حاجة عنّي.

ـ لسّه أعرف أقرا عينيكي.

ـ عينيا اتغيّرت يا يحيى.

ـ هافضل أعرفك أكتر ما أي حد تاني يعرفك يا لُبنى.. غصبٍ عني وعنِّك.. أنت نسيتي إحنا كُنا إزّاي؟! نسيتي يا لبنى؟

صَمت الشجر بعدما سعلت الرياح واحتضر القمر، أشاحت بوجهها بعيدًا وارتعشت أناملها، سَحَبت دَمعة من أطراف رموشها دفنتها في راحتها ثم رفعت رأسها للسماء وأغمضت عينيها، كان عليّ أن أفعل شيئًا حيال الخنجر الذي غَرَزته في كبدها..

ـ الصُّور هتفضل معايا.. لغاية ما نشوف هاعمل إيه.. لسّة قدّامنا خمسة وأربعين يوم.. تعالي معايا.

تَحرّكنا تحت الأشجار في سيارتها حتّى اقتربنا من ٨ غرب،

المَبنى ساكن والحرس يتعبدون في خشوع أمام تلفزيون يعرض فيلمًا قديمًا ومروحة تنثُر النسمات، طَلَبت منها الانتظار وترجّلت حتّى عبرت البوّابة المُسلسَلة، عَثرت على مُمرّض هائم على وجهه ناعس فطلبت منه استدعاء شريف، لمّا دَلف الأخير إلى غُرفتي أغلقت الباب، جلس فأخرجت تليفونه من جيبي، رمقه بين أصابعي بتوتّر هرش من أجله رقبته حتى كاد يُدميها، فتحت صورته ووضعت الشاشة المشروخة أمام عَينيه..

ـ عندي كلام كتير يا شريف عن الصورة دي.. بس بعدين.

طلبت رقم لبنى وانتظرت حتى أتاني صوتها ثم ناولته التليفون، نظر لي في صمت ولم تمتد يده، صوتها من السمّاعة ينادي اسمه متلهفًا..

ـ أختك واقفة برّه رُدّ عليها!!

نقل بصره بين المحمول وعينيّ قبل أن يمدّ يَده إلى التليفون، ببطء وضعه على أذنه، لم أسمع ما قالته لكن مَلامحه ظلّت جامدة لا توحي بشيء، دقيقة وبدأ يجزّ أسنانه في عصبية، ما تبثّه أخته له فعل نقاط مياه رتيبة تشرخ صخرة، شفتاه ارتعشتا بابتسامة راحة، في تلك اللحظة وكعادته وبدون أن يقرع الباب دخل خيرة أطباء النفس في العالم..

سامح زيدان!!

لم تكن نوبته ولا ميعاد عودته ولا كافيتريته المفضلّة ولا ملتقى أصدقائه، فقط أتى في الوقت المناسب..

رَمَق التليفون في يد شريف قبل أن يُغلق الباب على ثلاثتنا ويَسحَب كُرسيًّا أصدَر صَريرًا متعمّدًا على الأرضية وهو يجذبه ثم جلس ليتابع المشهد بتشفٍّ مغموس في ابتزاز، شريف يستمع لكلمات أخته وعيناه لم تعُدا تفارقان سامِح، يرمقه بابتسامة تتسِع وبريق في عينيه يزداد تألقًا، ثوانٍ وأنزل التليفون من فوق أذنه وصوت لُبنى ما زال يتحدّث، كان عليّ إرجاع شريف لغرفته تقليلًا للخسائر قبل أن يفرش سامِح ملاءته اللّف، دَسَست التليفون في جيبي ثم فتحت الباب وخرجت أنادي مُمرضًا ليصحب شريف حتى غرفة العزل، أين ذهب اللعين؟

- أنت يا متخلّف إيه اللي بتعمله ده؟

ذلك لم يكن أنا، صوت سامح صدح في الغرفة بالشتيمة، رجعت وكان ذلك ما رأيت، سامح واقف وظهره للحائط في مواجهة شريف الذي فتح زر بنطلونه وسقى باستمتاع قدمي سامح بولًا ساخنًا، جَذبت شريف مُحاولًا تجنب نافورته، مُستمتعًا بمظهر سامح وهو يقفز متجنبًا الفيض الأصفر حين دخل المُمرِّض وجذب شريف، خرج معه ورمى سامح بابتسامة، لطالما كان شريف مبتكِرًا! سَكَب سامح على قدميه زجاجة مياه وهو يبعثر الوعيد والسباب بصوت عالٍ ليستفزني قبل أن أجلس في مواجهته ورائحة البول تفوح منه..

سامح في المُعجم:

شوربة الخضار المضروبة في الخلاط.. بلا ملح..

ـ «Fake».. باين أوي إنه «Fake».. بس مش هيشتغلني.. يشتغل أي حد إلا سامح زيدان.. جالي زيّه هّنا ميت واحد سابكينها أحسن منّه.. ومن أوّل قعدة بيتِفِقسوا.. ولا مرّة خَيِّبت مَعَايا.. ولا مَرّة.. من بُكرة هاقدّم تقرير أستلم فيه حالته.. يا أنا يا هوّ.. أنا...

ـ قصّر يا سامح.

ـ أنت طبعًا رجعت المستشفى علشانه؟

ـ ما تلخبطش في الكلام.. دكتورة صفاء نزّلتني ٨ غرب صُدفة.. أنا ما كنتش جاي غير لما الشئون القانونية بعتت.

ـ كان فيه مكان في قسم «سابع حريم» ورفضته.. صُدفة! وزميلك في الدفعة اللي مش صاحبك وتستلم حالته.. صدفة.. والعربية اللي واقفة برة ٨ غرب فيها وزّة بتكلّم البيه في التليفون.. صدفة برضه؟

أعطيته صمتي ليفرغ ما في جوفه ويستمتع بوضعي تحت ضرسه..

مقطع من كتاب «لذّة الفيل في استنزاف الزميل الفصيل»..

تعريف «استنزاف الزميل الفصيل»: هي اللحظة التي تترك

فيها خصمك ليطلق هرمون ذكورته في عروقه لينتشي كطاووس في مَوسم التزاوج..

وتتميّز تلك اللحظة بأربعة أعراض:

اتساع بؤبؤ العين..

تطاير اللُّعاب من الفَم..

شماتة مُفرطة تُطل من العينين..

وضع الجلوس يتّخذ شكلًا هُجوميًّا متحفّزًا «يداه على فخذيه الملتصقتين»..

بحماس أخذ سامح يلوك العظمة التي انتزعها من ضلعي بعد عَناء، ورقم لُبنى أثناء هرائه يُضيء شاشتي فأغلق الخط في وجهها انتظارًا للسمج الهلامي علّه ينهي ابتزازه بلا مقدمات مملّة، إيقاعه مترهل ككرشه حتّى حين ينفعل! أنظر إليه وكلماته تخفت في أذنيّ مقارنة بصوت أفكاري الذي يدوي لإيجاد حل معه، كان ذلك حين طرح السؤال نفسه: «كيف وصلنا لتلك النقطة؟».

الإجابة: الفتاة التي ظنّ يَومًا أنها تنظر له ولم تكُن..

نرمين؛ زميلتنا في المستشفى، وزوجتي الراحلة، الفتاة التي خطب ودّها من قبلي ولم ترضَ به لأنني كنت أجول في قلبها وكان هو جوال بطاطا، تلك الشفافة الرقيقة التي تُزاملك في العمل فتحصل على نصيب الأسد من نظراتك طوال النهار

حتّى تُصبح «عنوة» فتاة أحلامك، ذلك الضغط الذي يحوّلها إلى أجمل كائن على وجه الأرض بعد أن يُخفي بـ«التشبّع والتعوّد» كل اختلاف بينكما، أنت لن تقاوم جمالها المتنامي يومًا بعد يوم، لن تقاوم اختلاسك النظرات لكل تفصيلة فيها خاصة مَلمس يدها في السلام الصباحي، كما لن تقاوم المثالية في الارتباط بها، كل ذلك يبدو منطقيًّا حتّى تبدأ الحياة الحقيقية..

هنا تتّسِع حدقة عينيك بغتة!

من هذه «السيدة» التي تُجاورني على الوسَادة؟

أنت لن تعرف كيف تزوّجتها، كيف حَملت في طفلك، كما لن تعرف كيف تحوّلت تدريجيًّا إلى جُزء «متميّز» من أثاث البيت؛ بيتنا الذي لم يكن في حاجة لزلزال بذلك الحجم لتسقط حوائطه الهشّة، فمنذ سَنتنا الأولى أدركت نرمين أن قَلبي يحمل نكهة أنثى أخرى، بُقعة لم يصلح معها مسحوق ولا جاز أو حتّى تِنر ليزيلها، كما أن ماسورة الكحول التي كُنت قد أغلقتها من أجلها ما لبثت أن ضعفت قبل أن تنكسر «عمدًا» بسبب بُعد عالمينا! كان ذلك بعد فوات الأوان، فابنتنا نور كانت في شهرها الثالث! سرنا بقوة الدفع ننزف الحياة تحت أرجلنا، ندهسها ولا نترك فيها علامات، ازدادت المسافات بُعدًا واتساعًا حتى بتّ أحتاج نظارة مُقرِّبة لأراها، أطول مُحادثة بيننا لم تتعد ثلاث جُمل قبل أن تتحول لتراشق بالنظرات يَليه إظلام مسرحي تدريجي، لم أكرهها يومًا، هي فقط.. أصبحت...!! أصبحت درس حساب

المثلثات اليومي من مُدرّس أكرهه، مُدرّس مُمل فاقد للإيقاع، صوته مزعج وواجباته ثقيلة، سنتان من الرّتابة والتّناحر والنفور حتّى جاء يوم وسافرنا، علّ هواء البَحر يتكفّل بتبريد الاحتكاك قليلًا، يومها تعاركنا، وما الجديد! فالزواج نصف الكفر! آخر ما أذكره كان رائحة كُحول في فمي وعداد سرعة يشير إلى ١٦٠ كم/ س على طريق وادي النطرون ثم إطار سيارة ينفجر، لا أذكر أنّي اتّخذت ردّة فعل، لا أذكر حتّى مُحاولتي السيطرة على المقود، فقط طرنا إلى السماء جميعًا نتلوى كراقصة باليه تستعرض، لأنزل بعد ذلك.. وحدي..

لم أفهم!! وربما لم أرد أن أفهم وقتها، فقط المشهد لا يُمحى من رأسي، أراه الآن كأنه يحدُث، مشهد بلا مُوسيقى، فقط صوت طنين نحل رَتيب يُدغدغ أُذنيّ! صحوت في عرض الطريق غير المأهول، كان الوقت غروبًا والريح ساخنة تنفُخ الرِّمال في وجهي، تأمّلت عَظمة كاحِلي التي خرجت عن مَسارها بلا ألم، ستطقطق بعد تلك اللحظة إلى الأبد، أنظر للَحْمي الأبيض كلحوم الطير هاربة منه الدماء، مَخضوض، وشريحة زجاج تخترق أسفل رئتي اليسرى عرفت بعد ذلك أنها لم تكن تقصدني، ظلمتها، كانت في الأصل تستهدف طُحالًا. على بُعد أمتار كانت ابنتي على الأسفلت نائمة في هدوء، تغطّ في ملكوت أعلى، حِذاؤها الأيسر مفقود ورأسها يستند على بركة دماء لا تتوقف عن الاتساع رغم زرقة الموت التي علت شفتيها، فقدت الإحساس بآلامي دفعة

واحدة، سليم مُعافى هرعت إليها زحفًا، لامست أنفها وشفتيها، لا شيء! وضعت يدي على قلبها، لم يكن هناك أحد، داعبت ضلوعها لتضحك، هززتها كأنها ستستجيب لإلحاحي قبل أن يدهمني بكاء لم يدهمني من قبل، سَالت دموعي واختلطت بمُخاطي ودمائي، سجدت بجبهتي على الأسفلت أبتهل، أناديه وأعرف أني لم أصالحه يومًا، أتأمّلها ولا أكاد أتصوّر أنّها رحلت بتلك البساطة، بدون أن تقبّل خدّي كما كانت تفعل، بدون أن تختبئ منّي خلف حوض السمك! لم ينتزعني منها سوى صوت نرمين تئِن، راقدة في السيارة المعجونة على جانب الطريق، لما اقتربت كانت الروح تنسلّ من بين شفتيها دخانًا، أكاد أراها، تَغيب، تَتَلاشى، تابعت عينيها تَنقلب وسبابتها ترتعش: ما تسيبينيش! خرجتْ يومها من قلبي، فقط تلك المرّة كنت أعنيها بحقّ، أمسكت يدها للحظات حتّى توقّفت الرعشة..

تلك كانت أوّل مرّة أموت..

ألقيت ظهري على الرمال ورمقت الشَّفَق يَنحَسر.. حلّ السلام.. لا كُره.. لا حُب.. لا شيء.. فقط الخواء والفناء والعدم.. ثم سقط الليل فوقي في لحظة..

من يومها تركت الدنيا كما تركتها ابنتي، وزوجتي التي كان سامح دائمًا وأبدًا من مُريديها، ومُسبّحي الأرض تحت قدميها، وكبير «مُستَخْسريها» في شخصي، بعدما طلب ودّها قبلي مرتين ورفضت لمنطقية رفض مثل ذلك الكيان السمج..

سطران آخران وسأبدأ في التعاطف معه..

لمّا خرجت عن شرودي كان قد تقيأ كثيرًا من كلامه، أفقت في جُملة:

ـ وأمانة الصحّة لو عرفت إن فيه علاقة بين المتّهم والدكتور...

قاطعته:

ـ أنت ليه بتتكلّم أكني اللي باحدد إذا كان بريء ولا لأ! الرأي رأي اللجنة.

ـ الكلام ده تقوله لدكتورة صفاء.. أنا الوحيد اللي عارف أنت هنا ليه.

ـ إيه شغل ابتدائي اللي أنت بتعمله ده!

ـ ابتدائي!! أنت لسه ما شفتش شغل ابتدائي.

ـ مش ناوي تبَطّل غِل.

ارتفعت نبرة صوته رغبة في إيقاظ شهود..

ـ غِل؟! أنت مدخّل تليفون لمتّهم يا دكتور في ٨ غرب وبتقول لي غِل!! إيه يا دكتوووور ما تفوق.

قررت قلب المنضدة في وجهه اختصارًا لعجين الفلاحة الذي لا يجيد خبزه، اقتربت منه وهمست:

ـ مش ناوي تنسى في يوم أنها كانت مراتي هه؟ مش قادر تتخيل أنها حبتني أنا؟ ومش قادر تتخيل إنّك اترفضت؟

ـ أنا مش فاهم حبّتك على إيه؟

ـ أنا اللي مش فاهم كنت عاوزها تحبّك أنت على إيه!!

ـ العيب مش عليك.. العيب عليها.. مش فاهم إزّاي مشيت ورا واحد زيّك!!

ـ اسألها؟

ـ لأ.. أنا هاسأل بنتك.

مَقطع آخر من كتاب «لذّة الفيل في استنزاف الزميل الفصيل»..

«.. هُناك شخص تَعي تمامًا أنه ـ بلا جدال ـ سيمزّقك غلًّا بعد طعنك، ثم يضع في زهو بصمات كفّه ملطّخة بدمائك على حائط بطولاته، ولن يكتفي حتّى يسلخك حَيًّا بسكين خشبي قبل أن يفرش جلدك على الأرض سجّادة لضيوفه، سَيضع نابك فخرًا في سلسلة على صدره ويصنع من جمجمتك منفضة لسجائره..».

لِمَ تعطيه فرصة الاستمتاع بكل تلك الـ«Options» مجانًا؟

لم لا تغلق عينيه ببصقتك أو تحشر في حلقه نعل حذائك؟

مع حرف الكاف في آخر كلمة «بنتك» عانقتْ قبضتي أنف

سَامِح بزاوية صاعدة، زلزلت اتزانه، أصدر نعرة عظيمة قبل أن يُلقى أرضًا بمائة وخمسة عشر كيلوجرامًا نصفهم دهون، استقر بين قدميّ وقد تَبعثر شَعره ونسي اسمه لثوانٍ كانت كافية كي أعبر فَوقه..

هل تعرف الجزّار الذي ترك السكّين في رقبة ضحيّته وهي ترفس الهواء ورحل؟

خرجت للراقدة في سيارتها أدلّك عِظام قبضتي من أنف سامح الذي لكمها..

ـ وشّك بيقول إني عملت مشكلة!

ـ اطلعي.. نتكلّم بعيد عن هنا.

انزلقت في الكرسي بجانب لُبنى وابتعدنا عن المستشفى، أوقفتها قُرب «درينكيز» فرع هليوبوليس ودخلت أستجدي علبة بيرة أستبدل بها دَمي الذي غَلى وتَبخّر، تجرّعتها في المحل في رفعة واحدة وسط دهشة الباعة والزبائن قبل أن أعود إليها، جلست وأشعلت سيجارة هي الأمتع منذ الصباح، قبل نِصفها قاطعت صمتي بفضول الأنثى لتسأل عمّا حدث، حكيت لها ما تقيأه سامح قبل أن يلكم قبضتي، وجمت وعلامات تعجّب كبيرة تزحم المسافة بيننا، وجهها الجائع لاستكمال الصورة اضطرّني للرجوع بذاكرتي خمس سنوات لأحكي قصّتي واستمعت هي بإنصات..

ـ أنت فعلًا كنت...؟

ـ كنت شارب «Jack» زفت «Daniel's» وسايق على ١٦٠.. وباتخانق معاها.

الدّهشة والاستنكار تقابلا في وجهها.. ولا أعرف لِم أصررت على إكمال ما بدأت!

ـ كنت ناوي أقضّي عُمري كُلّه معاها عشان خاطر نور رغم إن ما كانش فيه أي أرض نتكلم عليها.. غلطة.. والمفروض أعيش وأواجه إني كنت السبب في موتها.. وموت بنتي.

ـ ليه؟ ليه وصلتوا لكده؟

ـ ليه؟ سؤال صعب ليه ده!

حاولت التزام الصَّمت الذي أجيده، بيتي القديم الذي جاهدت منذ سنين في ترميم أحجاره كي لا ينهار، حتّى إنني نكّسته ودسست بين ضلوعه القوائم الخشبية وطردت سكانه، ما عدا أنا، وها أنا أسمع صوت الطقطقات، وأرى التراب يتسرب من السقف فوق رأسي، ثم حدث الانفجار..

ـ ليه ضعتي من إيدي قبل كِده؟ ليه شريف رفضني لمّا اتقدّمت لك؟ فاكرة ليه؟ عشان صِعْت أنا وهو مع بعض.. شربنا وحشّشنا وعاكسنا مع بعض.. عشان حبيتك من وراه؛ مشيت معاكي زي ما قال.. فاكرة عمل إيه لمّا عِرِف؟ قطع عني المية والنور..

بصراحة هو عنده حق.. الصحوبية حاجة والنَّسب حاجة تانية.. أنا لو شريف ما كنتش جوّزتني أختي.

سكتت وتركت صمتها يتكلّم بعدما ألقيت ما في عقلي بلا إنذار، كلامي يومها كان أشبه بالصفة الأساسية في التبوّل اللاإرادي..

لا إرادي!!

ظللنا على تلك الحالة دقائق حتّى رميت حَجرًا في الماء الراكِد ليخرج التمساح ويأكلني:

ـ أنا آسف.. مش عارف إيه اللي خلّاني...

قاطعتني:

ـ ما حبّتهاش؟

ـ حبّتها.. زي مراتي.

ـ ما فكّرتش ترتبط تاني؟

ـ أنا معاها ما قدرتش أنساكي يوم.. مش هاكرر غلطتي تاني.

حان وقت التورّد واضطراب الملامح، كلماتي جعلتها تسحب سيجارة من علبتها، مرّت دقيقة لعنت فيها نفسي عشر مرّات وركلت حجرًا في روحي لتتورّم..

حصيلة يومين فقط بالمستشفى:

حقّقت مع صديق عُمْر أصبح متهمًا، طاردني كلب أسود في أحلامي وخارجها، لكمت زميلًا سَمِجًا كان يستحِق اللكم على أي حال، وفتحت تابوتًا ترقد فيه قصّة حُبّ ماتت من عشر سنين..

ـ ولا أنا نسيتك!

استدركتني في اللحظة التي أوشكت فيها على ركل خُصيتيّ إنهاءً لمستقبلي..

ـ أنا عِشت فترة زي الزفت على ما قدرت أصدّق إنك اختفيت من حياتي، انتَحرت مرّة ولحقوني بالعافية، وما سامحتش شريف ولا ماما على اللي حصل لغاية النهاردة، ولا سامحتك، فيه لحظات كنت حاسة إني لو شفتك كنت هاضربك بالقلم.. أنا.. أنا..

اختنق صوتها قبل أن تتمالك نفسها.

ـ إوعى تفتكر إنّك لوحدك اللي تألمت.. بس أنت مش عارف يعني إيه بنت يبقى عندها تسعة وعشرين سنة في البلد دي.. لمّا كل اللي حواليك فجأة يبصوا لك أكنّك عار ولازم يدّفن.. جحيم.

ـ تخيّلي .... أنا لسّه باحبّك..

ابتلعت ريقها واختلجت عيناها فأدركت مَدى سخافتي.. أنا المحامي الذي ما زال يترافع في قضية تلقّى موكّله فيها الإعدام ونُفّذ الحُكم فيه منذ أعوام.. انتابتني رغبة عارمة في الحصول على كأس شيفاز!

وجهها وكلمة «أنثى متزوجة» على ظَهر بطاقتها الشَّخصية لن يتحمّلا ما وسوَست به نفسي تجاهها، قاومت رغبة عارمة في لمس يدها، أغمضت عينيّ وعددت من عشرة إلى واحد بالمقلوب.. ولم أصل للواحد..

ـ أنا لازم أرجع المستشفى عشان أشوف المصيبة اللي هناك.

ـ ورّطتك؟

ـ كده كده كنت هاضرب سامح في يوم من الأيام.. أشوفك على خير.

تركتها وابتعدت مُحاولًا تناسي ما قلت.. «أنا لسّه باحبّك».. يالسخافة المراهقين ذوي حبّ الشباب والشنب الخفيف.. وللعجب فلست رومانسيًّا.. هكذا قالت مايا ومن قبلها زوجتي.. لكن إذا كانت في روحي فَجوة بحجم نيزك عملاق..

فاسمها لُبنى..

حين وصلت «٨ غرب» علمت أن سامِح قد غادر وأنفه تنزِف بدون أن يلفظ كلمة، ألقيت نظرة على شريف الراقد على جنبه نائِمًا في آخر العنبر، لا أعرف إن كنت سأظل عونًا له أم سأُجبر على تركه يواجه مصيره بعدما فلتت أعصابي، أعرف نفسي، أو هكذا أظن! لن أتحمّل سخافات سامح ثانية، سأقدّم استقالتي قبل أن تتفوّه صفاء بكلمة عن وجهه الذي لَكَم يدي..

مَررت على «اللورد» قبل البيت؛ مَحَل خمور صغير يملك صاحبه مُعجزات من الحياة في ثلاجته، التقطت منه زجاجة «Jack Daniel's» ستحتسيني للنصف قبل أن أشعر بالارتفاع، تحليق قريب من الأرض لن يلتقطه رادار..

حين وصلت البيت غسلت كوبًا زجاجيًّا طويلًا واستخرجت مكعبات ثلج حتّى امتلأ حوض الاستحمام، استلقيت في المياه وعلى يميني تبغي، كحولي، تليفوني، ومشغِّل أسطوانات عتيق يحتضن كل أغنيات فريق «Doors»، يَقتلني «جيم موريسون» في

رائعته «Break on through to the other side»، ضغطت زر التشغيل وأغمضت عينيّ واسترخيت..

You know the day destroys the night

Night divides the day

Tried to run

Tried to hide

Break on through to the other side

لا أعرف كم سَاعة مرّت..

ضوء الشمس كان يتخلّل زُجاج الحمّام حين سمعت نغمة التليفون المَكتومة، جلست نصف جلسة مُحاولًا تحديد اتجاه الصوت إن كان داخل شقّتي أم من الشارع، قُمت ولم أجد منشفة فسقيت الأرض بمائي حتّى الصالة، الانبعاث كان من الكنبة المُلقى عليها بنطلوني، تذكّرت تليفون شريف، مَسحت يَدي المَبلولة والتقطته من الجيب، الرقم على الشاشة المَشروخة لم يظهر، تردّدت لثوانٍ كانت كافية ليغلق المتّصِل الخط مللًا، تنهّدت ووضعت التليفون على المنضدة، ما إن استدرت حتّى رن الجرس ثانية! حسمت أمري وضغطت زِر الرد..

ـ ألو.. ألو!

لم أتلق إجابة.. فقط صوت أشبه بدوران ريح في إناء أجوف،

أغلقت الخط واتّجهت للغرفة أبحث عن فوطة، فتحت الدولاب أستجدي واحدة حين رنّ الجرس ثالثة، أين الفوطة اللعينة؟! ارتديت «بوكسر» على بللي ثم التقطت التليفون:

- ألو!

- ألـ.. و... شر... يـ...

الصوت مَعدني مُتقطِّع صَادر من منطقة تغطيتها ضعيفة، أو أن العيب في تليفون شريف المتهالك، اقتربت من النافذة ليتماسك الإرسال:

- مين معايا؟

- نسيت صوتي!

- أنا مش شريف.. ده تليفونه.. أنا...

- أنا عارف إنّك مش شريف.

- مين اللي بيتكلّم؟

- شفت بسمة كانت جميلة إزّاي في الصور مع صاحبك؟

لا يعرف بأمر تلك الصور غير لبنى! أو ربّما زوجها الآن بخاصية الانتقال الحراري.

- مين معايا؟!

- مش ممكن تكون نسيت صورها.. ما تتنسيش.. «Goddess» زي أفروديت.. ما اتعملتش قبل كده.

ـ أنا مش عارف أنت بتتكلّم عن إيه؟

ـ دي كدبة!

ـ أنا ما باكدبش..

ـ قلت لك.. مافيش بني آدم ما بيكدبش!

الإجابة جعلتني أنتفض.. من أين حصل على تليفون؟

ـ شريف!! أنت بتتكلّم منين؟

ـ برضه شريف! أنت ليه مش قادر تفهم؟!

ـ أفهم إيه؟ إنّك عاوز تنتحر، نفسك على إيدي!!

ـ أنت مش عاوز تريّحه؟

ـ ده إحساس بالذنب؟

ـ من قتل يُقتل.

ـ وما فكّرتش تقتله أنت ليه؟

ـ أقنعته مرّة في الحمّام.. واتلحق.. بس فين المتعة في ده! أنا عاوزه يعملها بإيده.

ـ بسمة عملت إيه عشان تموت؟

ـ حبّتني.. خدها منّي...

ـ شريف...

صَرَخ فيَّ بصوت خرق طبلة أذني..

ـ أنا مش شريـــــــــــف..

صفعة من الصمت لطمتني قبل أن يردف بهدوء:

ـ ومش صعب أقنعك.

انغلق الخطّ!! قفزت في ملابسي ثم في تاكسي لفظني أمام المستشفى، رَكضت حتى ابتلعت لساني، حين وصلت ٨ غرب كان الهدوء مُسيطرًا، ضابطا الشرطة على مكتبيهما يجترّان مللًا، الممرِّضون يتجولون في رتابة نحلات شغّالة، والأطباء يسكنون حجراتهم في خشوع الرهبان، أسرعت الخُطا إلى العنبر حتّى حصلت على زاوية تكشف النُّزلاء، جُلت بنظري وسطهم أبحث، شريف غير موجود! سألت مُمرّضًا عنه فأخبرني أنه لا بد في الحمّام، طلبت منه فتح العنبر ومصاحبتي مع عسكريٍ إلى الداخل، اصطكّت مفاتيحه وأسناني قبل أن نخوض وسط النُّزلاء لنصل الحمّام، حَار رَطب رَائحته نَفحة من الجَحيم، كلّ الستائر الزرقاء مكشوفة عدا واحدة، اقتربت منها وناديت شريف فلم يجب، ناديت مرة أخرى ولم يجب فتوتّر العسكري وهمَّ بكشف الستارة ففرملته بيدي حين سمعت سعال شريف..

ـ شريف.. أنت كويس؟

تركني ثواني قبل أن يُجيب:

ـ كويس.

- الحمد لله.

صَرفت المُمرِّض والعسكري بهزّة رأس مطمئنة واقتربت من الستارة:

- خلّص عشان عاوزك.

- قابلت لبنى؟

- ومش هتتخيّل حالتها النفسية عاملة إزّاي.

- جوز لبنى أكبر منها باتناشر سنة.

- ...!

- عضمة كبيرة.. أفكار مختلفة.. وضعيف.. مش قد الموتور اللي تحت إيده.

ذلك لم يكن شريف..

حاولت العثور على ردّ لكني فشلت حين أردف:

- تفتكر لو مات لبنى هتعيش إزّاي؟ ما تخيّلتش؟

- ما تخيّلتش.. وما أتمنالهاش ده!

- التفاحة المُستعملة ريحتها مُختلفة.. زي ريحة النبيت المعتّق.. فيها لَسعة كِده.. وصِحِّي النبيت.. بيقولوا كاس في الشهر يغني عن المرض.. بيطهّر الكبد.

- كفاية يا شريف.

ـ الخيال مش عيب يا دكتور.. العيب إنّك تخبّيه.. وتطلّعه لمّا تشرب بس.. مِش جراءة دي! عارف.. لو رجع الزمن برضه ما أجوّزكش منها.

ـ ليه؟

ـ ما كنتش هتشتاقلها زي دلوقتي.. كان زمانها بقت زي مراتك.. مُملّة وسخيفة..

ـ لُبنى طلعت من دماغي يا شريف.

ـ أراهِن إنّك في وقت فراغك بتتخيلها في السرير..

ـ كفاية يا شريف.

ـ الحياة مش مضمونة يا صديقي.. لازم نطلب الحلو قبل الأكل احتياطي.

ـ قلت لك لبنى طِلعت من دماغي خَلاص يا شريف.

ـ تعالى نقول نفس الكلام ده بعد كاسين شيفاز.. لسّه بتحب الشيفاز مش كده؟

قالها وضحك، ضحك كما لم أسمعه يضحك من قبل، ثم صمت، انتظرته ليفرغ «نداء طبيعته» مُتحملًا رائحة كريهة رطبة نافست إبط إبليس، دقائق من الملل جعلتني أستعجله، ناديته مَرتين فلم يجب، هممْت بجذب الستارة حين عَبَر المدّ الأحمر من تَحتها، مَوجة لزجة لامعة رأيت فيها انعكاس لَمبات

السَّقف ووجهي، تَوسّعت بثقة حتّى لامست نَعل حذائي، رَدّ فعلي تأخّر ثانيتين لأستوعب المشهد، أفقت فجذبت الستارة، شريف كان جالسًا بجانب المِرحاض عَاريًا، شاحبًا كبطل فيلم أبيض وأسود ورأسه مُطأطأ فوق صدره، فارجًا ساقيه في زاوية واسعة والدماء تتدفّق من مُلتقاهما في نَبض منتظم يُفرغ بنزينه سَاخِنًا على البلاط!!

ركضنا به إلى مُستشفى عين شمس التخصّصي وباطن يَدي يعتصر الجَرح المُتفجّر، وَضَعناه على طاولة وشرعنا في إقناع نزيفه المُنهمِر بالتوقّف، آخر ما لمحته قبل أن يبدأ البنج عمله كانت عينيه، رغم الذبول والاختلاج كان يرمقني..

بسخرية!!

لن أحكي عن صوتي الذي راح صريخًا في الممرِّضين والزملاء، ولا عن مَلابسي التي خُضِّبت بدمائه، ولا عن كتفي الذي مُلِخ وأنا أجاهد في حمله..

لن أحكي عن الوشم المُمتد حتّى أعضائه التناسلية كشجر اللبلاب، ولا عن شَبقي لكأس ويسكي مثلّج، ولا عن بقايا دمائه التي لم أستطع إزالتها من تحت أظافري..

تقرير المستشفى كان نزيفًا حادًّا نتيجة قطع في الشريان الفخذي تم باستعمال آلة حادة، مُحاولة انتحار كادت تنجح لولا هزاله الذي جفّف فخذه فسَهّل على الجرّاح العثور على الشريان الغاطس وغلق القطع فيه! غيّبوه بعدها صناعيًّا ولم أرحل إلا حين استقرت معدلاته الحيوية، رجعت بعدها ٨ غرب وطلبت فِنطاس قَهوة، حَمله لي محسن المُمرِّض حين أمرته بغلق الباب وسألته:

ـ محسن من غير لف ولا دوران أنت عارفني ما باحبّش أشم

الكدب في حدّ باعزّه.. شريف اتكلّم معاك عنّي؟ حكيت له حاجة يعني عن... الحادثة؟

ـ أنا! أنا يا دكتور!! هو أنا تلميذ.. طب وعهد الله...

قاطعت أيمانه:

ـ مين اللي اتكلّم معاه غيرك؟ ما هو لازم حدّ قال له.. أمّال هيعرف منين!!

ـ يا دكتور شريف ده من ساعة ما جه وهو أخرس.. المرة الوحيدة اللي عمل حاجة كانت لمّا ضرب فوكْس.. خلاف كده قاعد لوحده على طول..

ـ سامح ما كلمهوش في النباتشية؟

ـ ما شفتش.. يمكن..

ـ مين اللي دَخّل تليفون لشريف في العَنبر النهاردة الصبح؟

ـ تليفون!!! إزّاي يا دكتور أنت عارف إن ده ما يحصلش.. العسكري قاعد على الباب م الصّبح اسأله.. ماحدّش دخل والكعبة الشريفة..

ـ سامح كان فين؟

ـ كان موجود بس ما دخلش..

ـ شريف كلمني الصبح قبل ما يعوّر نفسه يا محسن.. أنا لو

ما عرفتش مين اللي دخّل له التليفون هاجيب جِزَا للقسم كلّه.. روح عِسّ لي وظبط واعرف لي.. مفهوم؟

قاطعني جَرس التليفون برقم صَفاء المُديرة، استدعتني بثلاث كلمات مقتضبة إلى مكتبها، صرفت مُحسن ودفنت سيجارتي في تنوة قهوة مُتبقية في الكوب قبل أن أتّخذ طريقي لمبنى الإدارة، أشحذ في رأسي كلمات «قرن غزال» سأغرزها بين ضلوعها لو بدأت في التحقيق معي..

في المكتب كانت دكتورة صفاء على كُرسيها، والمَجني عليه جالسًا إلى يمينها وأنفه التي لكمت قبضتي تفترش وجهه كفطيرة حارة، ابتسم تحديًا ببرودة تكييف ٨ حصان حين أشارت لي صفاء:

ـ اقعد يا يحيى..

قعدت في مُواجهة اللزج أرتقب أوّل غيث التحقيق، دقيقة مُملة قبل أن تترك أوراقها وتلتفت لي:

ـ احكي لي يا يحيى عن الحالة اللي معاك؟ شريف الكردي..

بداية غريبة لم أتوقعها.. اتّخذ الأمر منّي ثواني تابعت فيها وجه سامِح قبل أن أجيبها:

ـ شريف الكردي عنده أعراض مركّبة يا دكتور، سكيزوفرينيا، «OCD»، سكيزوجرافيا، وفي آخر يومين لاحظت...

ـ ازدواج! د. كيلاني حكى لي عن آخر كلام دار بينكم.. طبعًا آخر حاجة دي مش محتاجة أقول لك إنها عاوزة قاعدة يا يحيى..

ـ يا دكتورة شريف بقاله يومين بيتكلّم مَعايا بشخصيتين مَفصولتين.. أنا عارف إن ده صعب.. بس ده اللي حصل..

ـ شريف يقدر يتكلّم بشخصيتين في أي وقت لو حب يا يحيى.. ده دكتور..

ـ أنا عارف يا دكتور إن الازدواج نظري، بس شريف لو بيمثّل ما كانش حاول ينتحر، أنا شفت شخصيتين، وبينهم خناقة..

ـ مُحاولة الانتحار دي تدخّله في خانة الاكتئاب، لا سكيز ولا ازدواج يا يحيى، وده ما يعفيهوش من المسئولية..

ـ أنا ما بحاولش أعفيه من حاجة.. بس إحنا قدّام حالة حقيقية..

ـ مش هاطلّع تقرير من المستشفى يا يحيى يقول للمحكمة إن المتّهم بشخصيتين.. أنت عاوز تضحّك عليا الناس.. الحالة صعبة شوية.. بس مش ازدواج.. دكتور كيلاني راجع الأسبوع الجاي وهو اللي هيحسم الموضوع.. وهاتابع شريف معاك أنت وسامح من النهاردة..

ـ سامِح؟!!

نَظَرَت له في امتنان أمٍّ لابنها:

ـ سامح طلب يتابع معاك الحالة دي عشان تبقى تحت المراقبة طول اليوم رغم اللي حصل في وشّه، وقع على السلّم إمبارح زي ما أنت شايف..

ـ أنا مش محتاج حد يساعدني.. هاجي بالليل أتابع..

ـ سبحان الله! ده أنت ماكنتش طايق ترجع، وبعدين هتشتغل على الرسالة إمتى وإزّاي؟! سامح هيساعدك في الحالة يا يحيى، بصراحة مش جديدة عليه، سَامِح طول عمره صاحب واجِب..

كِش ملك!!

حاصرني «أنف الكلب» ببيادقه وطابيتيه ووزيره العاجز جنسيًّا، إما أن أرفض عرضه الخبيث وأترك شريف بين يديه لقمة سائغة وأنسحب، وإما أوافق على دس زلّومته المفلطحة في القضية وأورطه في المسئولية عن سلامة شريف.. الأمر أشبه بلعبة البوكر..

ولم تعوّدني «البوكر» يومًا على الانسحاب..

خرجنا من مكتب صفاء والطرقة كانت خالية، لم أتمالك لسعة قنديل البحر التي ألهبت صدري، جذبته من قميصه وصفعت الحائط بظهره:

ـ أنت فيه منك رجالي؟

خوفه امتزج بتشفّي مَغلول، وَضَع ذيله بين رجليه وبدأ يرفع صوته..

ـ اضرب.. خلّي المستشفى كلها تتفرّج عليك..

ضغطت على صدره:

ـ أنت بتخلّي شريف يكلّمني على المحمول؟

أفلت يدي:

ـ وأنا اللي خليته يتكلم فيه إمبارح برضه؟ أنت مُجرم زيّك زيّه.. وفيه لِعبة وِسخة بتتلِعِب..

ـ أنت مش رخم.. أنت حاجة أوسخ من كده بكتير.. عارف لو قرّبت له هاعمل فيك إيه؟

رمقني باستهتار مُصطنع لا يخلو من رغبة في التعجيز..

ـ إيه؟

«تم حذف الإجابة لاحتوائها على تلميح جنسي لا يليق بالذوق العام».

قلتها وتركته مُبعثرًا يلملم قميصه داخل بنطلونه.. قبل أن أصل إلى آخر الطرقة استوقفني وأشار إلى أنفه:

ـ وحياة دي لافرّجك..

تركته يعوي واتّجهت لمُستشفى عين شمس التخصّصي،

حيّيت الحارس الرابض على باب شريف ودخلت، الغرفة صغيرة والزمن فيها لا يتحرّك، خالية إلا من سرير يرقد فوقه شريف مرخي الأعضاء وطاولة عليها جهاز رَسْم قلب مُنحنياته تئِن برتابة، بجانب أنبوب مَحاليل يسقيه الجلوكوز تنقيطًا، صوت نَفَسه بَطيء مُتحشرج وسَاقه مُكبّلة في السرير بأصفاد حديدية، سَحبت كُرسيًّا غير مُريح وجلست بجانبه، شريف يَرقد في سُبات صِناعي حَقنه الطبيب في أوردته ليَعبر مَرحلة الصَّدمة العَصبية، لفافة شاش كبيرة تُحيط فخذه المَهتوك، جُفونه نَسي أحدهم غلقها جيدًا وبشرته صفراء ذابلة نافرة العروق..

كوكتيل من الألم.. بلا ثلج!

دقائق لم أُحصها جلست أراقبه قبل أن يبثّ السكون في جسدي خَدرًا شجعني أن أنزلق في الكرسي، جُفوني اكتسبت وزنًا زائدًا وتهيَّأت بالفعل لغَلق أبوابها قبل أن يُداعب عينيّ وَشم ذراعه، قمت واقتربت مِنه بفضول قطّ، الرسم بدا سُمرة مَطبوخة في بشرته البيضاء أقرب منها وشمًا دخيلًا، كأن دَولةً زِنجيَّةً من «الميلانين» أعلنت استقلالها على سطح جلده بلا ثورة، مَددت سَبَّابتي أتحَسس الفَارق بين اللّونين حين اضطَرب إيقاع نبضاته، سُرعة مُطردة في ضربات القلب سَتقذفه خارج ضلوعه، اقتربت من شاشة جهاز القياس أتابع إحداثيات الزلزال العنيف، قلبه يركض بسرعة ١٣٠ نبضة في الدقيقة، ركلت زِرّ الاستدعاء أطلب استغاثة، ١٩٠ نبضة، سُرعة تلفظ الدم من غرف القلب قبل أن

يَدخل، سيحتاج صدمة تُوقِف تهوّره قبل أن ينقلب به قلبه على الطريق، الجهاز يقرأ ٢٢٠ نبضة، لم أختبر تلك السرعة حتّى في يوم الحادثة، وَضعت كفّي على صَدره أحاول تَهدئة تَشنّج يرجّه حين بدأت الزُّرقة تَصبغ جِلده وشفتيه، نَقص الأكسجين بلغ مرحلة حرجة، كان ذلك عندما فتح عينيه بغتة وقَبَض على يَدي بمَلامح استولى عليها الألم، ويده الأخرى تعتصر كتفه اليسرى، نفرت شعيرات عينيه وتشنّجت رقبته في صرخة مَكتومة تستجدي هواءً، انفتح الباب عن طبيبة وممرضين وجهاز صدمات كهربية مجرور على عجلات، قبل أن يتّصل الجهاز بالكهرباء سكنت حركته، خَمد بين يديّ مُنقطع الأنفاس، نَحّوني جَانبًا ونَزعوا رداءه، وَضعت الطبيبة سماعتها على صدره في عدّة مواضع تبحث عن ناجٍ يستغيث فلم تجد، سَكَبت المُمرضة على صَدره مُلطّفًا قبل أن تَمسك الطبيبة بالقطبين وتصكّهما، وضعت وَاحدًا فوق صدره الأيمن والثاني تحت القلب، ابتعدْت عن السرير سَنتيمترات حين سَرَت الشُّحنة في جَسده، انتفض وتقلّص ظهره فطقطقت الفقرات ثم خمد، الجهاز صفّر في رتابة مُعلنًا غياب الحياة، شحنت الطبيبة قطبيها ثانية بعد أن رفعت الفولت، راقبت الجهاز للحظة قبل أن تكبس الأقطاب، انتفض جسد شريف، كاد ينكسر من التقوّس، أصدر صَرخة هائلة أفزعت الطبيبة قبل أن ينتفض، قَبضته اعتصرت ياقة قميصي فأيقظتني من الذهول، جذب وجهي إلى فَمه وهَمس:

ـ القميص.. القميص يا يحيى!!

قالها ونظر في عينيّ لحظة قبل أن تخور قواه وتغور حدقتاه ليسقط بين يديّ رخوًا كأن عموده الفقري قد انسلّ منه، لملمناه وأسجيناه على السرير، طُعِن بالحُقن وعُلِّقت له المحاليل وخُيّط جرحه الذي انفجر ثانية حتّى انتظمت مُعدّلاته الحيوية، سيحتاج إلى أربع وعشرين ساعة إضافية يُمارس فيها الغِياب عن عالمنا «عَنوة» مُكبّلًا في سريره حتى يستقرّ عالمه!

أحتاج إلى ثلاث كئوس ويسكي وطبق ترمس مملّح..

في طريقي للحصول على وجبة الكُحول أوقفتني كَاميرا مُراقبة لاسلكية في حَجم سبّابتي، مَعروضة في فاترينة «RadioShack»، تبث إرسالها إلى مُستقبِل بلوتوث في نِطاق مائة وخمسين مترًا حولها، يُخزن في لَقطات مُتقاربة بفارق ثانية واحدة مائة وعشرين ساعة أستطيع تفريغها على كمبيوتر، كَما اشتريت جهاز تَسجيل صَوتي في حجم الشوكولاتة، يُسجّل مائة ساعة بلا توقّف على كارت ذاكرة متحرك، كلّفني ثمنهما محصول ليلة من ليالي عوني، سأتابع شريف في العنبر على مدار أربع وعشرين ساعة، كما يجب أن أعرف ما يفعله سَامح مَعه حين أكون غائبًا..

حين وصلت البيت ألقيتهما على كنبتي وارتميت بجانبهما أتأمّل كتالوجاتهما مُحاولًا تَخيل الخُطوة التالية، أغرقت خلاياي في الكحول حتّى تشبّعت وكِدت أحتَرق لمّا أشعلت سيجارة،

لقد نجح شريف في إفساد التسلسل المنطقي لدراما حياتي الرخيصة الرتيبة التي يستطيع طفل صغير أن يتنبأ بمُستقبلها.. فالأسطورة تقول:

صديق قديم يظهر من العدم.. متهم بجريمة قتل..

إما أنه فعلها وما يلبث أن أكتشفه فيعرض عليّ مَبلغًا مُغريًا من المال نظير تحييد رأي اللجنة في قضيته.. فأرفض وأكون من الجاهلين! أو أوافق، وأدفع بمرضه المزيّف إلى منصّة القضاء ليخرج كل أطراف القضية سُعداء..

وإما أنه لم يفعلها حقًّا فأساعده وأنا مرتاح البال ويخرج الكل سعداء! أو أفشل، فأكون من الجاهلين..

وفي كل الحالات لن أفوز بالبطلة في النهاية..

شريف كان الدراما الثالثة التي لم تُكتب من قبل، دراما ترقص فوق السلّم ما بين نصّاب محترف وحالة مستحيلة، دارت رأسي حول نفسها حتّى نفد الوقود منها، ألعب لُعبة أزلية ليس فيها «Game Over»، استدعيت رَقم لُبنى على تليفوني ثلاث مرات حتّى حَفظْته، لن يُفيدها مَعرفة حالة شريف الآن، بَحثت عن حُجّة أخرى تُبرر اتصالي بها فلم أجد، كما لم أجد تعريفًا لما أفعله سوى:

«اقتراحات مُراهق لرؤية الفتاة التي تشاركه الدرس الخصوصي بدون أن يبدو سائل اللعاب!».

رائحة لبنى لا تغادر أنفي كما لا يُغادرني وَصف التفاحة المُستعملة، شجرة الجنّة المختمرة، أصبّ الكحول على أفكاري فتزداد وزنًا، كأسًا خلف كأس.. أنسحب وراء ندّاهة إلى قاع بركة مَليئة بالتماسيح النيلية، عمودي الفقري انغرز في الكنبة حتّى لامس البلاط، ولُبنى جالسة إلى يميني وطفلتي «نور» تقف بجانب كلب أحلامي الأسود، أنا نائم! لا، أنا مستيقظ وأخرّف، السيجارة صارت ركامًا مِن الرماد، اعتدلت ونظرت للعقرب، سِت ساعات سَقطت سهوًا، قُمت إلى الثلاجة العزيزة أجني ثمرات ثلجها، تجرّعت كأسًا إضافية واجتررت أفكاري على الكنبة لأتفحصها حتّى أعرف سبب بُطء الفهم الذي أصابني، بعد كأسين أظلمت الدنيا!! حانت اللحظة التي توقّعتها منذ زمن، لحظة ضرب الكحول المغشوش لعَصبي البَصري، بَصمة الميثانول!

هل الخمر «المضروب» حرام!!

لم أقو على القيام، رفعت يدي أمام وجهي فلم أرها، انطلق الأدرينالين في دمي فقمت أبحث بيدي عن أي شيء يُضيء حين تذكّرت الولاعة على المنضدة، رجعت فأسقطت الزجاجة ولم أكترث ـ على غير العادة ـ بالكحول المُراق قبل أن أعثر على الولاعة، فركت حَجريها فلسعت نارها حدقتي، أنا حي أرى، تنفّست فالتقطت الزجاجة أنعي كحولّي الذي شربَته السجّادة وارتميت على الكنبة، لحظات وهاجمني الضحك على فزعي

قبل أن أعي أنني قد أفقت من سكرتي في ثانية، كان ذلك حين باغتتني الفكرة! لمّا انقطعت الكهرباء عنّي تغيّرت كيميائي في لحظة، تبخّر الكحول من دمي كأني شَربت كوزًا من القهوة ليفصلني! هذا ما حدث مع شريف، انقطعت كهرباؤه بعد زيادة ضربات القلب قبل أن يتلقّى شحنة كانت كافية ليفيق، شريف لمّا تكلّم كان شريف الذي أعرفه؛ صوته ونبرته، والقميص!! فتحت الكمبيوتر أبحث عن صورته! لماذا يهتم شريف بذلك القميص؟

قرّبت الصورة ولم أتعب في تحصيل الصِّلة الوحيدة بين شريف والقميص، الأرقام، كلاهما يقدّس الأرقام، شريف ينقشها في كل مكان والقميص مزخرف بها كورق حائط مكرّر، إمّا أني قد وجدت خيطًا، وإما أن إراقة نصف زجاجة «Jack Daniel's» على السجّادة قد لَسَع عَقلي، الخَلايا التي حرَّرها الكحول في رأسي رتّبت أحجار الدومينو المُبعثرة، شريف كان ينوي «لهاجس ما» سرقة قميص المتحف الإسلامي، ذهب إلى هناك ليعاين المكان والتقط صورًا لنظام الإنذار وشكل القاعة ومكان الفاترينة، لكن تأتي الرياح أحيانًا بما تشتهي السفن، حَدث كل شيء يوم الانفلات الأمني، هَرَع شريف فيمن عاثوا في الأرض فسادًا وانتزع غنيمته، بأقل مجهود..

أما لماذا؟ فسيظل ذلك لغزًا حتّى يفيق سيادته، وَجهه وهو يَصرخ فيّ لا يُغادر عَينيّ، يمنعني من التفكير، وَشْمُه الغريب

أيضًا يصيبني بغثيان لا أعلم سببه، الوشم! بحثت عن محفظتي لأستخرج الكارت الشخصي الذي وجدته في الزهرية بالشقّة، مَحل رسم الوشم بمصر الجديدة، مواعيده مكتوبة على الظهر بجانب العنوان..

لم أملك سوى أن أنطلق إلى هناك..

في شارع هادئ ميّت مُتخم بالأشجار عثرت على المحل؛ واجهة زجاجية ضَيّقة عليها رسم لبوذا في هيئته البدينة، جالسًا ويداه مُخضبتان بالنقش ومن خلفه ستارة فضّية متلألئة فوقها اسم «Buddha» مَكتوب بلمبات نيون تضيء وتنطفئ برتابة، دَفَعت الباب فاصطكّت الأجراس، صالة المحل من الداخل كانت ضيّقة، حيطانه مُزدحمة بنماذج وشوم لكل من يبحث عن هويّة، جَماجم، موتوسيكلات وحيوانات مفترسة لأذرع الذكور، فراشات، قلوب مُعذّبة وورود تُضفي على جسد الإناث ما يُضفيه الليمون على الأفيون، جنون مضاعف! في ركن وراء مكتب جلس شاب رَخو كقنديل بحر، قرط في الأذن اليمنى، قميص خرج للتو من فم كلب، ووشم يحتل ذراعه وآخر يتمشّى على رقبته:

ـ مساء الخير..

ـ مساء النور.. فيه معاد ولّا أوّل مرّة تشرفنا؟

ـ أوّل مرّة..

ـ لازم نحدد معاد لأن الشغل هنا بالحجز.. فيه تاتو معين...؟

قاطعته:

ـ أنت صاحب المكان؟

ـ مدام «ديجا» هي الـ«Owner».. بس عندها «Session»رسم دلوقت..

ـ ديجا! أجنبية؟

ـ ديجا.. خديجة.. «Nickname»..

ـ آه.. هاستنّاها..

جلست قُربه وأذناي تلتقطان أزيز آلة رسم وشم رتيب يشوّش المُوسيقى الهندية المنبعثة في المكان، كسرًا للوقت تصفّحت كتالوج وشوم كان على المِنضدة، دقائق وتوقّف صوت الماكينة قبل أن تخرج من خلف الستائر فتاة أجبرني وشمها الذي يتوسط أسفل الظهر «بين النغزتين» على متابعته حين انحنت لتلتقط حقيبتها، قلب أحمر مغروز فيه سيف مسنون وعبارة لم أقرأها بسبب الالتهاب الوردي، يجب أن تأتي مايا معي يومًا، سأدعوها لوشم بعض مزاراتها التاريخية العريقة! تابعت الفتاة الموشومة حتى رحلت حين اختفى الشاب الخِرِع خلف الستائر ثم عاد يدعوني للدخول..

الغُرفة كانت واسعة نسبيًّا، رائحتها بخور مُسكِر، غَنية بتماثيل لبوذا بأحجام مختلفة، من عقلة الأصبع لمتر فوق الأرض المكسوة بسجاد شيرازي مزخرف، ونجفة خافتة تُضيء بالكاد الحَائط المُزيّن بلَوحات أبيض وأسود مُبهرة لجلود آدمية وشِمَت بعناية، بجانب مكتبة تصل للسقف عامرة بالكتب، وفي المنتصف مِنضدة عليها مُسدّس الحقن والمطهرات وبعض الألوان في أوعية زجاجية، حين دخلت كانت السيدة على كرسيها المنخفض ترتب أدواتها، «ديجا»، أنثى في العقد السادس من عمرها حاصرت التجاعيد عينيها وافترشت أفرعها بين ثدييها اليابسين اللذَيْن طلا من فستانها الأخضر المكتوم، جاذبيتها فارسية كزجاجة نبيذ أحمر تعتيق ١٩٤٤، عاشت جميلة في وقت ما، ولم تيأس، يُحيط برسغيها كمية لا بأس بها من الأحجار الكريمة مغروسة في أساور فضيّة، في أصابعها خواتم كبيرة متوّجة بالعقيق، تَعقص شعرها الأبيض الخشن على جانبي رأسها بإيشارب أحمر قانٍ، وتضع في أذنيها قِرطين واسعين كأطواق الهولاهوب، لمّا رأتني ابتسمت بصفّ أسنان اسودّت شقوقه ثم أشارت إلى كرسي جلدي مريح أمامها لأقعد وقدمت نفسها بصوت أرهقته السجائر:

- ديجا..

- يحيى..

- برجك إيه يا يحيى..

ـ برج إيفيل..

ضحكت..

ـ ماشي.. شاي أخضر؟

لم تنتظر إجابتي.. سحبَت الإبريق من فوق سخان كهربي وصبّت في كوب زجاجي صَغير ثم ناولتني.. التقطتُ الكوب فشممته حين أردفتْ:

ـ ده شاي أخضر.. من المَغرب..

ـ ريحته حلوة..

نطقتها رياءً وبالكاد ابتلعته، فأنا لم أذق السوائل غير المُخمّرة منذ زمن..

ـ أوّل مرة تعمل تاتو؟

ـ لأ.. أنا جاي...

قاطعتني:

ـ استنى ما تقولش..

نظرت في وجهي بتركيز شديد ثم أغمضت عينيها:

ـ أنت محتاج.. محتاج جارح.. رسمة صقر بمخالب كبيرة ورقبته مليانة.. ومُمكن راس ثور بقرون و...

ـ الحقيقة أنا جاي أسألك على رسمة معينة.. هي معايا..

ناولتها صورة من ملف شريف تبرز وشم ذراعه، حملقت فيها من وراء نظارتها قبل أن تنقلب ملامحها فجأة، رفعت عينيها إليّ بغضب وقامت مفزوعة، دسّت يدها في حقيبتها الشخصية وأخرجت عبوة «Self Defense» ووجّهتها نحوي:

ـ أنت تبعه.. هو باعتك؟!

ـ ثانية واحدة.. فيه سوء تفاهم.. أنا...

حقيقة أنا لم أقل كلمة إضافية، فقط تلقيت السائل الحارق في وجهي لأتشنّج كدجاجة اغتصبها اثنا عشر ديكًا دفعة واحدة، فلفلة حمراء هُرست بين أنفي وحلقي، ماء نار حَفَر حَدقتيّ وسَال مُخاطي أنهارًا على ذقني، هذا بجانب كُحّة متحجِّرة شقّقت رئتيّ، كان ذلك حين دخل الشاب الرخو العامل عندها، رَكل خُصيتيّ بحرفية «كريستيانو رونالدو»؛ لاعب ريال مدريد، بدون أن يسأل ماذا حدث، تكوّمت ألمًا لا أدري أأُمسك بمعدتي التي انقبضت من الركلة الحرَّة المُباشرة أم أكحّ لأستجدي الهواء!

جاهدت لأخرج المحفظة من جيبي فركل الرخو يدي والتقط بطاقتي قبل أن يناولها لديجا، كانت تمسك تليفونها باليد الأخرى تبحث عن رقم أو هكذا خيّل لي..

ـ أنا حالفة لو قرّب هنا تاني مش هيروّح بيته.. معاون مَباحث النُّزهة مدّيني رقمه...

بترت كلماتها لمّا نظرت للبطاقة ورأت صفتي كطبيب فأنزلت التليفون:

ـ أنت مين؟

سؤال متأخّر لم أستطع الرد عليه، لكنني أقسمت إني سأقتل تلك الولية يومًا ما قبل أن أئد مُساعدها وأد بنات الجاهلية في الصحراء، أكملت احتضاري حين أمَرَتْ عبدها الأملس برشِّ كوب ماء عليّ قبل أن يُساعداني في دخول الحمّام، نصف ساعة وبدأت أتمالك نفسي نسبيًّا بعدما تجرّعت لتر لبن واستحممت تقريبًا، أغرقتني الولية أسفًا قبل أن أستطيع الكلام، حكيت لها عن طبيعة عملي كمقيّم لحالة شريف وعن الجريمة، سقط فكها السفلي على حِجرها صَدمة وخجلًا من تسرُّعها معي قبل أن أسألها:

ـ أنت اللي رسمتي التاتو ده؟

ـ لأ.. أنا اللي حاولت أشيله.. وماعرفتش!

ـ احكي لي..

الشخص ده بمجرّد ما قعد قدّامي حسِّيت إنه مش طبيعي، مجنون رسمي، نظراته غريبة وبيقول كلام كتير بصوت واطي مش مفهوم، اللي فهمته منه إنه عاوز يشيل تاتو، شرحت له إن فيه كريمات بتتحقن تطلَّع التاتو لطبقة الجلد المكشوفة ويعمل قِشرة زَي الجَرح ويتشال، رفض لما عرف إن ده بياخد About شهرين، كان عَاوز يشيل التاتو في ساعتها، الحل التاني إنه يتشال

باالليزر وده مؤلم شوية، وافق، حطِّيت له كريم بِنج مَوضعي على دراعه واستنينا رُبع سَاعة لغاية ما الكريم عَمل مفعوله، بمجرّد ما شغلت الليزر وقربت لقيته بيبص لي وبيضحك وفجأة مِسك إيدي، ضغط عليها لغاية ما كسرها كَسر مُضاعف.. بُص..

كشفت عن رسغها فوجدت فيه أثرًا داكنًا والتواء يُلاحظ بصعوبة..

تراجعت في تلك اللحظة عن فكرة قتل تلك الولية، لكن وأد عبدها الرخو لا تفاوض فيه..

ارتشفتْ شايها الأخضر تهدئة لأعصابها التي توترت ثم أكملتْ:

ـ كتم بُقي عشان ما أصرخش وسَحلني لغاية الرُّكن وقَعد فوقي، فِضِل على ده الحال يمكن خمس دقايق، آخر حاجة قالها لي إنه هيبعت صديق يخلص عليا، ده اللي قدرت أفتكره لأن بعد كده أغم عليا من الـ«Pain».. ده يفسر رد فعلي معاك.. أنا آسفة.. أنت مش متخيّل.. بس أنا اتبهدلت..

ـ الرسم اللي على دراعه ده ليه معنى؟

التقطت الصورة ورمقتها ثواني:

ـ مش فاكرة إني شفت حاجة بالـ«Finish» ده قبل كده.. الـ«Style» شرقي بس I'm sure إنّه معمول بره مصر.. للأسف ما عندناش المَكَن ده..

ـ أي معلومة توصلني لحاجة؟

ـ أنا آسفة.. كان نفسي أساعدك..

قمت مستأذنًا حين تذكّرت صورة شريف وبسمة على الشاطئ، أخرجتها من محفظتي:

ـ شفتي البنت دي قبل كده؟

التقطت منّي الصورة وسحبت نظارتها المدلاة على صدرها بحبل رفيع ودققت النظر..

ـ لأ..

ـ متأكّدة..

ـ «Sure»..

ـ التاتو اللي على الفخد ده...

ـ في الغالب ده حنّة مش تاتو.. ومش قادرة أشوف الرسمة..

تركتها ورحلت بعدما رميت عبدها الهزيل بنظرة وعيد.. اللغز يزداد وضوحًا.. أو إعتامًا! لم أعد أعرف!

حادثة ديجا تؤكّد أن شريف قد يكون أول حالة ازدواج حية أصادفها في حياتي..

سحبتني قدماي للمستشفى، كان الوقت ليلًا حين وَصَلت،

مِيعاد مُناسب لسرقة شجرة بجذورها إذا أردت، تمشيت في الطرقة حتّى أصبحت أمام غرفة التمريض، مظلمة كانت، يملؤها المُمرِّض النوباتشي بشخيره ورائحة قدميه، لمّا اطمأننت أنَّه مَيِّت بسلام أخرجت كاميرا المراقبة، بحثت لها عن مَرقد في مواجهة الزجاج فوق دولاب يطل على العنبر، وجهتها إلى حيث تكشف الأسرّة كلها بعدما أخفيتها في زاوية لن تراها عين، ثم اتجهت إلى غرفتي وفتحت مُستقبل الإرسال حتّى التقط الإشارة، جَربتها على كمبيوتر المستشفى فوجدت النتيجة مرضية، صورة تُلتقط للعنبر كل ثانية توضح خط سير النزلاء وكل حركة يأتونها، ستكون عيني على شريف في حالة غيابي، وضعت المُستقبِل في درج أخذت مفتاحه معي قبل أن أرحل..

لمّا وصلت أمام البيت كانت النوافذ مُضاءة، لا يجرؤ على تلك الفعلة سوى الوحيدة التي تملك مفتاحي؛ مايا، زيارتها الأسبوعية التي تعني لي الكثير! ما إن تدخل حتّى تُبعثر هرموناتها الأنثوية في كل ركن، فالمسكينة لديها موسِم تَزاوج محدود، فَقَط اثنا عشر شهرًا في السنة! تأتي كيفما تشاء، وقتما تشاء، تنثر أغنياتها في سَمَّاعاتي وتطلب طعامها جاهزًا من مطعم إيطالي قريب! أحيانًا تُعيد ترتيب البيت بعد الفوضى التي أعيش فيها، أو تُحدث فوضى أكثر مما أصنع، لا يهم، ما يهم هو كسرها روتيني، وتغييرها هواء شقّتي ورئتيَّ، تجلس في مكانها المفضّل أمام منضدة غرفة المعيشة، تفتح قناة أفلام أجنبية على فيلم

رومانسي، أو رعب، ثم تُخْرِج عدّتها؛ زجاجة فودكا «ID»، حبّات الـ«Acid» المقدّسة عند قبيلتها، وسجائرها المحشوة بخيرة الحشيش المغربي..

مايا في المعجم: إلهة الخصب والربيع عند الرومان، وعند اليونان أمّ «هرمس» من كبير الآلهة «زيوس»..

لمّا دخلت لمحت ساقيها متقنتي الرسم متشابكتين فوق الكنبة، لعن الله من اخترع الكعب العالي لينحت السمانة مع المشي بذلك الشَّكل، أصابعها الدقيقة مَطليتان بلون لبني فاقع والدُّخان يتصَاعد إلى السَّقف فوقها، لمّا سمعتْ صَوت مِفتاحي انتفضتْ كمن رأت فأرًا، جَريتْ نحوي لترشق في صدري احتضانًا وتلفّ ساقيها حول ظهري، كعهدها دائمًا، خفيفة كحمامة، غضّة كمخدات صدمات السيارة الفارهة، وناعمة كرخام إيطالي مصقول..

ـ يا نهار اسود.. حلقت دقنك!!

ـ معلش.. الجو بقى حرّ..

ـ يا تعبان! أنت عارف إني باحب دقنك!!

ـ هتطلع تاني يا مايا! هو أنا قلت إني عملت ليزر!

قبّلتني قبلة تبادلنا أثناءها الأنفاس واللُّعاب ولبانة بنكهة الفراولة..

ـ إيّاك تحلقها تاني.. أنت فين؟ ما جيتش «Deals»! ومش بترد عليا.. قلقتني!!

ـ أنا كويّس..

أجلستني على الكنبة وجلست فوقي، ثمانية وخمسون كيلو من الرفاهية:

ـ مالك؟

ـ مافيش.. فيلم أجنبي كده..

ـ احكي..

ـ رجعت الشغل.. في المستشفى..

ـ رجعت المستشفى!! أنت عاوز فلوس؟

ـ لأ..

ـ عاوزة أسمع..

ـ مايا أنا تعبان..

ـ جايبة النهاردة «Stuff» هيطلّعك الهرم جري..

ـ أنا مأفور من غير «Stuff» ..

ـ وفيه مفاجأة!!

قالتها وأخرجت من حقيبتها زُجاجة أعرفها، متوسطة الحَجم مَرسومًا عليها عين حدقتها خضراء ورموشها من الفضة تشعّ

حولها كأشعة الشمس، تحوي سَائلًا أخضر رائقًا وتحمل اسم «La Fee Verte - Absinthe»!

الجنيّة الخضراء.. نكهة اليانسون + ٦٨٪ كحول..

لم أفتقد خالتي رحمها الله مثلما افتقدت تلك الزجاجة...

ـ جات لي من برّه.. قلت مش هافتحها من غيرك..

مايا.. لا دين لها..

الشبق فوق شفتيها أشعل حماسي، ناولتني كأسين فوضعْت فوق أولاهما مِصفاة صغيرة أتت بها من المطبخ وألقيت فيها قالب سكّر، فتحت الزجاجة وصَببت السائل الأخضر على القالب فتخلله، رُبع الكأس كان كافيًا، التقطت ولاعتي وأضرمت النار في القالب المشبّع بالكحول، ارتفع اللهب الأزرق وتراقص قبل أن يتحول السكّر إلى «كراميل» يتسرّب من الفَتَحات الضيقة إلى القاع، ثوانٍ وأسقطت بقايا القالب في السائل الأخضر فاشتعل، قبل أن أُضيف ببطء بعض تونيك الليمون حتى امتلأت الكأس وناولتها، احتضنته براحتها واشتمّت طَرفه ثم تجرّعت سنتيمترات الجنون بعينه، أغمضت عينيها وارتخت على الكنبة مُبعثرة ساقيها شرقًا وغربًا:

ـ فتيبيء!

صنعت لنفسي كأسًا أخرى وارتميت بجانبها فنظرت تجاهي..

ـ فيه إيه احكي لي؟!

سألتْ مايا.. ولم يكن لإنسان على وجه الأرض من بعد أبينا آدم أن يُوقِف إلحاح مايا إذا بدأ..

مايا في بعض المعاجم الفينيقية القديمة: إلحاح مُرابي يهودي على ماله + فائدة مُجْحِفة..

حين أنهيت قصّتي حول صديقي وأخته العائدَيْن من الظلمات كانت هي قد جحظت عيناها والتهمت سيجارة محشوّة واحتضنت كأسها الثانية..

ـ أقول لك على حاجة بس ما تفهمنيش صَح.. أنا عاوزة أنام معاك دلوقتي حالًا..

ـ تصدقي أنت فصلتيني..

ـ مش قصدي والله.. بس وأنت بتحكي شفايفك تجنّن.. ومن كتر ما أنا متوترة جَت معايا على نوم.. اللي فاصلني منّك بس الهانم اللي عُمرك ما حكيت لي عنها..

ـ الموضوع ده انتهى أصلًا قبل ما يبدأ..

ـ طريقة كلامك عنها بيقول إنّه ما انتهاش.. أنت مش شايف نفسك..

ـ مايا أنت سكرانة..

ـ أنا مش سكرانة..

ـ سكرانة.. بس مش هاكدب عليكي لمّا شفتها اتلخبطت شوية..

ـ دوقتها؟

ـ مايا!!

ـ مافيش حد بيتلخبط كِده غير لما يكون داق اللي بيحبّه.. «At least» بوستها؟

ـ وافرضي!!

ـ تبقى بوستها.. وطعم شفايفها لسّه في بُقّك.. لسّه بتحبها؟

ـ حُبّ! بخلاف إن الكلمة دي مدارس أوي.. بس بتلخّص رغبات وسخة مكسوفين نقولها.. مافيش حاجة اسمها حب.

ـ ده كلام خطير!

ـ يا بنتي لو قعدنا نحب في بعض أسبوع ومفيش «Sex»، هنتف في بُق بعض.

ـ «Disgusting».

ـ العلاقة رغبة.. إعجاب.. مطاردة.. صيد.. «Sex».

اتسعت حدقة عينيها شبقًا..

- طب وأنا وأنت في أي مرحلة دلوقتي؟

- في الشقّة.

- بطّل رخامة أنا مش عيانة من بتوعك ما تلاعبنيش.

- إحنا عدّينا المراحل دي كلها.

- يحيى.. عارف.. أنت عمرك ما قلت إنّك بتحبني.

- لأني ما بحبكيش.

رفعت شفتيها باشمئزاز قبل أن أتداركها..

- أنا جعانك.

- هييجي يوم وتشبع.

بشرود خرجت منّي ولم أقصد..

- يمكن.

زمّت شفتيها ولمّت شعرها بعصبية كَحكة فوق رأسها ثم أردفت:

- أنا قلت لك إني باحبك تاني يوم نِمنا مع بعض.. وجودك معايا فارق.. عارفة إنّك رافض تتجوّز بس مين عاوز.. May be أنا أتجوّز.. بس Sure مش عاوزة «Kids».. ما باقدرش أقعد معاهم أكتر من عشر دقايق! ولو إني مش هلاقي حد زيّك.. وغالبًا هاجيلك أزورك.. أنت عارفني أنا آخري تلاتشهر مع أي حدّ.. ساعات باستغرب أنا ليه مش عارفة أزهق منّك.

ـ مش عارف.. مع إن أنا زهقت منّي!

ـ أنا عارفة مش بازهق ليه.. عشان أنت مش طبيعي.

ـ إيه؟ بتلات رجلين؟

ضحكت في غَنْج فاستدركتها:

ـ ده أنت دماغِك وسخة.

ـ أجمل حاجة فيك إنّك فاهمني.. وده عُمري ما قابلته.. أنتو أغلبكو أصلكو دماغه مَحدودة.

ـ ده شغلي.. أفهم الناس.

ـ بس؟ يعني أنا بالنسبة لك شغل؟

صورة لبنى في مخيلتي أفقدتني حِسّ الدعابة.. كُلّ شُعور ظننته صادقًا اختل ودب فيه الشكّ بعد عثوري عليها.. فَقدت قُدرتي على مُغازلة مايا.. مُمثّل نسي نَصّه.. وحتّى تملّقها بكلمات من وراء قلبي لأستبقيها؛ صار حَجرًا كَبيرًا على صدري لا أستطيع زحزحته.. ظننتني يومًا أحبها.. ظننتني يومًا نسيت لبنى!

ـ لأ.. أنت مايا.. مش شُغل.. بارتاح وأنا معاكي وأنت عارفة..

خرجت بصعوبة..

ـ طيب ومعاها؟ لُبنى؟

ـ مافيش.. صدري اتحرق بس لمّا شفتها عشان.. عشان! يعني.. حرقان!!

ـ لو بتحبك بجد كانت حاربت علشانك.. لو مطرحها كنت لميت هدومي وجيت عِشت معاك..

ـ يا بنتي أنت فَاقدة أصلًا.. لُبنى لو حاربت أكيد ما كنتش أنا هاتجوزها من ورا شريف.. ده غير إن شريف اعتبرني خاين لمّا عرف علاقتي بيها..

ـ ومن ساعتها...؟

ـ من ساعتها ما عرفتش أمشيٍ.. الحياة ببساطة.. عِطلت.. آاا.. اتشليت.. فقدت حاسة الشَّمّ.. مِش عارف.. عِطلت.. أنا مش رومانسي.. بس اتقلبت على ضهري زي أي صرصار مُحترم.. اتجوّزت لأن المفروض أتجوّز.. زي ما بتاكلي عشان جسمك عاوز غذا.. بس نِفسِك مش عاوزة..

ـ ولغاية دلوقتي عطلان؟

ـ دلوقت أنا خلاص.. ظبّطت حياتي.. بشكل ما.. مش عارف إيه أمّ اللي جابها تاني.. مِش وقتها.. مش ساعات كده فيه حاجات صحّ بتيجي في وقت غلط؟ صح؟

ـ كان نفسك تكون جاية لك «Single»؟

تجرّعت كأسي الثانية ولم أجب.. ثم قررت أن أجاوبها:

ـ يِمكِن..

ـ يِمكِن؟

ـ يمكن رد اعتبار..

ـ انتقام؟

ـ أنا مسامحها..

ـ أنت هايج!

ـ مش كده يا مايا.. مش بافكر كده..

ـ أنت اللي قلت إن مافيش حُب..

ـ آه.. بس.. ده حاجة تانية..

ضاقت حدقة عينيها غضبًا..

ـ تبقى لسّة بتحبها!

ـ أنت سكرانة..

ـ لو فايقة كنت اتخانقت معاك.. إحنا متعودين على الصراحة صح؟ جاوب..

ـ هي بس.. بَرْجلتني.. عادي.. عمرك ما اتبرجلتي لما قابلتي واد كنتي ماشية معاه أيام الكليّة!

ـ ممكن.. وإيه اللي كان عجبك فيها؟

ـ دماغها.. عاقلة.. بتفهمني..

ـ لو كانت وحشة كنت هتقول نفس الكلام؟

ـ وعودها حلو.. باحب عينيها أوي.. ودمها خفيف..

ـ ها وإيه كمان؟ ده أنت محروق موت!

ـ محروق عشان في يوم من الأيام.. كنت فاكرها هي.. هي اللي ممكن تقف الحياة عشانها.. بس طلعت مش هيّ..

الجملة الأخيرة كانت الكذب بنفسه حين يمشي على قدمين.. لكنَّها نجحت في إسكات مايا..

ـ ماشي.. هتكتب فعلًا الدكتوراه؟

ـ دكتوراه! أنا مش محتاج الدكتوراه.. زمالة من أي نيلة برّه تكفّيني لمّا أبقى عاوز أكمّل الشغلانة المهببة دي.. أنا قاعد لغاية ما موضوع شريف يخلص.

ـ أنا مش مصدّقة صاحبك ده!! حاسة إن فيه حاجة غلط.. بيشتغلك.. بيشتغلكو كلكو.. بيشتغلني أنا كمان.. ممكن تكون لبنى كمان بتشتغلك!

ـ لبنى لأ.. لبنى أنا أعرفها زي كفّ إيدي.. ففف.. أنا دماغي وقفت.

نظرت لي بابتسامة خبيثة..

ـ طب يلّه.

ـ الله يخرب بيت دماغك!! باقول لك تعبان.

لم أكمل الجملة، قفزت فوقي وقبّلتني عَضًّا، سَرت الكهرباء في جسدي فابتسمت:

ـ بطّل غلاسة.. «Relax».

أجمل ما بيني وبين مايا أننا لا نصل لمرحلة العراك.. سبعة أمتار قبلها ونتوقف أوتوماتيكيًّا.. بتصالح مع النفس اتفقنا «بدون أن نتّفق» على أن تكون علاقتنا فريدة من نوعها.. نسيح في الحياة كيف نشاء.. وحين نلتقي:

العشق كما ينبغي أن يكون.. وكل أمر متاح حتّى أبعد الحدود.. قبل أن نعود ثانية لحياتنا..

لا غيرة..

لا تليفونات اطمئنان كل ست ساعات..

لا عتاب على توافه..

لا التزام..

لا حديث عن المستقبل..

نساء الأرض عادة يحتجن سببًا لإقامة علاقة مثل تلك.. مايا تحتاج فقط..

شقة خالية!

مايا في مُعجمي: كوكتيل مِن ويسكي، نَبيذ، عرقي، فودْكا، كامباري، سيدار، B52، ساكي، بِراندي، كونياك يوناني، روم، تيكيلا، بيرة، شامبانيا، آيرش كريم، وحتّى بوظة بلدي بالفول النابت!!

اتّزنت على رُكبتيّ ونثرت شعرها في وجهي ثم أخرجت من حقيبتها علبة شفافة صغيرة التقطت منها قرصًا لون العاج، عليه رسم لفيل أزرق بأربع أذرع، رَافعًا خُرطومه إلى أعلى ويُمسك بيده شيئًا لَم أميّزه..

ـ إيه ده؟

ـ ده الفيل الأزرق.. «Stuff» مش هتصدّقه.. أوّل مرّة ينزل مصر.. جِبته من «Dealer» جنبك هنا في المَعَادي..

ـ ماليش في الكيميا..

ـ دي مش كيميا.. دي تذكرة لعالم البرزخ.. تذكرة رايح جاي..

ـ البرزخ!

ـ البرزخ..

ـ البرزخ اللي هو بعد الموت! ده «LSD»؟

- الـ «LSD» ده لعب عيال.. ده اسمه «DMT»..

- أيوة يعني بيعمل إيه؟

- دي مَادّة اكتشفوا إنها بتتفرز في الإنسان وهوّ بيموت.. بتساعده يـ«Relax» وهو بيستقبل العالم الآخر عشان ما يتصدمش.. رحلة مدّتها ساعة واحدة.. تشوف فيها اللي ما تحلمش تشوفه.

- ما باحبّش أبلبع حاجة ما أعرفهاش.

- أنت مش بتقول إنّ حياتك عَطلانة.. هتخسر إيه؟

جميل أن تأتي الفلسفة والمنطِق من فم مايا.

- أشوف فيها كُل اللي نفسي أشوفه..

- كُل اللي أخدوها حياتهُم اتغيرت.

قالتها وعضّت على شفتيها غَنجًا، قد يكون ذلك ما دفعني يومها لتركها تضع الفيل الأزرق «بزلّومته» فوق لساني قبل أن أبتلعه بكأس الـ«Absinthe» الثالثة..

هل تابعت برنامج «أسبوع القِرش» على قناة «National Geographic»؟

استرخيت في الكنبة تاركًا نَفسي بين يديها، وسَاقيها! تلك الليلة كان عليها الكثير من الواجبات سأتجاوز أدبًا عن شرحها،

يَكفيني يقيني أنها تستحق دكتوراه مع مرتبة الشرف في تخصصها وتكريمًا من الملكة الأم في إنجلترا ولقب دوقة، أسدَلت جُفوني وحاولت الاندماج فيها حتّى أذنيّ مُجاهدًا لطرد الأيام الماضية من رأسي..

وربما مَحو وجه لُبنى التي التَصَقت صُورتها في بَطن جُفوني، كلما أغمضت عينيّ رأيتها..

هل لاحظت أن مقلوب كلمة قِرش.. «Shark»..!!

بَعد ثلث ساعة كان الفيل الأزرق قد تولّى الدفّة، عَرِفت ذلك حين بدأت الغرفة تتسع، قبل أن يبدأ كل شيء حولي ينبض، بانتظام، يتنفس انقباضًا وانبساطًا في إيقاع ثابت كأني في قاع بحر، الأثاث يبتعد ببطء نحو الحوائط، الرسم على السجادة يتلوّى كأنه الثعابين، ووَرق الحائط المنقوش بدأت أغصانه تصعد «لبلابيًّا» إلى السَّقف! هلوسة مُقنعة راسخة مُطمئنّة كجبل على الأرض!! الذي كتب «ألف ليلة وليلة» يعرف ما أقصده، التفاصيل أصبحت حادة والألوان ازدادت زهوًا كأني في معرض زهور يابانية، قبل أن تنحصر الحياة في منطقة ضيقة بين البنفسجي والأزرق، ثم غَزا العُشب الأخضر أرض الغرفة تدريجيًا، الأخضر له نعومة خرير شلال كاريبي، البنفسجي له رائحة البخور الهندي الذي اشتممته في مَحل الوشم، أما الأزرق فصوته يشبه صفارة قطار منتظمة تأتي من بعيد! مُقارنة بعهد ما قبل القُرص كنت أعيش في فيلم أبيض وأسود مخربش، على ذِكر الأفلام القديمة عبر أمامي أنور

وجدي وليلى مراد، مَرّا في طريقهما للحمّام وابتسمت لي ليلى بصفّ أسنانها البرّاق، تبدو أقصر مما تظهر في الأفلام، لكنها فاتنة! تفاديا بالكاد ساقي مايا المنفرجتين ولمبات النيون التي تلوّت مثل الحيات تبُخّ كهرباءها قرب رأسيهما فوق باب الحمام، متى ركّبت تلك اللمبات؟ كَتفا مَايا الناصعتين انسابتا مثل الشمع على صدري، نمشها المنثور كالنجوم فوقهما له عبق الكاكاو، وثديان مقاس «34c» مثاليان يدوران كما تدور الأرض حول نفسها، ٤, ١٦٤٤ كم/ ساعة، عَرقها تبغ نكهته فانيليا، وشعرها شديد الحُمرة يَموج في وجهي، شعرها أسود! لا إنه شديد الحمرة، لم ألحظ أنها صبغته!! باتت تُشبه مَعشوقتي الفرنسية «Eva Green» في فيلم «The Dreamers»! مِن النساء من هنّ جبنة «روكفور»، ومنهن مَن هُنّ القشدة والزبدة والحليب كامل الدسم، كم أنا محظوظ! لم ألحظ ذلك من قبل، ولم ألحظ الوشم فوق فخذها اليسرى، وشم على شكل كلمات.. لا.. أرقام! ٩ ١ ٠ ٠ ٢ ٠ ٠ ١ ١ ٠ ٤، أحد عشر رقما مَكتوبًا بحِبر غير ثابت ما إن لمستها بأناملي حتّى استحالت حشرات صغيرة وانسلّت من بين أصابع قدميها لتتوه في العشب الأخضر الذي كان قديمًا.. سجادة..

هل تابعت برنامج «الحشرات» على قناة «National Geographic»؟

هل لاحظت أن مقلوب كلمة «حشرات».. لا تمُت بصلة لـ«Bugs»؟!

أين نظارتي؟ لم أصنعها بعد.. لكني أستطيع رؤية السّقف بوضوح والحشرات الصغيرة تتجمّع في أركانه، كما أرى بوضوح الأبواب التي أحاطتنا! اللعنة على صاحب البيت! رجل بلا ضمير.. ثلاثة أبواب يخفيها عنّي! ثلاثة أبواب مُغلقة بمقابض فضية، عَدا واحدًا بدا مُواربًا يتسلل منه ضوء أصفر باهت، تَجرعت باقي كأسي ترطيبًا لريقي الذي جف على عُنق مايا ثم أنزلت ساقيها من فوق كتفي بعدما أنهت صراخها وكفّت عن نداء اسمي كالتائهة وخَمدت كقشرة موز..

ـ لم تعُد تُشبه «Eva Green»!!

أزحتها برفق ثم قُمت للباب الموارب، أشعر بالبرد رغم الجوّ الحار! بصعوبة أمسكت المقبض الذي يَطِنّ كعش دبابير مزدحم ودفعت الباب ودلفت.. تلك الغرفة!! تلك الغرفة أعرفها جيدًا.. إنها لا تنتمي لهذا البيت، تنتمي لشقّة شريف بالمعادي، غرفته بالدور الثلاثين!!

«Mother Fucker» بالإنجليزية تعني «تبًّا» بالعربية..

كُل شيء في الغرفة كان كما هو، الحوائط المتسخة، الكَنبة المُغتصبة، المكتبة ووراءها الأرقام، وصوت الهواء يصرخ في النافذة المفتوحة كامرأة فقدت ثديها الأيسر للتو، نَظَرت خَلفي لأُتابع مَايا فوَجدتها على الكنبة نائمة وأطرافها الستّة مُرتخية بجانبها! لَعَن الله الشّعْر الأحمر وطِلاء الأظافر اللّبني حين

يجتمعان مع ذلك الصدر! اتّجهت إلى النافذة لأغلقها، أتحرك ببطء كأني في قاع بحر، كأنني فيل أزرق، وصلت للنافذة بعد رُبع ساعة وألقيت نظرة، مياه النهر العتيق كانت تنساب ببطء الزيت، يشقّها صَندل صَدئ يَحمِل على ظهره شُحنة قَصَب، يُصدِر مُحرّكه زَمجرة رَتيبة أزعجت الغِربان ففرّت إلى الضَّباب الذي افترش أرض جزيرة الدهب، أمسكت المقبض لأغلق النافذة حين أوقفني حفيف الخطوات، ببطئي اللاإرادي استدرت فرأيتها قرب باب الغرفة.. بسمة.. رحمها الله!

لعن الله «مايا» إلهة الكيمياء!

لم أكن لأخطئها رغم علاقتي بها القائمة على صور الجريمة فقط، عارية كما ولدت، كما تريدها أن تبقى وتدوم! مُتناسقة كماسة في خاتم، جذابة كإلهة رومانية منحوتة في رُخام، حتّى جروح الغِل البنفسجية التي قرأتها في تقرير الطب الشرعي لم تزدها إلا فِتنة، يبدو أن ساديتي دخلت في طور المرض! المفاجأة أنها لا تُشبه «Eva Green»، بل أجمل، لوْمي لشريف على تصويرها يُعدّ هَرطقة وتجديفًا، لو امتلكت كاميرا الآن لقتلَتها فلاشاتي حرقًا، اقتربت، عَيناها ذاهلتان وكُحلهما سَائل على وجنتيها في يأس، ملامح الألم تتجوّل في وجهها، ونَهر دموي رفيع ينساب من بين فخذيها في نبضات تخضب خطواتها على الأرض، ونهر آخر يخرج من مفرق شعرها إلى جبهتها، احتضنت أسفل بطنها ألمًا وكادت تهوي فلم أتمالك نفسي، ركضت إليها

فلم تتحرك قدماي، عمودا خرسانة دُقّا في الأرض، تَمالكت نَفسها وشَفتاها تَرتَعشان في وَهَن، حاولت أن أناديها، ازدحمت الكلمات في حلقي فأغلقته، وازداد الشلل وطأة حتّى نسيت أن أتنفس! اقتربت، لامس شعرها المتطاير رُسغي وهي تمُر، تلاقت عينانا للحظة، لحظة فريدة جمعت الجمال والألم، لا أعرف هل رأيت استجداء أم ابتسامة مكسورة! عند النافذة لَطم الهَواء شَعرها الغَجري فتبعثر على صَدرها وكشف عن كتفيها البديعين؛ قبل أن تصعد فوق إطار الشبّاك الذي انغرس في فخذها، نبضات قلبي ازدادت اضطرابًا لما أصبح ظهرها للهواء وساقاها في الغرفة قبل أن تتّزن وتَسكُن، الدَّم نَبيذ أحمر ينسال من بين فخذيها على الحائط في فيضان ضعيف لا يتوقّف، ناديتها ولا أتذكر بماذا ناديت! ولا أتذكر أني حتّى سمعت صوتي يخرج، نظرت خلفي أستجدي مايا أو ألفت انتباهها فوجدته واقفًا خلفي! شريف!! هيئته كما رأيته في صورة المِرآة، ذاهلًا شاحبًا، صدره عارٍ والقميص في يده، يَده الخالية من الوشم!! لا أثر للرسم على ذراعه التي اعتصرت القميص بغِل كأنه سيهرب! اقترب منها وابتَسمت له! نَظَر لها بحنان وحزن وحواجب مُشفقة، الغرفة ازدادت وسعًا كملعب كرة بلا مُدرجات! يجب أن أفيق، أن أستيقظ، لا أستطيع أن أراه وهو يلقيها.. هل قلت يلقيها؟ كلما اقترب شريف منها صارت الغرفة أكثر زرقة.. أزرق دم غزال.. وصَارت ملامحه أكثر صرامة وتصميمًا.. قدماي تنهاران من تحتي.. بسمة تنظر إليّ.. تستغيث.. قالت كلمة لم أسمعها..

كرَّرتها فقرأت شفتيها.. أكاد أجزم أنها قالت اهرب.. تأمرني.. في تلك اللحظة لامسها شريف.. بات بين ساقيها.. تركتني ونظرت في وجهه.. قبّلها فانصهرت بين يديه.. ثم انصهرا في عينيّ.. لم أعد قادرًا على المقاومة! فقط ترنّحت كمكواة وسقطت..

بجانب قدم فيل أزرق..

الفيل هو أكبر حيوان بَرِّي يدبّ على الأرض، نباتي؛ يتغذّى على الجذور والأعشاب والفواكه، يمكن للفيل البالغ أن يستهلك ما يصل إلى ١٣٦ كيلوجرامًا من الغذاء في يوم واحد، هذا الحيوان لا ينام كثيرًا، من الجوع، يتجول لمسافات كبيرة تطلعًا لغذاء يَكفي جسمه الضخم، أنثى الفيل لديها أطول فترة حمل، تصل إلى اثنين وعشرين شهرًا، خطم الفيل الطويل يُستخدم للتنفس، الصراخ، والشرب، ويحتوي وحده على حوالي مائة ألف عضلة مختلفة..

لمّا استيقظت كنت مُستلقيًا على أرض الصالة، يشوّك شعر السجّادة جِلد ظهري، اتخذ الأمر منّي ثواني حتّى أغلقت فمي المَنسي واستدعيت ريقًا أبلعه ليرطب حلقي المتشقّق، سَحبت ذراعي الراقد تحتي ونفضت النمل الذي نهشه من الداخل وجلست، بحثت بعينيّ عن ساعة الحائط فوجدتها نافقة، كففت عن تغيير البطاريات منذ زمن حتى تعفّنت العقارب، قُمت أبحث عن شيء أرتديه فوجدت البوكسر يتسكّع على بعد أمتار، ناديت

مايا، لا زال الأثاث ينبض بخفوت، لم يمُت بعد، لعن الله قرص الفيل الأزرق الذي ابتلعته، قلت لها إني لا أحب الكيمياء! اللون الأزرق أصبح خفيفًا وانسحب البنفسجي، مايــااا!، زُجاجة الـ«Absinthe» باق فيها الربع، أغلقتها حِرصًا وتقديرًا، والتقطت حَمّالة الصدر التي أحسدها على وظيفتها الإنسانية، وجدت في كفّتها اليسرى بقايا قِرش الحشيش فدسسته في البوكسر! مايا لا تعرف أبيها حين يتعلّق الأمر بالحشيش!

ـ مايــاااا..!!

دلفت إلى المطبخ أبحث عنها حين التقطت صَوت دُش الحمّام، مَايا تغسل خطايا البشرية جمعاء، صَنعت لنفسي كوب قهوة «دوبل» واستقررت فوق مِنضدة المطبخ أنتظر صفارة الغليان حين داهمني وجه بسمة، على بُعد سنتيمترات من وجهي تصرخ:

اهرب..

سَرَى في جسدي تيار كهربي فسقطت من فوق المنضدة! قبل أن أصل للأرض تداركت الحلم فجأة، كان مَنسيًّا في ركن من أركان عقلي، لقد رأيتها، رأيتها ولمستني! ورأيت شريف، أغمضت عينيّ مُحاولًا الحفاظ على بقايا الرؤية التي شاهدتها، كتمت أنفاسي وغطيت أذنيّ بيديّ حتى لا تهرب التفاصيل، استجمعت المشهد كاملًا في لحظة:

اهرب..

لِمَ نصحو دائمًا قبل النهاية؟! قبل سقوطنا من سلّم وقبل حريقنا في فرن.. وقبل أن يمزقنا وحش..

وقبل أن تموت «بسمة»!

هل ألقاها؟ أم ألقت نفسها؟ فتحت عينيّ لمّا ظهرت كلمة النهاية في جفوني، اختفى اللون الأزرق وكفّت الحوائط عن النبض!

لم أعد في المطبخ!!

أنا مُستلقٍ على كنبة الصالة، وبجانبي مايا توليني ظهرها الموشوم، متى رسمته؟ وجه «جَدي» كبير مُشعر مُتقن الرّسم، قُرونه طويلة تصل حتى كتفيها، جدي!! اللعنة على ذوقها، عَقرب سَاعة الحَائط يَسير بشكل جيّد! عَكس اتجاهه!! والكلب الأسود رابض أمامي يحرس مدخل الغرفة، يَرمقني بمحجريه الدمويين وصاحبه من ورائه، صاحبه الذي زارني منذ أيام، غارقًا في ظلام الغرفة لم أتبيّن ملامحه، فقط أعرف أنه ينظر لي، يتخللني، ينهشني، نظرت لمايا فرأيت الجدي الموشوم يتنفس على ظهرها فلم أشأ أن أزعجه، حاولت القيام فتأهّب الكلب، غرَز براثنه في عشب الصالة الأخضر وزمجر، نظرت لصاحبه فلمحت ابتسامة..

ابتسامة سخرية..

كان ذلك حين فتحت عينيّ..

صباحًا!

فوق الكنبة كنت مُلقى بإهمال، قاتلت لفتح عينيّ في ضوء الشمس المُبالغ الذي غمر الشقّة، الشمس!! كائن أصفر مزعج ليس له دَاعٍ ولن يفوتك! رمقت ساعة يدي فوجدت عقربها يسير بشكلٍ صحيح، العاشرة والربع، السجادة كما هي وليست خضراء، اختفت الأبواب، وزجاجة الـ«Absinthe» باق فيها ربعها، أين مايا؟ قُمت إلى غرفتي وفتحت بابها، فوضَتي المُعتادة كانت سَائدة مطمئنة، مااااايـا! ليست في الحمام، ترنّحت إلى المطبخ، مايـاااا! لا شيء، حتّى في الحديقة المَنسية الجَرداء لم تكن تَحتسي قَهوتها، اللعنة، بالطبع ذهبت لشركة النصب التي تعمل بها، رجعت للصالة ووقفت أتأمّل الكنبة، مايا ذهبت لعملها وتركت حشيشها، زجاجتها، حمّالة صدرها «المحظوظة» ولباسها الأرجواني المقدّس! مُحال!! أمسكت تليفوني وضربت اسمها فلم أسمع نغمتها!! مايـاااا! دُرت في الشقّة مرّتين قبل أن أخرج للشارع، وقفت «عبيطًا» لا أعرف أين أذهب، أجول بعينيّ بحثًا يمينًا ويسارًا، وعند أقرب كُشك، قبل أن أنتبه لجارتي المُسنّة التي وقفت ترمقني؛ مدام كوثر، تكرهني تلك السيدة منذ ماتت زوجتي، كانت صديقتها وأمًّا ثانية لها، وبالطبع حكت لها عنّي وكيف كانت الحياة «مثالية» بيننا، فكيف حين تراني واقفًا بالبوكسر في عرض الشارع!

المحبّة كلها..

ـ صباح الفل يا مدام كوثر...

حرقتني بنظراتها وانسحبت للداخل.. فلتذهبي للجحيم على حسابي..

أين مايا؟

لا بد للأقراص اللعينة التي بذرتها فوق لِسَانينا أن تكون لها يَد في اختفائها! هذا بخلاف الـ«Absinthe»، كوكتيل الجنون، ربما قررت مايا أن تتمشى على الكورنيش بتلك «الدماغ»، اللعنة! ما نوع ذلك القرص؟ قرص الفيل الذي فتح لي ثلاثة أبواب لم أتفقد منها إلا واحدًا، لكنه باب بألف باب! قلّبت حقيبة مَايا حتّى عثرت على العلبة، كانت فارغة لا أفيال فيها، أحتاج قهوة، لا، بيرة مثلجة، اتجهت للمطبخ ورفعت زجاجة نسيت أن أضيفها لهرم الزجاجات، يُطاردني هاجس أن المجنونة قد تكون ركبت ميكروباص إلى دار السلام! لا أستطيع تخيّل ذلك الكابوس، غَسَلت أفكاري ووجهي في حوض الحمّام حين لاحظت الدماء في يدي، نثرات خفيفة حول قبضتي وقرب رُسغي، دماء جافة مرّ عليها ساعات بجانب ورم خفيف في منتصف البنصر!! غَسَلت يَدِي بالقلق والتوتّر قبل أن أرتدي ملابسي لأبحث عنها، في الطُّرقة أوقفني باب الغرفة، غرفة ابنتي نور، بابها الذي لم يُفتح منذ ماتت، كان مواربًا! فتحته، الظلام كان مُسيطرًا رغم النهار، سَتائر

الغُرفة القُرمزية ضربتها الشَّمس فسكبت نبيذها على الدولاب والسرير وصوَر ابنتي التي غطّت الجدران، كُلّ شيء في مكانه كما هو منذ خَمس سنين، لعبها، دولابها الوردي، وبيجامتها المفضّلة، فقط تفصيلة واحدة كانت غريبة على الغرفة، مايا! كانت راقدة متكوّمة في مُنتصف الغُرفة، تَضُمّ سَاقيها إلى صَدرها وجَبهتها مَدفونة بين ركبتيها، ذراعاها مُرتخيتان بجانبها وشعرها مسجى فوقها ناموسية تُخفي مَلامحها، تهزّ جسدها إلى الأمام وللوراء في رتَابة أسطوانة مَشروخة..

ـ مايا!!

توقّفت عن الاهتزاز وإن لم تجب، اقتربت منها وجثوت على ركبتيّ، ما إن لامست كتفها حتى صَرخت مُمزِّقة طبلة أذني قبل أن تنتفض واقفة وتنظر لموضع لَمسَتي كأني الطاعون ذاته..

مايا لم تكن على ما يرام..

لم تكن مايا التي أعرفها إذا صحّ التعبير..

عينان حَمراوان مُحتقنتان، أنف ينزِف، وكسر في منتصف رسغها الأيسر جعله ليّنًا كالعجين مُتدليًا تكاد أنامله تلامس الكوع لو رفعت يدها..

ـ مايا!! إيه اللي...؟!!

لم أُكمل جُملتي، تراجعَت المِسكينة هلعًا حتّى اصطدمت

بالحائط، رُعبها منّي فاق إحساس ألمها الجسدي، اقتربت منها محاولًا احتواءها..

ـ مايا.. فهميني إيه اللي...

ـ كلب..

ـ ليه؟ مايا!!

ـ كلب..

لامست ذراعها السليمة أقرّبها منّي، وكأنني الكهرباء ذاتها صَرَخَتْ ألمًا، نظرت في وجهي للحظة، لحظة شعرتها ساعة، عيناها كانتا تحملان كلمات أوشَكْت على قراءتها قبل أن تدفعني فتعثّرت في السجادة ووقَعت، خَرَجَت من الغرفة رَكضًا وأغلقت الباب وراءها بالمفتاح، تَمالكت نَفسي وقُمت، شددت الباب جَذبًا لثلاث دقائق حتّى انخلع المقبض فالتفتّ للنافذة، نَزَعت العوارض الخشبية التي أغلقت بها الشيش منذ خمس سنوات، انفتحت بفرقعة شديدة بعد تيبّس قبل أن أتدلدل على العُشب، مَسحت الحديقة الجرداء فلم أجدها، ركضت يمينًا ويسارًا على الرصيف ولا أثر لها، ثوانٍ ولاحظت زحام الناس يتكتل حول نقطة على بُعد ثلاثمائة متر..

طاووس، قرد، أسد ثم خنزير..

طبقًا لكتاب «حَلْب الكَميت»، المَرجع الأقدم في الخمور، جاءت تلك الفقرة وصفًا لمراحل الشُّرب:

بعد أول كأس ستنتشي وتزدهر ألوانك كالطاووس.. مع الكأس الثانية كالقرد سيجتاحك اللعب والتصفيق والرقص.. بعد الثالثة ستُعربِد وتعبث في المكان حولك «أسدًا» لا مُكافئ لك، قبل أن تتفوّه بما لا فائدة منه.. وبعد الكأس الرابعة ستنطفئ كالخنزير السَّمين.. سترقد مكانك مفكوك القُوى تَطلب النوم فيدهسك دهسًا كما دُهست.. مايا..

لم يكن لكتاب من الكتب أن يتكلّم عن المرحلة الخامسة..

مرحلتي أنا..

فقدت مايا ذلك الصباح..

فقدتها كما فقدت زوجتي وابنتي.. ونفسي.. بسهولة شديدة جدًّا لمن لا يعرف..

اللحظة التي سحقتها فيها السيارة حُفرت بسكّين سَاخن على تعاريج مخّي بجانب النُّصب التذكاري لزوجتي وابنتي..

لن أحكي عن دمائها التي تمشّت بجانب الرصيف قبل أن تتجلّط قُرب قدميّ..

لن أحكي عن شعرها المبعثر ولا عن فستانها الذي طيّره الهواء فتعرّت..

لن أحكي عن الشاب الذي وقف ينظر لجثتها باشتهاء حتى وجدوا لها جريدة تُداريها، ولا عن وجهها الذي طبع مَلامحها بالدِّماء على الجريدة..

لن أحكي عن رائحتها التي لم تغادر صدري بعد.. ولا عن إنكاري معرفتي بها لما سألوا عنها الواقفين..

لكني قد أحكي عن خذلاني لها كما خذلتُ كل من حولي من قبل..

ولا زلت..

ساعتان قضيتهما أتابع من بين المارة الجَسَد المُسجى على الأرض حتى أنهت الشرطة عملها وحملتها سيارة إسعاف إلى المشرحة، ما هي إلا ساعات ويَعبثون بجسدها ليفكّوا شفرتها، كَسر رُسغها الحديث في الأغلب سيضمونه لكسور الحادث، ونزيف أنفها لا شيء بجانب ما نزفته على الأسفلت، سَيعثرون

على بصماتي ولعابي ولن يجدوا لها مرجعًا، أمّا حيواناتي، فآمنة لم تتجول مرّة في جنّة مايا، لم تكن تحب الأطفال لكنها دائمًا ما كانت تقول إنها تتمنّى طفلًا يَحمل مَلامحي..

كم أنا حقير أن يمتد تفكيري لذلك وجسدها لم يبرد بعد!! لكني اعتدت منذ زمن قسوة خواطري.. حادة متحجِّرة لا مشاعر فيها.. أستطيع القول بأني لم أعد أشعر بذنب.. تجمّدت.. باتت الأحداث سيان عندي.. حسناتي كسيئاتي.. طبيخ مسلوق بلا ملح.. حتّى عيناي نسيتا البكاء.. ما الذي يحملني على الاستغراب ودَين البُكاء على ابنتي وزوجتي لم أسدّده حتى الآن؟!

بعد ثلاث ساعات دُرت فيها كالتائه أمسح الشوارع، وجدتني في بلكونة عوني أستنشق دخاني وأحتسي نفسي، مذاقي مُخمّر متعفن ككأس نبيذ مغشوش، وألف فِكرة في رأسي تزاحمت على باب ضيّق لتخرج منه قبل أن تموت معظمها من التدافُع، أغمضت عينيّ علّي أفيق فأجد مايا بجانبي، لعل مفعول القرص ما زال مُمتدًا، لعل الحلم كابوس وسيأتيني الفيل الأزرق طائِرًا بجناحين، أمسكت بسيجارتي وفتحت راحة يدي قبل أن أدفن النار فيها، انتفضت حرقًا لمّا تأكّدت أنّي لا أحلم، لقد ماتت مايا يا يحيى، صدّق، ماتت أم قتلتها؟ سؤال لا إجابة له عندي، اللعنة، لِم لا أذكر ما حدث!! فقط يُداهمني مَنظر الدماء على يدي وأنا واقف في الحمّام فأنقبض، هَل لقُرص أن يكون له مثل هذا المفعول؟ أقتلها بدون أن أُدرك! أم أنها زجاجة الـ«Absinthe»؟

ربما الاثنان معًا؟ هل تعرّض شريف لمثل هذه المؤامرة على نفسه؟ قاطعت «نيجوزي» الخادمة قيئي النفسي لمّا نقرت كتفي، سألتني بإنجليزية إفريقية إذا كنت على ما يرام فقد سمعتني أصرخ، شكرتها بهزّة رأس فنظرت لكفّي التي أعتصرها بيدي، التقطتها وأزاحت أصابعي فلمحت الحرق..

ـ نيجوزي.. أنا كويس..

نظرت في عينيّ مُدققة قبل أن تتبدل ملامحها إلى أسًى وقلق..

ـ «Come please»..

سحبتني من يدي كخروف لقيط وتركتُ نفسي، دخلنا المطبخ فأغلقت الباب وراءنا، أقعدتني على كرسي عالٍ وأخرجت مُطهّرًا وقُطنًا كَبسته على يَدي قبل أن تنظر في عينيّ..

ـ «There is something.. not good»..

ـ أنا كويس يا نيجوزي.. صديق عزيز مات النهاردة..

ثم تذكّرت أنها لا تجيد العربية فترجمت بالإنجليزية ولم تسمع ترجمتي..

ـ «Please wait»..

ضغطتْ على الحرق وهي تتأمّل وَجهي بتركيز شديد قبل أن تنزع شعرة من رأسي!

ـ أي.. إيه يا ست ده؟!

اللعينة ستَسحرني ضِفدعًا!!

دفنت الشعرة في كفّها وأغمضت عينيها ثم رتّلت شيئًا ما بلُغتها قبل أن تفتح عينيها وتردف:

– «You had been touched.. Something no good.. It's a warning.. Only a warning»..

لم أكن لأتحمّل هذا الهراء، نظرت لها ممتنًّا قبل أن أقوم، أمسكتْ برُسغي تستبقيني، فتحت راحتي اليُسرى تُعاين الخطوط الغائرة ثم أمسكت بالخنصر والإبهام واعتصرت اليَد عَكسيًّا حتّى لامَسَت حُدود الألم وأصبحت الخطوط واضحة جليّة، دَقّقت في الخط الأخير الخارج من الكف إلى اليمين ثم نظرت في عينيّ..

ـ «Can you give me 50 pound?»

ـ يا نهارك أسود.. والله أنا ما ناقصك..

أخرجت من جيبي عشرين جنيهًا لأجل خاطر عوني وناولتها حين أصرّت:

ـ «50 pound»..

أخرجتهم من جيبي ودسستهم في كفّها محاولًا كتم غيظي..

ـ يا سِتّي ما حدّش قالك اقري الكف ولا عزّمي.. أنا مش ناقصك.. قلت لك كويّس..

تركتها وخرجت ألعن البيت وأصحابه، تبعتني نيجوزي ترطن بشيء لم أدركه وعند الباب استوقفني عوني.

ـ مالك يا «Man» مش في المود! فيه حاجة؟ أنت مروّح؟

حَدجت نيجوزي بشرر..

ـ مروّح.. تعبان شوية.

لمح عوني نيجوزي التي تراقبنا..

ـ البت دي زعّلتك؟

ـ الوليّة دي مجنونة.

ـ عملت إيه؟

ـ قرِت لي الكف وبخرتني من غير ما أقولها وطلبت خمسين جنيه..

ـ «Bitch!! Sorry ya Man» هاجيبهم لك منها، دي أوّل مرة تطلب فلوس، هاكلّم المكتب بتاعها بكرة...

ـ بس بس بس سيبها خلاص ما تكبرش الموضوع.. همّا في إفريقيا عايشين على الشغل ده.. أنا مسامح..

ـ وقالت لك إيه بقه؟

ـ أنت مش عارف إيه.. وخد بالك وبتاع.. وآخر إنذار.. كلام في الحمام..

ـ يا دكتور يعني تشتغل ترابيزة باللي عليها وتيجي بتّ من رواندا تشتغلك!!

ـ اللي حصل..

ـ مش هتلعب النهاردة؟

ـ مش في المود..

أخرج من جيبه قطعة حشيش صغيرة تكفي ليلة..

ـ طَب خُد دي.. «Cadeau» منِّي.. بَدل نَصْب..

ـ مش النهاردة يا عوني.. مش النهاردة..

رحلت وسط استنكاره وشجبه ومُعارضته التَّامة لرَفضي الحَشيش.

أوّل مرة أرفض فيها نبتتي المقدّسة! كنت أحتاج لذهن خالٍ من أي تدخلات أجنبية..

تمشّيت حتّى البيت، عند البقعة التي تركتها مايا على الأسفلت توقّفت أتأمل ولم يطل وقوفي، انهارت ركبتاي فقعدت على الرصيف أنزف الصمت حتّى تقيّأت، اللعنة عليّ، وعلى كل من حولي واجبة، وعلى لمستي السحرية التي تذهب بهم للجانب الآخر، الجانب الذي لن أكون فيه حين أموت،

أكاد أشعر بهُبوط السُّكر يحاصرني، يبتلعني، في لحظة بلّل العَرَق جِلدي وبدأ نَفَسي يتهدّج، قُمت إلى البيت والنبضات تطرق أعلى صدري ببطء، أخرجت جهاز قياس السكّر الذي لم أستعمله منذ زمن، ثقبت إبهامي ووضعت قطرة على طرف مسطرته، ٥٠ جاءت القراءة، رَسميًّا سأسقط ميتًا بعد دَقيقة من الآن، أو أنني بدأت بالفعل، تساندت إلى الحوائط حتى المطبخ وفتحت الثلاجة، لا شيء فيها سوى جبنة وترمس وخيارتين تالفتين، لَعن الله مزّات الخمر ولعن الوحدة، بدأت عيناي تخبوان وأنفاسي تتسلق الجبال، لامستْ رُكبتاي الأرض لا إراديًّا، تمشيت عليهما حتّى علبة السكّر فوق الرخام، كانت على بعد ساعة من مكاني، وصلت فمددت يدًا صفراء باهتة ترتجف، بالكاد التقطت العلبة، كانت تزن مائة كيلوجرام، رفعتها بصعوبة قبل أن نسقط سويًّا على الأرض، بما تبقى لي من شحن في بطاريتي فتحت غطاء بثقل غطاء بلاعة، دار فرأيت السكّر، رفعته فوق فمي وحشوت، كان ذلك قبل أن يهبط سقف المطبخ تدريجيًّا ويمتلئ نجومًا صغيرة..

لم ينتزعني سوى جرس المحمول، لم أمُت بعد، مَددت يدي إلى جيبي وميّزت بالكاد ساعة الشاشة، كانت تشير لنصف ساعة من الغرق بعيدًا عن السكر، الجرس لم يكن منبعثًا من تليفوني، كان آتيًا من تليفون شريف، أخرجته من جيبي ونظرت للشاشة التي لَمْ تُظهر الرقم..

ـ ألـو..

ـ عامل إيه دلوقتي؟

نفضت السكّر الذي امتزج بالعرق على وجهي قبل أن أجلس محاولًا استيعاب الصوت..

ـ أنت بتتكلم منين؟

ـ فاكر آخر حاجة قلتها لك؟

اجتررت سَريعًا آخر كلماته في المكالمة السابقة..

ـ قلت مش صعب أقنعك!

ـ ذاكرتك ممتازة.. واقتنعت؟

ـ بإيه بالظبط؟

ـ إني مش شريف..

ـ مين اللي ادّاك تليفون؟

ـ مين اللي قتل مايا يا يحيى؟

سَاد الصمت لدقيقة لَزجة ابتلعت فيها لساني وانتفضتْ خلايا جَسدي، قُمت أفرُك وَجهي وأبحث عن شيء أستنِد عليه حين كُسر السكون بأداة حادة..

ـ الإنسان ده غريب.. إزّاي هان عليك تسيبها تخرج بالمنظر ده؟

- أنا ما لمستهاش..

- متأكّد؟

- متأكّد!

- الصور اللي في تليفونها بتقول حاجة غير كده..

مَجنونًا خرجت للصالة أبحث في متعلقاتها عن تليفونها.. اللعنة.. أين اختفى!!

- صور إيه يا شريف؟

قاطعني:

- تاني شريف!

صرخت فيه:

- تحب أنده أمّك إيه؟

- ما تفقدش أعصابك.. أنت محتاج لها.. قول لي.. مايا ولا لبنى؟

أفرغت حقيبتها على الأرض.. كراكيب لا حصر لها ولا أثر للتليفون..

- مايا ولا لبنى إيه؟

- أطعم..

انحنيت تحت الكنبة أبحث.. لا أثر..

ـ لو فيك جرأة قول الكلام ده قدّامي لما أشوفك.

ـ مِتهيّأ لي دلوقت هتفوق للُبنى.

دخلت الغرفة أبحث عن التليفون.. لا أثر له..

ـ زي ما أنت قتلت بسمة عشان واحدة تانية؟ صح؟

ـ لسّه بتخلط ما بيني وبين صاحبك.

ـ شريف ما يقتلش.

ـ كل اللي قتلوا كان بيتقال عليهم كده.

ـ أنت اللي أجبرته.

ـ للأسف دايمًا أنا كبش الفدا لكل نزوة.

أخيرًا عثرت على التليفون في أرض الحمّام..

ـ أنا جاي لك دلوقت.

ـ تيجي ليه.. أنا معاك في الشقّة.

انقطع الخط وركضَت ضربات قلبي، كَما شُلّ عقلي عن التفكير، التففت حول نفسي كضرير فقد عصاه، اللعين يُلاعبني! تعرّقت في لَحظة فرَجعت بظهري للحَائط أفتح فمي كي يتسع مجال أذنيّ في التقاط أي صوت، نافذة الحمّام خلفي كانت تطل على أغصان الشجرة التي تتوسط الحديقة، استللت عَصاة

الممسحة وخرجت ببطء أمسح الشقّة، لم أترك حتى الدواليب وأسفل السرير، لا شيء، كان ذلك قبل أن أسمع الخطوات، وقعها خافت مُنتظم آت من السقف، لا شيء يدعو للقلق سوى أن الشقة من فوقي لا يسكنها أحد! أخذت الخطوات تقترب حتّى باتت فوقي، دقيقة من الصمت قبل أن أسمع خبطة عالية كأنها فيل تَعثّر وما يلبث أن ينزل مع السقف فوق رأسي ثم سَاد صَمْت مُطبق، فقط ضربات قلبي تهزّني وصوت نَفَسي يُصَفّر في صَدري، لحظات ووقعت خبطة ثانية أعنف من الأولى، زَلزَلت النَّجفة المَريضة فاصطكّت كريستالاتها، لم أعُد أستطيع الانتظار، رَكضت سَريًعا إلى باب الشقّة وخرجت أنظر إلى شبابيك شقّة الدور الأوّل، كانَت مُظلمة، ناديت البواب فلم يجبني، التقطت حجرًا صغيرًا وألقيته على النافذة فانكسرت بصوت مدوٍّ، ثوانٍ وأضيء النور، قبل أن يقترب ظل من النافذة، ظِل لرأس أكبر من حَجمه الطبيعي، بمرتين، ثم امتدت يدان وفتحتا الشباك..

ـ إيه دِه؟ يا باشا!! شفتش حد حَدَف حاجة؟

ذلك كان عوض البواب، ورأسه الملتحف بالعمامة الصعيدية الكبيرة..

ـ لا يا عوض...

ـ يا ولاد الكاااالب.. لِسّاتهم أمبارح كاسرين إزاز عربية مدام كوثر...

لو تركته للحظة يتأمّلني بممسحة الحمام والبوكسر لأدرك أني قد اختللت نفسيًا وأني بالتأكيد من ألقى الطوبة فباغتّه مقاطعًا:

ـ هو فيه حد هيسكن الشقّة؟

ـ الجماعة جايين من الكويت أوّل الشهر إن شاء الله..

رجعت شقّتي وأغلقت الباب، اللعين زاولني ونجح، التقطت تليفون مايا وفتحته، بملف الصور كان هناك أكثر من عشرين صورة أجبرتني أن أراها بوضوح أكبر، أخرجت شريحة الذاكرة بأصابع مرتعشة من بقايا الهبوط وفتحت الصور على الكمبيوتر العتيق أستوضح التفاصيل، الألبوم يُشبه مجموعة صور شريف وزوجته التي عثرت عليها في كاميرا تليفونه، صور لا أتذكّر أني التقطتها؛ مايا وهي نائمة، غارقة بين عبق الـ«Absinthe» وأقدام الفيل الأزرق، كل تفصيلة أحببتها موجودة، لم تغفل الصور واحدة، حتّى أصابع قدميها المنمّقة، تلتها مجموعة قاسية تُسجّل ملامح وجه يتألّم وعينين جاحظتين تستجديان النجاة، ويدي تأخذ صورة تذكارية فوق عُنقها! نعم يدي! تلك الصور كانت في غرفة ابنتي! مع آخر صورة شممت رائحة حريق تصاعدت من قدمي إلى رئتي قبل أن تصنع بقعة داكنة في السقف من فوقي..

مبروك.. لقد قتلت مايا!!!

تنافست الديدان في التهام رأسي من الداخل، انتابني صُداع شديد أطلق النبض في مؤخرة رأسي، لم أدر بنفسي إلا وأنا

أتعامل، أتعامل كما يتعامل أي قاتل مأجور يُكوّن نفسه ليتزوّج ويُنجِب، جَمَعت أغراض مايا في كيس كبير، مَلابسها وحقيبتها بمحتوياتها وحذائها والقبلات التي تركتها على رقبتي، لم أستبقِ سوى صور تليفونها على الكمبيوتر في ملفّ مَخفي، صُورنا التذكارية الأخيرة، ثم وضعت الكيس في البانيو..

عزيزتي مايا.. أرجوكِ لا تغفري لي!

شربت نِصف زجاجة بيرة وأفرغت النصف الآخر على الكيس ثم أشعلت النار، دقائق وصارت ذكرياتها رمادًا ودُخانًا خانقًا، اتصلت بالمستشفى أسأل عن شريف، لم يغادر اللعين سريره!!

كيف عَرف بأمر مايا؟

سقطت منّي ثلث ساعة قبل أن أجد نفسي في تاكسي، طريق المُستشفى كان مُزدحمًا، أحرقت عشر سجائر وجزءًا من الكنبة التي أجلس عليها قبل أن أصل، حين أصبحت أمام باب الغرفة كان أمين الشرطة المُكلّف بحراسة شريف مُلقى على كُرسيه البلاستيكي يضع راديو «ترانزيستور» على أذنه، أبرزت له كارنيه المستشفى ثم نظرت في عينيه وسألته بهدوء:

ـ إزّاي تخلي حدًّ يخش للمتهم بالتليفون؟

تكنيك سريع لكشف الكذب، تُباغت فيه الخصم بسؤال مُحرج لن يجد جسده مفرًّا من إرسال إشارة كذب بشأنه..

ـ نعم!!!

إجابته كانت تكفيني.. لغة جسد الرجل صادقة.. تركته غارقًا في استنكاره ودخلت.. شريف كان مُكبّلًا من قدمه كما تركته.. مستيقظًا شاخصًا ببصره للحائط قبل أن يلتف لي ويبتسم.. أغلقت الباب واتجهت لسريره:

ـ فين التليفون اللي معاك؟

لم أنتظر إجابة، فتّشت الغرفة وكدت أخلع الأرضية ودهان الحيطان قبل أن أزيح شريف من فوق السرير..

انزل.. انزل...

لم أتمالك أعصابي وهو يرميني بابتسامته الباردة، بغلظة قبضت على عضده وأنزلته على الأرض، لم أستطع إقصاءه إلى ركن بعيد بسبب قدمه المكبّلة بالسرير، نفضت المرتبة والمخدّة، لا شيء، انقضضت عليه أفتّش ملابسه، بعثرته وكدت أنبش الشاش الملفوف حول جرح فخذه، تراخى واستسلم حتّى انتهيت بلا شيء، أخرجت تليفون شريف من جيبي!

ها أنا بدأت أتكلم عن شريف كأنه غائب!

شخص آخر غير شريف الجاثم على الأرض تحت قدميّ!!

على طريقة برايل ضغطت على قائمة المكالمات وتلمّست ضريرًا آخِر رقم اتصل بي، ضغطت زر «Call» الأخضر وانتظرت،

ثوانٍ وسمعت جرسًا، نغمة أعرفها، نغمة تليفوني!!! أخرجته من جيبي ونظرت في شاشته، كانت تنبض برقم مجهول!

ألو، ألو..

لم أسمع سوى صوتي في سماعة التليفون والصَّدى الآتي من حيطان الغُرفة، أغلقت الخط وأغمضت عينيّ للحظات مُحاولًا الاتزان، لم أملك غير جَذبه من يَاقته وإلصاقه بالأرض قَبل أن أجثم فوقه وأنظر في عينيه بحثًا عن الشخص القائم بأعمال تلك اللحظة، هل هو شريف؟ أم صديقه المزعوم نائل؟ لم يُبد مُقاومة تذكر، رمقني بثبات انفعالي يُحسد عليه..

ـ كلّمتني من تليفون مين؟

الصمت والسخرية على جانبي شفتيه عرّفاني مَن أكلّم..

ـ رُد.. عرفت منين؟ مايا؟

ـ المُراقبة بتخلّي الوقت يمر أسرع.

ـ إيه المتعة إنّك تلاعبني؟ أنا الوحيد اللي بيحاول يساعدك هنا!!

ـ المُتع نسبية.. فيه ناس بتاكُل عناكِب في الصين.

ـ فَهّمني؟

ـ خدمة قصاد خدمة.. الجرح بينزِف.

ملامح وجهه وابتسامته قالتا إن التهديد معه لن يكون مجديًا..

كان عليّ فتح باب التفاوض.. تركته يقوم ويجلس فوق سريره.. مكان جرحه نشع نقاطًا دموية من عنفي معه.. استوى ونظر لفخذه وتلمّسها قبل أن يبتسم..

ـ جرح كبير.. ماكانش المفروض يعدّي.

ـ اتكلّم.

ـ عاوز أعمل معاك جلسة.

ـ جلسة؟

ـ بقالي كتير ما اشتغلتش.. إيدي بتتقل وهانسى الشُّغل.. وحشني دور الـ«Psychiatrist»..

ـ أنا مش فاضي للتهريج.. مين اللي جاب لك التليفون؟

ـ أحكي لك بعد الجلسة..

ـ .... ماشي.

ـ ورقة وقلم؟

أخرجت مفكرتي التي أحملها دائمًا.. انتزعت منها ورقة وناولته قلمي..

ـ استريح.. عاوزك تكون «Relax» على الآخر.. خُد نفس عميق.. فكّر في مكان لطيف تكون بترتاح فيه.. أو حَدّ تكون بتحبّه.. مايا مثلًا..

قالها بقسوة ساخرة.. وباحترافية طبيب نفسي حقيقي.. جلست على الكرسي المقابل للسرير مُحاولًا الحفاظ على أعصابي..

ـ افرد رجلك.. وفُك دراعاتك من فوق صدرك..

بجزّة على أسناني قاربت كسرها صبرت..

ـ الأول قبل ما نتكلم نتفق.. مافيش كدب.. ده مهم عشان الجلسة تمشي صح..

ـ ...

ـ ومافيش سؤال مالوش إجابة.

ـ .... ماشي.

ـ احكي لي..

ـ أحكي عن إيه بالظبط!!

ـ احكي لي عن أسود حاجة فيك..

ـ أنت مجنون!!

ـ فضفض.. خُد راحتك.. صعب؟ طيب.. أسهلها عليك.. إيه شعورك لما شفتها بعد السنين دي؟ لُبنى.

ـ زي شعوري لما شفتك بالظبط.

ـ إيه! عاوز تمارس معايا أنا كمان!!

ـ استغراب.. مُفاجأة..

ـ لسه شايل لشريف رفضه إنه يجوّزك أخته؟

ـ الحوار ده بقى ماسخ.

نظر في وجهي جيدًا ثم ابتسم..

ـ عشان بيلمس عندك حاجة؟

ـ حاجة خلصت.

ـ اتفقنا بلاش كدب.. عارف إنّك لسّه جوّاها؟

ـ أيًّا كان.. مش مهتم.

ـ عارف مين أجمل أنثى؟

ـ ...

ـ الأنثى اللي لسّه ما دوقتهاش.. الأنثى المحرّمة.. سكوتك يعني باتكلم صح..

ـ لُبنى متجوزة يا شريف.. أو أيًّا كان اسمك.

ـ دي بداية تفاوض.

لم أعد أطيق مُحاصرته.. بعثرة أكثر أفكاري تَطرفًا على أرض الغرفة ليست بالشيء اللطيف.. اقتحام قبوي المظلم الذي دفنت فيه لُبنى.. حَيّة.. القبو الذي يحوي أحلامًا ورغبات جاهدت لأخفيها.. ولم أفلح..

ـ أعتقد إن فرصتك جَت.

ـ فرصة إيه؟

ـ فرصة إنّك ترجع للحياة تاني.. يحيى.. إنت بدأت سِكّة الجنون.. شهور وهتيجي المستشفى زيّك زي المرضى بتوعك.. معقول هتسيب نفسك!! خليني أساعدك..

ـ أنت بتخرّف.. ساعد نفسك.

ـ مش مصدّقني!

ـ مش مُهتم.

ـ لو مش مُهتم بنفسك.. اهتم بيها.. لُبنى محتاجة لك.

ـ كفاية تهريج لغاية هنا.

قمت إليه وسَحبت الورقة التي لم يتوقّف لحظة عن الكتابة فيها وهو يتكلم معي.. كوّرتها وألقيتها ووقفت أتأمل بروده اللامتناهي..

ـ سُؤال واحد عاوز إجابته دلوقتي.. كلمتني منين؟

ابتسم ولم يجب..

ـ مين اللي بيراقبني؟

ـ كل واحد بيراقب نفسه.. لو خربشت نفسك كنت هتلاقيني جوة.

ـ إيه؟ جِن؟

ـ خيالك واسع.

ـ مِش خايف على نفسك لو شريف اتعدم تتعدم معاه!!

ـ شريف غِلِط ولازم ياخد جزاءه.. ح ترضاها؟ ترضى إنه يقتل ويطلع بريء؟

ـ مش هيتعدم لو عندكو... أقصد عندك ازدواج.

ـ الازدواج مش مُعترف بيه.

ـ كل حالة ليها استثناء.

ـ لو كلّمت الله هتقول عليّا باصلّي، لكن لو هو كلّمني! تسمّيها ازدواج!!

ـ ربّنا بيكلّمك!!!

ـ طبعًا.. ده السميع البصير.. لا يخفى عليه شيء.

ـ أنت بتخرّف.

ـ مش موضوعنا.. الجلسة جلستك.. خليك «Professional» يا دكتور.. سيب شريف يواجه مصيره اللي مكتوب له قبل ما يتولد.. مش غريبة دي!! إن مصيره يتكتب قبل ما يتولد! مِسكين شريف.

ـ شريف مش هيموت..

ـ شريف قَتل.. ولازم يموت.. دراما الحياة هي اللي بتقول كده..

ـ إذا كان فيه حد هيموت فهو أنت..

التفت حول السرير والتقطت قطبيّ جهاز الصدمات الكهربية بعدما تأكّدت من غلق الباب جيدًا.. نَظر لي بقلق وأنا أسحب الأقطاب وأصكّها.. جزّار يسن سكاكينه.. لم أمهله ليفكّر.. ضَغطت زرّ الشّحن وانقضضت عليه دافنًا الأقطاب في صدره.. غمدتها فانتفض بقوّة وضرب ظهره السرير قبل أن يخمد.. مرَّت ثانيتان حِدادًا.. توقُّف قلبه بدأ يرتسم على ملامحه.. تراخى وسكن كما تسكُن السمكة خارج الماء.. قَتلة أُخرى في أقل من ٢٤ ساعة! رقم قياسي لسفّاح! لبثت ثانية أتأمّله قبل أن أتمالك نفسي وأدفع زر الشحن ثم صَكَكت الأقطاب وغمدتها في صدره..

ـ «Restart»..

انتفض ثانية وتقوّس ظهره قبل أن يفتح عينين أخريين غير اللتين تحدّثتا معي منذ دقائق، أمسك يدي واعتصرها فاقتربت منه.. هَمَس في أذني بحَشرجة مَيّزت منها:

ـ قميص مأمون.. معاك؟

ـ مأمون مين؟ القميص ده إيه قصّته؟

ـ بسمة..

ـ مالها؟

ترقرقت عيناه واختلج صدره..

ـ بسمة ماتت؟

ـ أيوة يا شريف..

نظر لي بعينين غير مُصدّقتين فعاجلته بسؤال خوفًا من ضيق وقت انفصاله عن الصديق الذي يزاحم عقله.. سيستعيد السيطرة في أي وقت..

ـ مالها بسمة؟ احكي لي.. فهّمني أي حاجة؟

ـ أأأ..

حُشرت الحروف في حلقه ففتح فمه حتّى كاد يتقيّأ..

ـ الشقّة.. فـ فـ.. في الـ....

ـ فين؟

أعتقد أن ما قاله كان يقصد به مكان القميص إلا أن لسانه قد خانه، دلدله من بين فكّيه كلِسان ضفدعة تلتقط حشرة طائرة، ثم نطق جُملة طويلة حروفها مبعثرة غير مرتّبة، وبلا ترجمة أسفل ذقنه!! ليست لغة أخرى، هي فقط سَلَطة من الحروف لم أفهم منها شيئًا، نَظر لي بَعدها بعينين صامتتين لا معنى فيهما..

ـ شريف.. مش قادر تتكلم؟

أشار إلى زوره إشارة اختناق.. فتحت قميصه وضغطت زر استدعاء التمريض وأمسكت الورقة والقلم.. دسستهما في يده..

ـ اكتب أي حاجة مش عارف تقولها.. أي حاجة.

أمسك بطنه وتهدّج نَفَسه بشدّة وبوهن شديد رسَم مرحاضًا..

ـ إيه.. عاوز تخش الحمام؟.. ماشي بس كمِّل.. ركّز يا شريف الله يبارك لك.

دخلت الممرضات في اللحظة التي أفرغ فيها مَعدته، على صدري ولم يَبخَل! لَيتني استجبت لرسمة المرحاض! لم يكن قد أكل شيئًا غير الجلوكوز، لكنه صبغ قميصي برائحة كالقبر، كان ذلك قبل أن تُنزع بَطاريته ويَغرق في إغماءة، انسحبت تاركًا طبيبًا وممرضين يفحصانه حين لمحت على الأرض الورقة التي كان يخط فيها بالقلم أثناء حواره معي.. فتحتها فوجدت فيها رسمًا.. رسمًا دقيقًا لجسد أنثى عارية شعرها طويل! بلا وجه!! رسمًا يشبه رسوماته التي وجدتها وراء المكتبة في الشقّة..

لعنت اليوم الذي عاد فيه شريف إلى حياتي..

لعنت اليوم الذي عادت فيه لُبني..

ولعنت اليوم الذي وطأت فيه المستشفى..

شريف سيظل تحت الملاحظة منومًا إجباريًّا حتّى يُرحّل إلى العباسية وسيبقى في غرفة العزل حتّى يُشفى جرح فخذه..

في طريقي للبيت اشتريت زجاجة «Jack Daniels»، ككل سِكّير مُحترم لا يستطيع أن يشتري الشيفاز، أخفيتها في كيس أسود مثلما يُخفي المراهقون أفلام السكس تحت مسمّى «سيكو سيكو» تمويهًا!! لَم أدخل الشقّة، حَاولت إقناع نفسي لكني فشلت، فقط خلعت القميص وغسلته بماء خرطوم الحديقة قبل أن أنشره على الشجرة ونزعت حذائي، لامست العُشب الضامِر في الحديقة أبحث بعينيّ عن ركن لن تزوره شمس الغد، على صوت صراصير الغيط الرتيب، استندت على الشجرة المُحتضرة وشربت من الزجاجة حتى لمحت مايا قادمة من بعيد..

كنت أحتاجها بشدّة..

حين استيقظت كانت ترمقني بقَرف واشمئزاز، كأنها تتابع صرصَار يَحتضر، لَوت شَفتيها في كراهية مَمزوجة بقَيء وهزّة قدم رتيبة نافد صبرها، جَلَست نصف جلسة أحمي عينيّ من الشمس قبل أن أحيّيها:

ـ صباح الفل يا مدام كوثر..

لم تجبني جارتي التي تكرهني كُره الراعي للذئاب.. ظلّت تَرمقني من وراء نظّارتها قبل أن تقترب بدون أن تتخطّى حدود حديقتها.. هذا بخلاف أنها كانت تمسك بمقص عُشب كبير..

ـ مش مكسوف من نفسك!!

ـ يا مدام.. أنا مش عارف إنتِ بتتكلمي عن إيه؟

ـ نِجِس!

ـ ليه كِده يا حاجة كوثر..

ـ الله يرحمها.. رحمها منّك..

ألقتها ودخلت شقّتها ترميني بنظرة توعّد، الحاجّة دائمًا على حقّ، رغم أنّها مُصابة بهوس أُحادي، وفوبيا الجيران، ومتلازمة «ترديد ما تراه في التلفزيون».. هذا بخلاف بعض التبوّل اللاإرادي ومدى تأثيره على الواقع الافتراضي من منظور هذيان الاضطهاد! إلا أنها على حق بشأني..

لم ينتزعني من شرودي في كلماتها سوى جرس تليفوني، المستشفى كانت تتصل، لهم عندي يومان لم أظهر فيهما..

ـ عيان.. اعمل لي إجازة عارضة.. راجع بكرة..

ظهر رقم لبنى على قائمة الانتظار فأغلقت مكالمة المستشفى وتلقيتها..

ـ ما بتردش بقالك يومين!!

ـ كنت هاكلمك.. حصل مشكلة.. أنا رايح شقّة شريف دلوقت.. لأ خلّيكي بلاش تيجي.. خلينا نتقابل بالليل.. ما تقلقيش.. هافهّمك بعدين.. حاضر.

«طب خلّي بالك من نفسك» في المعجم المُحيط:

كلمة لم تسمعها منذ أمد.. لها فعل السحر في النفوس..

وقوفي تحت البروج المشيّدة كان مُقبضًا رغم نور النهار، الهواء يهيم كتنين أسطوري طائر بين جنبات الأبراج الشاهقة فارد جناحيه يبث الرُّعب والصريخ، في المدخل لمحت إعلانًا

صغيرًا يفيد بَيع شقة بالدور الثلاثين بسِعر مُغرٍ، لم أحتج مجهودًا لأخمّن، صَعدت الطوابق الثلاثين يتلوّى قولوني توترًا قبل أن أقف أمام باب الشقّة المَفتوح، اقتربت، الحركة كانت منتظمة، سيدة مُسنّة بمؤخرة سَمينة راكِعة على الأرض تمسح، ورَجُل لم يكن ليكون غير والد بسمة، جالس بأسى على كُرسي يتأمل صورتها بين يديه، اللعنة، تقهقرت خطوتين محاولًا حساب المعطيات الجديدة للحظ السيئ قبل أن أعود مدفوعًا بأمل العثور على القميص، قرعت الباب!

ـ أؤمُر يا ابني.

ـ يا حاج.. الشقة دي للبيع.

ـ أيوة يا ابني إن شاء الله.

ـ مساحتها قد إيه؟

ـ طب اتفضل.. اعملي شاي يا أم شيماء.

جلسنا وتبادلنا الحديث حول مميزات الشقّة وموقعها، ولم يذكُر الرجل أنها كانت مسرحًا لجريمة! فقط ابتلع ريقه بقلق بعد أن سكت عن المعلومة، سألته تمويهًا عن السِّعر وأجابني بثمن بخس بالنسبة لموقع على النيل.. طلبت التجوّل فيها فقام لمرافقتي:

ـ خلّيك يا حاج مش عاوز أتعبك.

رفض السمج وأصرّ وأقسم بالأيمان، تبعني ليحيطني بجنبات الشقّة إرشادًا، اصطنعت الجهل وتبعته لا أعرف ماذا أفعل، مرّ بالطرقة والمطبخ والحمّام ثم غرفة الجريمة التي اختفت كل معالمها، حتّى الكتابة التي كانت على الحائط مسحتها الخادمة المسنّة، اللعنة على المؤخرات العريضة! تبعته بعد ذلك إلى غرفة نوم شريف وبسمة، آخر أمل لي، تأمّلتها فَحصًا ثم سألته:

- لو حبيت أشتري العفش؟

- يا ريت يا ابني.. ده والله عفش جديد ما عدّاش عليه سنة.. «زان» مستورد.

فتحت الدولاب أتصنّع فحص خشبه.. ودسست عينيّ بين الملابس المكدّسة فوق الشمّاعات أبحث عن القميص..

- طب وبالنسبة للهدوم؟

- هنشيلها طبعًا يا ابني.. ما تقلقش.

- لأ.. أنا كنت أقصد لو حبيت أشتريها.

- ...؟؟

- أصلي مشترك في جمعية خيرية وممكن أتبرع وكده.. الأيتام.. والـ... ثواب يعني.

- يا بني!! ما يغلوش على ربنا.. نخلّص بس في الشقّة ونتكلم في الموضوع ده.

- ممكن كباية ميّة؟

- تشرب بقى شاي.

- زي الفل.

تركني الرجل ففتحت الأدراج بسرعة أفتّش مُحتوياتها.. أنهيت دولاب شريف ثم فحصت دولاب بسمة المُلاصق.. لا أثر للقميص.. نظرت تحت السرير وفي الشوفنيرة.. لا شيء.. التقطت كرسيًّا صغيرًا وصعدت لأفتح أعلى الدولاب.. البلاكار كان مليئًا بالبطانيات والملابس الشتوية.. باعدت ما بينها حين انهار الجَبل فَوقي في اللحظة التي عاد فيها والد بسمة.. وقف الرجل يتأمّلني والملابس الشتوية مبعثرة بجانبي.. لم أمهله ليرجع فكّه المتدلّي إلى مكانه..

- البلاكار دُرَفه ما أعتقدش زان برضه يا حاج؟

ابتلعها الرجل واقترب يلملم الملابس مَعي ويُدافع عن الدُّولاب وأخشابه.. الوقت أصبح ضيقًا ونفدت حججِ وجودي.. أستعيد كلمات شريف الأخيرة معي علّي أجد بها ما أسترشد به عن مكان القميص.. اللعين لم يقل شيئًا ولم يرسم في الورقة سوى.. مِرحاض!!

- أستأذنك يا حاج أخش الحمام..

استأذنت وجهه المملوء ألمًا وأغلقت على نفسي الباب ووقفت أنظر حولي.. لم يكن العثور على قميص في حمّام

مُعادلة لوغاريتمية.. سَبَت الغسيل فارغ.. لا شيء مُعلّق وراء الباب.. ولا في دولاب المرآة التي تم تفريغها من دواء الأملاح وبقية المتعلقات! تيبّست دقائق مشلول التفكير.. انتظاري أكثر من ذلك داخل الحمّام سيثير الرّيبة.. يأسًا أمسكت المزلاج لأفتح الباب حين استعدت رسمة شريف في مخيلتي.. يا للغباء! لقد رسم شريف مرحاضًا! نظرت للمرحاض ثم لمحت محبس السيفون المكسور.. عمدًا! سَريعًا مَددت يدي ورفعت الغطاء.. خاليًا من الماء كان.. وبالداخل كان يرقد قميص.. مطويًّا في كيس بلاستيكي مُغلق بإحكام ومَحشور وسط المواسير الرفيعة والبالون البلاستيكية.. مددت يدي وسحبته برفق.. الأرقام عليه كما رأيتها في الصور.. قُماشه سمني يابس رقيق يُشبه الكتّان.. وهِن يَسعى جاهدًا ليتمزّق.. سَحبته وأرجعت الغطاء مكانه ثم بحثت عن شيء أخفي القميص فيه.. طبقته برفق وحشرته بين بنطلوني وقميصي قبل أن أخرج متجنبًا مواجهة والد بسمة.. بادلته حديثًا سريعًا ورقم تليفون وهمي قبل أن يلتهمني المصعد..

في البيت فردته فوق السرير.. وقفت أتأمّل النقش فيه لا أكاد أفهم شيئًا غير آيات قرآنية وحروف مقطّعة ودوائر وأوراق شجر مرسومة بحبر بُنّي داكن.. القميص كان مقاسه «XL».. لم أجده مكتوبًا على الياقة لكني استنتجته حين وضعته برفق فوق كتفي وتدلى قليلًا.. لَم تواتني الجراءة لارتدائه.. النسيج وهن لدرجة التحلل.. سيصير ترابًا قبل أن أخلعه!

تحديث لحالتي بعد خمسة أيام من رجوعي المستشفى:

يحمل بيتي قميصًا أثريًّا مسروقًا من متحف الدولة..

بقايا جريمة قتل لا أعرف عن تفاصيلها سوى أنني مساهم أساسي فيها..

لم تكن زجاجتا فودكا «Sec» بمزاجهما المبهِج أن يفعلا شيئًا حيال ذلك الشعور بالتيه! فتحت الإنترنت لا أدري ما أكتب، بحثت في البداية وراء سرقة المتحف ولم أعثر على معلومة تُفيد قبل أن أكتب مواصفات القميص:

«قميص.. سمني.. آيات.. حروف.. ورق شجر..».

كان بحثي كصيد سمكة بدون صنّارة، ولا طُعم، أني حتى لا أدري ما أبحث عنه! يأست كما ينبغي أن أيأس وغيرت ملابسي ثم أخفيت القميص في الدولاب بعدما غلّفته بكيس بلاستيكي وخرجت لأقابل لبنى..

في الطريق تردّدت بداخلي كلمات شريف، أو أيًّا كان! حول لبنى، اللعين على حق، لم أستطع يومًا أن أنزع من رأسي فكرة عودتها لحياتي مرة ثانية، تعلّق طفولي صعُب عليّ التغلّب عليه، شيء يشبه حلم يقظة متطرِّفًا، لا يفصلني عن الخوض فيه سوى تذكّري مشهد يدي ونثرات الدماء تغطيها، يدي التي رأيتها في الصور تخنق مايا، يدي التي ترتعش الآن..

حين وصلت للُبنى كان الليل قد انسدل، الجو خلا من الأكسجين، والرطوبة بحر بموجه وأسماكه ومراكبه، استوينا في ركن وطلبنا قهوة، لففت سيجارة في مُحاولة للحِفاظ على اتّزاني وأنا أحكي ما حدث بشكل مخفّف قدر الإمكان، لم أحكِ بالطبع عن مايا! كان يكفيها ما سمعته عن إصابة أخيها والقميص لتطلب منّي سيجارة بعدما دار رأسها وتورّد خدّاها اضطرابًا، سَكتنا شرودًا ننظر للنيل المتهادي بجانبنا، ننتظر منه أن يمدنا بإجابة عن المتاهة التي انغرسنا فيها..

ـ أنا مش عارفة اللي حكيته ده معناه أمل ولا معناه إنه خلاص..

ـ معناه إن شريف بجد.. قَتَل.. ما كانش في وعيه.. بس قتل.. بس!

ـ مُمكن اللجنة تفهم ده؟

ـ صعب.. إلا لو شافوا حاجة بعينيهم.. هو ده اللي هحاول أعمله لمّا يرجع العنبر.

ـ خايفة بعد كل ده.. مش قادرة أتخيّل.. يتعدم!

ـ ما تخافيش.

ـ ممكن سيجارة؟

لففت لها واحدة دسّتها بين شفتيها وأشعلت النار، فيها وفيّ! لا أدّعي أني نسيت ما حدث لمايا لكني تُهت، تُهت في

وجهها، أصعب شيء أن تكون بذلك الجوع والطعام أمامك بذلك القُرب، طعام محرّم والتلفّظ باسمه كُفر بَيّن وزندقة، لقد أحللت لنفسي الخمر والنساء والقمار والقناطير المقنطرة من الحشيش والكيمياء المقدّسة، ولم تُحل لي لُبنى! سخونة صدري قاربت على حرق القميص الذي أرتديه، ظللنا على تلك الحالة دقائق حتّى أخرجنا من الشرود جرس تليفونها.. التقطته من حقيبتها ووضعته على أذنها..

ـ أيوه يا حبيبي.

شرعت في القيام لأتركها تتحدث على راحتها فربتت على راحتي لأبقى وأكملت مكالمتها..

ـ أنا في Meeting.. لأ مش في البنك.. يعني.. Around ساعة.. Ok.. حاضر.. باي.

أنهت المكالمة وشغلت عينيها في شاشة التليفون تهرب من عينيّ خجلًا.. التزمت الصمت لكنها لم تستطع..

ـ ده خالد.. أصلي مش حاكية له التفاصيل.. إني باقابلك.. يعني قلت إني قابلت دكتور معرفة من زمان.. وكِده.. و...

ـ غيور؟

ـ مش بالظبط.. بس صعب أشرح له.. غير إن موضوع شريف ده كاسفني.

ـ أكبر منّك بقد إيه؟

ـ خالد؟؟ آآآ..

عاجلتها:

ـ فوق العشر سنين؟

ـ عرفت إزّاي؟

ـ طالما آآآ.. يبقى فوق العشر سنين.

ضحكت بشفاه مرتعشة قبل أن تُسقط رماد سيجارتها في المنفضة..

ـ جوزي ما يعرفش إني باشرب سجاير.. جوزي ما يعرفش إني كنت أعرف حدّ قبله.

مثلما ينطق الطفل كلمة «والدي» بدلا من «بابا» في إعلان صريح أن المسافة بينهما أصبحت تُقاس بالكيلومترات؛ تنطق المرأة كلمة «جوزي» بدلًا من ذِكر اسمه!!

ـ خالد طيب.. فوق ما تتخيّل.. مثالي.. ما قدرتش أصدمه وأحكي له خَمَس دقايق حتّى قبل ما أتعرّف عليه.. أقصد أحكي له عنّك.. فيه ناس تحس إنك مش عاوزهم يتغيروا من ناحيتك سنتي واحد!

ـ اتجوزتي إزّاي؟

ـ الموضوع جه بسرعة.. بيشتغل معايا في البنك.. أوّل سنة جواز ما كناش متفاهمين.. أنا كنت هاطّلق.. لكن بعد كده اكتشفت إنه إنسان يجنن.

«ما كناش متفاهمين».. قائلات تلك العِبارة في الغالب ينقصهن إضافة كلمة «جنسيًّا».. كما أن كلمة «يجنّن» لم تخرج على ما يرام من بين شفتيها.. تُشبه رأيي في الطعام المسلوق.. مِثالي.. لكن ذلك لا يعني أنه لذيذ.. لم تنظر إليّ وهيّ تتحدث.. تُقاوم الفضفضة ولا تريد لعينيّ أن تُجبراها.. تركتها تسترسل وتنساب بيسر على المائدة وبقيت أنا أنحت تفاصيلها..

ـ عارف؟!

قالتها وسكتت.. ارتعشت أناملها بالسيجارة وهي تبحث عن كلمة مناسبة تحكي بها ما في نفسها قبل أن تُردف:

ـ مش عارفة أقول.

ـ ليه؟

ـ أنت آخر واحد المفروض أقول قدّامه الكلام ده.

ـ اعتبريني دكتور نفسي.

ـ ما هي دي المشكلة.. مش عارفة أشوفك غير يحيى بتاع زمان.

ـ إنتِ مش مبسوطة مع خالد!

رجعت بظهرها للكرسي وهزّت سَاقيها في اضطراب..

ـ ليه قُلت كِده؟

ـ إحساس..

ـ أنا كنت حالفة ما أتكلمش..

ـ لو ماتكلمتيش معايا هتتكلمي مع مين؟!

ارتعشت أناملها بالسيجارة..

ـ مش قادرة أقول إني ما باحبّوش.. مكسوفة من الفكرة.

ـ مكسوفة من وجودك معايا؟

ـ أنا مش امرأة العزيز.. بَس مش قادرة.. مش باكرهه.. بس ما باحبوش الحب اللي.. أنت فاهم حاجة؟

هزت رأسي ولم أعقّب.. حَركاتها كانت صادقة صِدق كلماتها.. سكتت لحظة ثم سحبت نفسًا سريعًا تكتم به انفعالًا..

ـ ده مش معناه إني ما باحبهوش.. بس.. ففف.. إيه معنى سكوتك ده؟!

ـ معناه إني فاهمك.

ـ تفتكر؟

ـ المثالية مش كل حاجة.. والحب كمان مش كل حاجة.

ـ أنت دايمًا كنت أكتر واحد فاهمني.

ـ وما كانش المفروض أظهر دلوقتي.. مش كِده؟

سكتت ثم نطقتها بذهول:

ـ حاجة زي كده.

ـ مُجرّد ما ينتهي موضوع شريف أنا هاختفي.

ـ مش قصدي.. أنت فهمتني غلط.

ـ أنا مش زعلان.. الدراما بتقول كده.. لازم أختفي مطرح ما جيت.

ـ عارف.. وجودك ده مقوّيني أوي.. وضاعفني في نفس الوقت.

ـ بُصّي لبنتك كتير وأنت تقوي.

ـ حاسة إني ما أستحقهاش.. وساعات ببص لنفسي في المراية مش مصدّقة إني بقيت أُم.. فاكر أنا كنت عاملة إزّاي؟

ـ أنا مش فاكِر أي حاجة غير إنك كنتي عاملة إزّاي.

تداعب خاتم زواجها الماسي بأنامِلها.. تلفّه حول بنصرها بعصبيّة وضيق.. وجوده بيني وبينها يثير دُخانًا بلا نار.. أردفتْ:

ـ الحياة مُملة بتموتني ببطء.. أنا مش ناقصني حاجة.. مستوانا المادي ممتاز.. خالد مش مخليني عاوزة حاجة.. بيحبني.. وده هيموتني.. وموضوع شريف جِه قَضى عليا.

ـ ما فيش حاجة بتفضل على حالها.

ـ إشمعنى أنت فضلت على حالك؟ جوايا!

أمسكت نفسي بالكاد أن أنطق.. نظرت في عينيّ وأردفت:

ـ أنا باخرّف.

ـ خالص.. أنت بتتكلمي عن اللي جوايا أنا كمان.

ـ وبعدين؟!

ـ ولا قبلين.. يخلص موضوع شريف وأرجع تاني للركن الضلمة اللي كنت قاعد فيه..

ـ كلامك بيموّتني.. يحيى! الدقايق اللي باقعدها معاك مش هتصدّق بتعمل فيّا إيه!! أنا باعيش عليها لغاية ما أشوفك تاني.. مش عارفة لو اختفيت ممكن أعمل إيه!

ـ كل شيء بيتنِسي.

ـ إلا أنت.. فشلت إني أنساك.. وفي نفس الوقت مرعوبة من وجودك.. بييجي لي كوابيس طول الوقت.. وأنا أصلًا باتكلم وأنا نايمة.. عارف.. ساعات باتخيل إني ممكن من غير وعي

أنطق اسمك.. أو لو حتى عملت عملية.. تحت البِنج ممكن أتكلم عنّك.

لم أجد ما أقوله وأخذتنا سكتة ثالثة!

تلك كانت ليلة من الليالي التي يُقال فيها كل شيء، أكثر مِمّا يَنبغي، يُقال فيها كل ما يَجرح فيقتل ويُعشق فلا يُنسى.. أمّا السكوت فدائِمًا أبلغ.. يحوي بداخله ما تعجز عنه الكلمات.. وبَقائي سَاكنًا أُقاوم لَمْس يديها دخل بجدارة في حَيّز المُعجِزات..

ظللنا نتابع الجالسين حولنا هاربَيْن من عينَيْ بعضنا بعضًا حتى بدأ يظهر وجه مايا في كل الجالسين حَولي فأغمضت عينيّ علّها ترحمني..

ـ أنا حاسة إنك مش مظبوط.. أنت تعبان؟

ـ أنا دايمًا مش مظبوط.. الاستثناء هو إني أبقى مظبوط.. وده ما شفتهوش من ييجي عشر سنين.

ـ أنا ضايقتك؟ مش قصدي حاجة بموضوع الكابوس.. أنا أقصد...

ـ أنا ما اتضايقتش..

ـ عارف.. كنت خايفة أشوفك تاني.. بس من جوايا كنت باتمنّى.

- «Law of attraction»..

- مش مسألة قانون الجذب.. أنا من غير ما آخد بالي كنت باندهلك.

- وأنا جيت.

سكتت تتأمّل عينيّ وكلماتي التي تصطاد في المياه العكِرة..

- شكلك مش بتنام.. عينيك تحتها أسود جامد.

- هاعيش.

نظرت لساعتها في ضيق..

- أنا لازم أمشي.. هاشوفك إمتى؟

- يومين وهاكلّمك.. عندي شغل كتير مع أخوكي.

- خلّي بالك من نفسك.

قالتها ورحلت..

ساحبة معها الهواء والنور ومسبِّبات الحياة..

سألت نفسي لِمَ لا زِلت مُعلّقًا بها رغم كل تلك السنين؟ لِمَ لم تَبهت وتتقشّر وتتداعى ككل حوائطي القديمة؟ لِم لم تولد من تُبدِّل نكهتها في قلبي؟ مَن تَمحو آثار شفتيها مِن على شفتيّ! مَن تملأ الفراغ الساخِن في صدري؟!

ما المميّز فيها عن مايا وعن زوجتي؟

الإجابة كانت مُرعِبة..

لا شيء..

في اليوم التالي استيقظت عَنوة، نِصف ساعة ووصلت المستشفى، عرفت حين عُدت أن شريف سيأتي بسيارة إسعاف، سياسة «٨ غرب» لا تسمح بغياب المتهم بَعيدًا عن الحَجْز لمدة طويلة، إلا في حالات العمليات الجراحية الكبيرة، سمعت بُوق الإسعاف قبل أن تنتهي قهوتي، اقتربت من السيارة وانتظرت السائق ليفتح بابها حين وجدت بداخلها سامح! يَجلس بجانب شريف الغائب عن الوعي مُكبلًا في نقّالته..

ـ بتعمل إيه هنا؟ سألته حين نزل.

ـ المريض بتاعي ولازم أتابعه.

قالها وتركني ليساعد المُمرِّضين في إنزال السرير.. دقائق واستقر شريف في غرفة العزل قبل أن ينسحب سامح.. استوقفته فالتفت لي.. طلبت منه كلمة على انفراد فرفض كرامةً وخوفًا فسِرت بجانبه وهمست:

ـ أنت عاوز إيه بالظبط؟

ـ عاوز حق ربنا يظهر.. نظبط التقرير.. عيب يخرج من ٨ غرب حد يشتغلنا كلنا بالمنظر ده.. أنت راضي على نفسك أنت حُر.. بتكسكِس لصاحبك دي مش بتاعتنا.

ـ الكلام ده تقوله لعيل صغير.

ـ هو بصراحة فيه سبب كمان.. أرجّعك بيتكو تاني زي ما جيت.

ـ عاجبني في وساختك إنّها صريحة.

ـ من غير زعل.. مش معنى إن صاحبك اشتغلك يشتغلنا.

ـ أنت بتشتغل نفسك.. شريف عيان بجد.

ـ شهادتك مَجروحة.. أنا جدعنة منّي ما رضيتش أقول قدّام المديرة.

ـ أنت وقعت على راسك وأنت صغير ولا اتولدت كِده؟!

ـ ماشي.. ماشي يا دكتور يحيى.. عامةً افحص براحتك وأنا هافحص براحتي.. وكل شيخ وله طريقة.. الحق ما يزعّلش.

ـ لو ضامن وساختك كنت قلت ماشي.. إنما أنا عارف.. أنت عاوز جنازة تشبع فيها لطم.

ـ طالما شهادتك مش مجروحة قلقان ليه؟

ـ لو غلطت معاه أو معايا هاطلّع ميتين أمّك.

ـ من خمس سنين كنت أنضف من كده.. أعلى ما في خيلك اركبه.

تركني ورحل قبل أن يقف على مسافة ويلتفت مشيرًا لأنفه..

ـ وبرضه مش هتعدّي دي.. ورحمة أمّي ما هتعدّي..

سامح في معجمي: ناصور شرجي يلتهب في غير وقته ولا تصلُح معه المراهِم..

جلست في غرفتي ساعتين مُملّتين دار فيهما رأسي حول نفسه ألف مرّة قبل أن يختفي المُمِل من المبنى.. تابعت شريف من الكوّة الزجاجية في غرفة العزل.. كان خامدًا مُسترخيًا كبيتٍ مَهجور سَقطت شُرفاته.. دخلت لأطمئن عليه.. ثوانٍ كانت كافية للصق جهاز التسجيل الصوتي تحت سريره.. لا بد أن أعرف ما يدور بينه وبين سامح حين أكون بعيدًا.. كما وجّهت كاميرا المراقبة إلى باب غرفة العزل لأعرف من دخل إليه وكم بقي من الوقت..

حين حل المساء تلقيت مُكالمة ذهبت على أثرها إلى بار «Deals»، صديقة لمايا سألتني عن غيابها المُقلِق، انتهزت الفرصة لأضع اللمسات النهائية لجريمة بالكاد أستوعِبها، وأسأل عن فيل أزرق يؤرقني، فيل أود أن أعرف مَوطنه وكيف جَاء إلى شقّتي، قبل أن يفتح لي بابًا من أبواب الجحيم..

البار يقع في جزيرة الزمالك، متوسط الحجم تنزل من أجله درجتين تحت الرصيف قبل أن تمُر بباب خشبي على شكل نصف دائرة، ليتخلّلك مُباشرة دفء الكحول والإضاءة الصفراء الخافتة..

على المنضدة التي اعتادت مايا الجلوس عليها لم يكن هناك سوى سالي، صديقة مايا «الأنتيم»، مُلقاة على كُرسيها مُتجهمة تحتسي خَمر القلق، عانِس طويلة الجسم والأظافر، صفراء فاقع لونها لا تسرّ الناظرين، لمّا اقتربت منها قامت وضمّتني بوجه خالٍ من الأصباغ وعَبَق كُحول، تركتها مُكرهًا تُنهي حُضنها بَطيء الإيقاع، أنفُخ شعرها بعيدًا عن فمي حتّى لا أتقيّأ قبل أن نجلس..

ـ «My Baby» مـا بتخبّيـش عنّـي حاجـة.. أوّل مرّة تختفي بالشكل ده.. وتليفونها مقفول.. أنا هاتجنّن.

ـ ربنا يستر.

ـ أنا تخيلتها عندك!

ـ أنا ما شفتش مايا من خمسة أيام!!

مَسَحت شعرها المصبوغ بالصفار وأشعلت سيجارة..

ـ آخر مكالمة من مايا كانت بتقول لي إنها رايحة لك!!

صدّرت وجهي العبيط الذي أمتاز به أحيانًا..

ـ صحّ.. كلمتني وقالت إنها جاية.. بس ما جاتش.

ـ مايا ما لهاش حدّ غيري لو كانت ناوية على حاجة كانت قالت لي.. لازم يكون حصل لها حاجة.

ـ حد من البيت عندها دوّر في الأقسام أو المستشفيات؟

ـ متهيأ لي بيعملوا كِده النهاردة.. أنا مش قادرة أتخيل.. باترعب لما أتخيل إن يكون حصل لها حاجة.. ممكن تكون اتخطفت.. «Ohh my God»!!

ـ اتصلتي بكل مَعارفها؟

ـ وصحباتها في شغلها وريهام بنت خالتها.

ـ مرّة كانت حكت لي إنها بتنجز من عند حدّ في المعادي..

سكتت وقطبت جبينها مُلقية بعينيها بَعيدًا تستدعي من الذاكرة شيئًا..

ـ «Son of the bitch».. تاكي..!!

ـ مين تاكي؟

ـ تاكي.. بس ده غلبان.. و«Gay» أصلًا.. مايا كانت بتجيب من عنده «Some Stuff».

ـ «Stuff» إيه؟

ـ «LSD»..

- «LSD» بس؟ طب معاكي حاجة من الـ«Stuff» ده دلوقتي؟

- مايا هي اللي كانت بتجيب عشان تاكي مُقرف وبيحفلط عشان يعمل «Delivery».. Ohh My boy.. أنا مش مصدّقة!! مش مصدّقة يا يحيى.

أجهشت بالبكاء وارتمت على المنضدة مُبعثرة شعرها البشع على ذراعي..

- مكانه فين تاكي ده؟ مُمكن أسأله يمكن يعرف حاجة.. أو شافها.. أو... مكانه فين؟

- هو في المعادي.. «I don't know».. استنّى.. معايا تليفونه.. «Where is the fuckin phone?!».

تركتها في حالة يرثى لها ولم تنتبه حين رَحَلت.. اتّصلت بهذا التاكي وأجابني.. بعد مُقدّمة شرحت له فيها أنّي من شلّة «Deals» الزمالك سألته عن أقراص الفيل الأزرق..

- فيل إيه يا Man.. أنا ماليش في الجو ده.. مش فاهم حاجة!!

- مايا هي اللي كلمتني عليه.. الـ«DMT»..

سَكت قليلًا قبل أن يُجيبني..

- القرص بميّة وتمانين.. و«Maximum» تلات أقراص..

ـ إشمِعنى..

ـ يا Man ده بيبجي بالعافية وكمية قليلة..

ـ أقابلك فين؟

انتظرته عند ناصية اتفقنا عليها وجاء بَعد ميعاده بنصف ساعة راكبًا موتوسيكل صَوته صَاخب، يشبه «Eminem»؛ مُطرب الراب الشهير، لكنه منكوش الشعر كزعّافة سَقف، مَسلول يغطي ما تيسّر من كُنافته المُبعثرة بقبعة أخفت مَعالم وجهه، وقف أمامي ونادى اسمي فهززت رأسي موافقة، نَظَر حوله جيدًا وداعب أنفه شعورًا بخطأ ما يفعله ثم طلب النقود، اقتربت فأشار لي أن أبقى مكاني، ألقيت له بخمسمائة وأربعين جنيهًا عند عجلة الموتوسيكل فالتقطها وعدّها، ثم أخرج من جيبه علبة سجائر ونظر حوله ثانية قبل أن يلقيها بين قدميّ، انحنيت والتقطتها وحين قُمت كان قَد رَحل، فتحتها مواربة فلمحت ثلاثة أفيال زُرق يلعبون..

في البيت جلست أمام المنضدة، وَضَعْت القُرص تَحت قَاع زُجاجة الـ«Absinthe» ونظرت من الفوّهة، تِلك مِيزة من مَزايا الكُحول، تستطيع أن تستعمل زجاجته كمايكروسكوب!

فأسًا! الفيل كان يَحمل فأسًا في يده ورأسه مَلفوف بشَال هِندي، أبعدت الزجاجة وأنا أتذكّر «الرؤيا» الكيميائية التي رأيتها من قبل، أعرف جيدًا تأثير المُهلوسات، عَبث في وَصلات المُخ،

مَاس كَهربي يضرب الخلايا والمستقبلات فيثير جنونها، رحلة نظرية وأنت جالس على كنبتك مُعززًا مُكرمًا، أصدق من حلم، البعض يرى نفسه ميتًا وتأكله الديدان، والبعض يرى الأنبياء ويتحدّث إلى الملائكة ويُبعث إلى قوم كفرة ليهديهُم وينزل بهم العذاب..

والبعض يقنعه فيل أزرق في لحظة غياب أن يقتل مايا!!

فتحت «Google» وكتبت حروف «DMT» في خانة البحث، النتيجة جَاءت في كلمة طويلة تحمل الأبجدية اللاتينية كُلّها، «Dimethyltryptamine»، ومُختصرها «DMT»، مَادة طبيعية تُستخرج من النباتات على نِطاق واسِع، والثدييات بشكل أقل، وتُفرز بشراهة في جَسد الإنسان لَحظة مَوته، لتهيئ العقل «عَنوة» على الانتقال من العالم الواقعي المَلموس الذي نعيشه إلى العالم الغَيبي المُبهم بعد الموت، عالم البرزخ، فيستطيع العقل استيعاب ما هو مُقدِم عليه..

وقد تَبيَّن أن انبعاث كميات هائلة من الـ«DMT» من الغدة الصنوبرية في تجويف المُخّ أثناء فَترات الغَيبوبة قد يكون سَببًا في الشعور بتَجربة الاقتراب من الموت والتحليق خارج الجسد.. ويتم تعاطي الـ«DMT» بين المُدمنين على هيئة أقراص أو عن طريق الشمّ أو التدخين؛ فيوفِّر للمُتعاطي تَذكَرة مَجانية للعَالم الآخر..

تذكرة ذهاب وعودة!

تفسيري الوحيد أن السّمين الهندي قد أخذني في رحلة لبرزخ مهجور مُظلِم، قبل أن يطبع بخرطومه على قشرة مخّي ما حدث بين بسمة وشريف، طبعه بألوان طبيعية، وتولّيت أنا تنفيذه، بلا وعي، نَظريًّا الرحلة كانت ناجحة، مثمرة ومُسلية، عمليًّا، لقد خضت أرضًا ليس لي فيها تصريح مرور، أرض ملغومة لا أعرف كيف ارتادها الفيل بقدميه الضخمتين وخرج سليمًا!!

أحيانًا أتساءل لم حَرّم ربي المُخدرات؟!

هل تفتح لنا مستوى سِحريًّا مَختومًا بكلمة سِر في لعبة «Video» لا يرقى عقلنا وقدراتنا لاستيعابه؟

أم أنه مستوى نَكون فيه وحدنا، بلا غطاء، بلا مَلاك حَارس!

لن أعرف أبـدًا، لكني قررت خوض رحلتي الثانية مع نفس الشركة، «الفيل الأزرق للسفر والسياحة»، وبصحبة الـ«Absinthe» ضَامنًا نفس مستوى الخدمة قاصدًا البابين الباقيين، صَببت الكحول الأخضر فوق قالب السكّر في كأس وأشعلت النار قبل أن أضع فوق لساني فيلًا ما لبث أن انزلق بنعومة..

بعد نصف ساعة..

لم يحدث شيء..

كما أنا؛ مُستلقيًا، على كنبتي ولا شيء! فقط، الكنبة لم تكن على ما يُرام، لم تعد كما هي مُقعّرة تصنع صوتًا حين أتحرك، باتت بضّة مريحة وأرْحَب، مكسوّة بقطيفة حمراء، كما أن يديها أصبحتا أكثر ارتفاعًا، لم أكن أعرف أنّ خشبها مَحفور بالنقوش! ورد وملائكة صِغار! كَما لاحظت السجّادة تحت قدميّ، سِجّادة يَدويّة النسيج مرسوم عليها وَحَدات مكرّرة من الغزلان والطيور، يُطاردهم أسد يُشبه أسد أبي زيد الهلالي، كان يطاردهم بالفعل حين دقّقت قبل أن يلحق بغزالة صغيرة وينهشها قُرب الشراشيب!! السجادة كانت مثقوبة في المنتصف، ومُفرّغًا فيها دائرة تسمح للشجرة العتيقة أن تترعرع، شجرة كافور ثقبت سقف صالتي واستجلبت الشمس إلى أرض الصالة، تتخلل أشعّتها الهواء في خُطوط مُتوازية عَكَسها الغُبار، قُمت إليها أُلامس جسمَها العَتيق خَشِن المَلمس، كانت تقطر مادّة لزجة رائحتها طيبة، كافور إن كنت أعرف رائحة الأصلي منه، نَظرت إلى فوق فأعمت الشمس حدقتيّ، أنزلت عينيّ حين عَبَر بجَانبي عمّ سيّد!! ترزي المستشفى، كما رأيته منذ أيام، ترينج أخضر باهت وقبّعة رياضية هالكة وفم شحيح الأسنان، ويَحمل في يده كيس الأقمشة والخيوط، هَمَس في أذني بكلمات قالها لي من قبل..

ـ هو عارف إنّك هترجع.. مَكتوب نتقابل عند الشجرة..

ـ هو مين يا عم سيد؟

ـ المأمون..

ـ المأمون!! مأمون مين؟

ـ المأمون.. صاحب البيت.. صاحب السر..

ـ عم سيد استنّى..

اللئيم لم يُعرني انتباهًا، ما لبث أن تمشّى بهدوء يُخشخش بكيسه في الطُّرقة المؤدية للمَطبخ، هَرعْت وراءه فلم أجد له أثرًا، رَجعت للصالة أتأمل أفاعيل صَاحب البيت الذي باعني الشقّة، الوغد لم يذكر أن هناك شجرة كافور تتوسط صالتي! كما لم يذكر أن هناك مشربية بجانب الزير الكبير وقلّتين في صينية وبعض النعناع!! اللّعنة على اتحاد المُلّاك الفاسِد! نظرت من فتحات المشربية فلم أرَ حَديقتي المُهملة، المشربية كانت تطل على ساحة كبيرة محاطة بأشجار الليمون، وفي المنتصف حَوض مَاء تطفو فوقه أوراق زنبق الماء الدائرية تحوم قربها الفراشات، بجانب البَغل! بَغل ضخْم أطول من حصان، مربوط ثابت في مكانه، لون الشعر في جلده بنيّ ينحرف إلى أزرق مع ضيّ الشمس، كرقبة الحمام، شَرَدت في هيئته استغرابًا حتّى انتزعني صوت هَمس مَكتوم، نميمة أنثوية رتيبة، الصّوت كان يأتي من الباب الموارب بين الأبواب الثلاثة، هنا بدأ النبض، نبض المكان من حولي، أسمع الطرقات في أذني، ثم بدأ كل شيء يتحرك، يتلوّى كأني أسير في قاع بَحر، اتجهت للباب ببطئ المعهود في مثل

تلك الرحلات، أشعر وأنا أسير أنّي أحلّق فوق مستوى رأسي بمترين، أنظر لنفسي من فوق «يحيى» كأني طِفل يركَب فوق كتفه، كأنني بالون هيليوم مشدودة إلى جسدي بحبل شفاف، اقتربت من الباب الخشبي ودفعته، كان سَميكًا ثَقيلًا كالرُّخام، لكنه تحرّك..

بالداخل كانت الرائحة ذكية نفّاذة، تأتي من دخان مَبخرة بجانب سَرير ضَخم مُلتصق بالحَائط، عَواميده الغليظة الأربعة تصل قرب السقف مَشدود بينها ناموسية ضخمة كشبكة صيد حيتان، ومِن تَحتها امرأتان تتهامسان، الأولى شابة، هاربة من قصور «حور العين» في الجنّة، تَرتدي رداء كتانيًا أبيض منقوشًا بأفرع رفيعة، شَعرها طويل يكاد يصل لركبتيها إذا وقفت! نائمة على جنبها، حاسرة الرداء عن فخذها تُمسك بين يديها مِرآة تعكس لعينيها أعلى وركها المُذهلة! وَوجهها يَملؤه شغف وألم رأيته في عضّة شفتها السفلية.. المرأة التي تجلس أمامها لم أتبينها من زاويتي، كانت توليني ظهرها، مكتنزة الأرداف وسنّها متقدّمة، عروق يديها نافرة كمواسير تتسلّق عمارة عتيقة، تُمسك ما يُشبه إبرة مثبّتة في بُوصة، مُنكبّة ساجدة على الورك الساحرة تنقرها برتابة لتنسخ رسمًا في ورقة بجانبها، كُل بِضع وخزات للإبرة تدسّ يدها في طبق صغير مملوء ببودرة زرقاء داكنة، تَمسح بها فوق الثقوب التي تقطّرت بالدماء فيتسرب اللون تحت الجلد الشفّاف ليسكُن ويستقِر!

تيبّست في مكاني أراقب أصابع قدمَي الحسناء التي تنكمش على نفسها ألمًا، ويَديها اللتين تَعتصران ملاءة السّرير العتيق، تتحدث المرأة العجوز بشيء لم أسمعه، حاولت الاقتراب فخانتني قدماي كعادتهما، ثبت في الأرض كشجرة يتسلقها النمل، يتخللها وينهشها ولا أقوى على طرده، أصغَيت بكل قواي أعتصر الهواء وبالكاد فسّرت حوارهن..

ـ يا خالة.. جلدي بيتقطّع.. ما عُنتِش قادرة.

ـ لجل الورد ينسقي العُلّيق.. اصبري يا بنتي.

ـ خايفة ما يكون ليه فايدة الدكّ ده.. كُنّا نقشناه حِنّة.

ـ رسمة الوردة لازم تبات في جِلدك اتنين وسَبعين يوم لغاية ما ينفك سِحرك.

ـ هاتجن يا خالة.. المأمون كُل ما يقرّب منّي يشوف قَعري حِيطة مَسدودة.

ـ ما تستهونيش بأم الصبيان! دي غولة برِجلين بقرة وصرختها تجِنّ الرجال.. هي اللي عاملة فيكي العمل.. بتعمي عينيه عن عسلك.

ـ يا لهوي يامّه.. مش قادرة! أنا خايفة يا خالة.. أي.. أي..

ـ اجمَدي.

ـ مش قادرة.

ـ خلاص.. خلّي جوزك يفضل يِشوف زرزورك مَسدود..

ـ هيرجع يا خالة يعاشرني؟

ـ هيرجع! هيرجع ويشوف شقّك شَهد مَعسِّل، الطلسم هيفُك عين «أم الصبيان».

ـ ويعشقني زي لاول؟

ـ عِشقك هيصليه، هييجي راكِع يقبِّل قدمك، هيصير لِك عبد.

ـ من بقك لباب السما يا خالة.

وتاهت الكلمات في الهواء، استرقت السمع أكثر فلم ألتقط شيئًا، قبل أن ترتخي الناموسية فوقهن في نفس اللحظة التي تحررت قدماي، نِسبيًّا، رفعت ساقي التي تزن طنًّا وربعًا وتحركت، خَمس خُطوات ثقيلة مُرهقة ووصلت السرير، استجمعت شجاعتي وأزحت الستار فلم أجدهما، الطفل كان عَاريًا مُستلقيًا على ظهره، طفل غاية في الجمال، لم أكن لأخطئ الشبه بينه وبين أمّه، يملك وجهها وشامتها الصغيرة فوق جبينها وفتلة شعرها الناعمة، لكن ذراع المسكين كانت تحمل وَحمة دَموية حَمراء عكّرت صَفو نقائها، اقتربت منه فالتفت لي ببؤبؤ عينيه الواسع شديد السواد، رفعت ذراعه أتأمل وحمته، لامستها فتحركت أو هكذا خُيّل إليّ، كأنها زئبق يتلوّى تحت زجاج شفاف، وضعت أناملي ثانية فوقها فتحركت تجاه أصبعي كبرادة

حَديد تَعرف طريقها نَحو مَغناطيس، تتجمع تحت بصمتي، تتنفس، تتسارع، تفور بعنف! رَفعت سبابتي فهدأت، ثم سكنت، لامست أنامله الصغيرة فاحتضن إبهامي بكفّه المنمّق، ابتسمت له متابعًا انعكاسي في عينيه اللامعتين فابتسم رغم سنّه التي لم تعرف الابتسام بعد، شردت في براءته حتّى شعرت الوخزة، انتفضت وسَحبت يدي لا إراديًا أنظر لإبهامي التي حَصَلت على ثُقب صَغير بحَجم شكّة إبرة، نَظرت للطفل مُرتعبًا قبل أن أسحب كفه أفتش فيها عن شيء حَاد سَيبتلعه حَتمًا إن لم ينغرز فيه، لَم أجِد شَيئًا، الجرح آلمني نبضًا فنظرت فيه أفحصه، شيء أسود كان تحت الجلد، شيء طوله حوالي سنتيمترين! فزعًا نَظرت للطفل الذي سكن يتأملني كأنه ينتظر حدثًا، يَرمقني بتركيز شديد، عيناه، مَلامِحه، شيء ما تبدّل! نَبض الألم أعاد انتباهي لإبهامي المُختَرَقة، اللحظات التي رمقت فيها الطفل زادته احتقانًا وسخونة، الكيان الأسود يتحرك، ينهش اللحم، فأرًا خبيثًا يعرف طريقه في مَاسورة المَجاري، صَرخت ألمًا ولم أسمع صوتي، والطفل صامت ساكن يتأملني بلا حركة، تمثال ملاك مُتقن الصُّنع، الكيان يتخذ طريقه تجاه ظفري والألم يتضاعف بجنون، ابتعدت عن السرير أبحث عن شيء أفتح به إبهامي، أحفرها أو أقطعها، فالألم بات غير مُحتمل، الكائن أصبح تحت الظفر، الشفافية جعلتني أرى تفاصيله، ميّزت أرجل دقيقة تخرج من جسم بَغيض، حَشرة! لها ستّ أرجل، كِدت أفرغ ما في معدتي قبل أن أنحني عَنوة على الأرض أعتصر إبهامي،

أخبطها على أرض الغرفة الحجرية علّه يتوقف عن نهشي، عَرقي نَشع نهرًا بلا سدّ يَصعب السيطرة عليه وتهدّج نفسي، ثم ظهرت الساق الأولى، مُشعرة يابسة مُقززة، اهتزاز أعصابي لم يُمكّني من سَحبها وإخراجها، كما أن فكرة أن تنقطع ويبقى الجسم ميتًا بداخلي قتلتني، شوهتني نفسيًّا، ثوانٍ وبرزت قدم أخرى قبل أن تخرج الرأس، خنفساء! خنفساء قرمزية بدينة، خرجت بصعوبة وما لبثت أن فردت جناحيها المخبئين وطارت بعيدًا، إلى السقف، بالكاد أمسكت نفسي من أن أغوص في هبوط حاد، ارتميت على ظهري أتأمل إبهامي التي باتَت فيها حُفرة بحجمها، حُفرة لم تُخرج نقطة دم واحدة، أرخيت ذراعي بجانبي ورمقت السَّقف، السقف القرمزي، لم يكن ذلك لونه، كان لون الخنافس التي سترت أخشابه كلها وصبغته بالحُمرة، بِلا منفذ للون السقف الأصلي، هنا انتبهت لصوت الاحتكاك، احتكاك أجسادها المقزز، كتمت أنفاسي وتحاملت حتى قُمت راكعًا رغمًا عنّي كأن رأسي سيطول السقف العالي، تذكّرت الطفل فاقتربت من السرير وأزحت الناموسية فلم أجده! كانت هناك فقط كتلة داكنة، انحنيت مدققًا فميّزت كومة من الخنافس تتحرك فوق بعضها!! ركضت مُسرعًا، ببطء شديد، أضغط إبهامي في راحة يدي تشتيتًا للألم، أنظر للسَّقف خوفًا وطمعًا في خروج آمن، ما إن أمسَكت مقبض الباب حتّى توقف الاحتكاك، نَظرت خَلفي بَعد تَردّد فرأيتهم يَتساقطون كالمطر ويَزحفون على الأرض، السقف كله ينهار، أدرت المقبض وفتحت الباب، ثانيتان

كانتا تفصلاني عنهم، زمن طويل غير كافٍ في عالمي اللزج، بالكاد أخرجت جسدي وجررت الباب خلفي غلقًا، سَحبته بثقله الرَّهيب وأغلقته قبل أن أرتَمي على الأرض مُلتقطًا صَوت جَيش الخَنَافس وهو يتراكم على الباب، رَجعت زَحفًا إلى الكنبة وارتَميت ألتقط أنفاسي، مُراقبًا الباب مُنتظِرًا سقوطه في أي لحظة واحتلال الجيش الأحمر جسدي، دقائق من الرُّعب تحرّكت فيها الشمس حتّى سَقَطت على عينيّ من بين أغصان الشجرة العتيقة، أثارت دموعي وأعمتني، أغمضت عينيّ وتكوّمت على نفسي قبل أن أستلقي على جانبي، شُعور بالخدر اجتَاحني فاستسلمت له استسلام جندي بُتر نِصفين من تحت السرّة في معركة..

كان ذلك حين سَقَطَ جفناي..

بالكاد استيقظت..

كان الوقت ليلًا ولا يزال، أظنني لبثت ساعة أو بِضع ساعات، هكذا ظنّ فتية الكَهف يَومًا! التَّقويم في تليفوني المَحمول وعَدد المُكالمات الفَائتة كان يشير ليوم كامل بُتر من حياتي، أربعة وعشرون ساعة سقطت سَهوًا، سَاعات كانت كافية لاقتلاع شجرة كافور من مكانها وفناء سجّادة بشراشيبها واختفاء زير وأبواب وانطماس شمس، ونفوق بَغل كَبير! لم يَبق لي غير نَبض يَلفظ أنفاسه الأخيرة، نَبض أثاث ما زال يَتحرك حَركة خَفيفة تِجاه الحِيطان، بالكاد ألحظها، بحثت عن بقايا أقراص الفيل بجانبي على الكنبة حين دهمني سيخ الألم، ألم سبابتي التي حملت حُفرة..

حُفرة تسع خنفساء حمراء!!

قمت ركضًا لباب غرفتي، فتحته على مصراعيه ورمقت السقف، لم يكن هناك غير النجفة المحروق نصف لمباتها،

وسريري كما عهدته، فَرْشة ملابس مستعملة على رصيف ومَقلَب للجوارب!

أمام مِرآة الحمّام حَاولت تَملّك أعصَابي، رَعشة يَدي كانت تُصعِّب عليّ رؤية الجَرح المتهتّك كماسورة مَدفع منفجرة، الثُّقب الآتي من عالم الفيل الأزرق، لففته في شَاش وخَرجت إلى أقرب مستوصف صِحّي، حُقنت ببنج موضعي وتم تخييط الجرح وتغطيته قبل أن يسألني الطبيب عن سبب الجرح الغَريب الممتدّ من الداخل للخارج، أجبته بشيء عن مسمار وشَاكوش وأشياء أخرى لم تبد مقنعة، ثم خرجت إلى شوارع ثكنات المعادي أضُخ نيكوتيني كقِطار بُخاري أعمَى، بالكاد أستجمع تفاصيل تتطاير كالكحول من رأسي، جلست على الرصيف وأخرجت أجندتي والقلم، دوّنت كلمات متصلة منفصلة قد تساعدني على التذكّر، وشم بسمة، في أي زمن كنت؟ سقف الخنافس، البغل الأزرق وشجرة الكافور، اللعنة، ذلك تيه يفوق تيه اليهود في سيناء! عليَّ أن أرجع للبيت وأستكمل رحلتي الكيميائية، كان هذا حين صرخت معدتي! نسيتها جائعة، عليَّ أن أضع لها الطعام في طبق، كما أن ذهابي في رحلة بصحبة الفيل الآن قد يكون ذهابًا بلا عودة في ظِل حُكم بنكرياس متهالك وشبه غيبوبة سُكّر لم يمر عليها وقت طويل! أسعى منذ زمن للانتحار بالتقسيط، لكنها ليست بالليلة المناسبة! عليَّ أن أستعيد عافيتي لأخوض رحلة أخرى، وأن أتابع ما حدث لشريف في اليوم الساقط من حياتي، لا أظن

سامح قد أهدر فرصته في استفزازه والطَّرق بقضيب ساخن على أعصابه، لن يفهم ذلك الجاموس أن شريف يملك شخصيتين! سامح يَصنع بيديه فرصة حَقيقية لرَجمي حَيًّا، مَجد القَضاء على مُنافس في عالم الذكورة، ولن يتخلى عن حُلمه! كما أن وجود لُبنى يَضغط على غدّتي النخامية ويَصُب في دَمي كُحولًا رائقًا من كُوب طويل مملوء ثلجًا، لم أكُن لأفكّر، سَحَبت هيئتي المزرية وجرح أصبعي المتهتّكة واتّجهت لمستشفى العبّاسيّة..

حين وصلت كان الليل قد حَلّ، كل شيء هادئ ميّت بسلام، ألقيت نظرة على غرفة العزل فوجدتها غَارقة في الظلمة ساكنة، دخلت غرفتي وأيقظت الكمبيوتر، بحثت عن الملف المخفي ونقرته، تتابعت اللقطات في رتابة، تمثل حالة العنبر طوال اليوم، استطعت حصْر حركة النزلاء من التوقيت المَكتوب في أسفل الشاشة، بَعضهم كان كالذبابة لا يَملّ من اللفّ والدوران، والبَعض الآخر بَدا صنمًا لا يتحرك إلا صَدره للتنفّس، وغُرفة شريف سَاكنة لم ينفتح بابها سوى لمُحسن المُمرّض، دَخل بصينية الوجبة، وما لبث أن التقطها بَعد ساعة كَما هي لم تَتغيّر، اللعين لا يقرب الطعام! سَرّعت إيقاع اللقطات حتّى ظَهر سَامح قبل نِهاية النَّهار، دار دورتين وسط نزلاء العنبر قبل أن يدخل غرفة العَزل، أبطأت السرعة وتابعت، فقط كنت ألاحظ رأسه يَظهر من حين لآخر من فتحة الباب الزجاجية، يتحدث إلى شريف، ثُلث ساعة قضاها بالداخل قبل أن يخرج ووجهه عابس مُندهش!

بَاقي الساعات لم ألحظ فيها تغييرًا، أخفيت المَلف في رُكن آمن وخَرَجت ألتمس غُرفة العَزل، لكَزت عَسكري الحراسة ففتح لي الباب وأمرته بإغلاقه وَرائي، الظلام كان دَامسًا ولم أشَأ إضاءة النور حتى لا أوقظ شريف أو النزلاء، تسلّلت حتى لامست سَريره، مَشيت بأناملي تحت حَافته حتّى عَانقت جِهاز التَّسجيل، هممت بفَكّ الشَّريط اللاصق لأخرج كَارت الذَّاكرة حين سمعت صوته:

ـ شُفت «بَحر»؟

انتفضت من أثر الصوت.. بَحثت بيدي عن زِرّ النور حتى وَجدته فانجلت الغرفة.. شريف كان جَالسًا فوق السرير سَاندًا ظَهره للحائط فارجًا ساقيه.. رافعًا يَده أمام عينيه..

ـ اطفي النور..

قالها بصرامة فأنزلت المقبس مُكتفيًا بالضيِّ الخَافت المُتسلل من العَنبر عَبر النَّافذة الزجاجية للباب لأستشعر أبعاد الغُرفة..

ـ كان اسمه «بحر»..

ـ مين اللي كان اسمه بحر؟

ـ البَغل..

ـ ...!!

ـ كان أكبر بَغل في المنطقة.. أمّه فرسة عربي مأصّلة من

اليَمنْ.. لُونه بنّي.. بس في ضيّ الشمس اللمعة الزرقا بتظهر زي رقبة الحمامة.. عشان كده سمِّيته بَحر..

ـ أنا مش فاهم حاجة.. بغل إيه؟ أنت إزّاي شفت الـ...

قاطعني بلامبالاة..

ـ لقيت القميص؟

ـ القميص معايا..

لم أره لكني شعرت بانتباهه وتعديله من جلسته حين عرف أني حَصَلت على القميص..

ـ القميص ده لازم يرجع.. احرقه..

ـ !!!

مَن قال «القميص لازم يرجع»، ليس هو من أمرني الآن بحرقه!! اختلف الصوت، الأوّل لم يكن شريف، كان صَوتًا عَميقًا هَادئًا أجش، آتيًا من حنجرة رجولية ثابتة الأحبال، أمّا الثاني، فلم يكن أيضًا شريف! بَدا لي أقرب لنائل، نفس الحدّة والبحّة، لكن من هو الأوّل؟ انتابتني رعشة حين فكّرت في الضيف الذي حلّ في الغرفة، نحن الآن أربعة إذا صدق حَدسي!!

ـ أفهم الأوّل.. وصل إزّاي شقّتك؟ سألت شخصًا من الثلاثة..

ـ سرقته.. مَكانه الأصلي مع صاحبه.. احرقه يا يحيى.

الغرفة أصبحت مزدحمة! تراجعت خطوتين مُحاولًا استبيان مع من أتكلّم، الإظلام اللعين يفقدني القدرة على قراءة لغة الجسد..

ـ مُمكن أنوّر النور؟

ـ أنت مش محتاج نور عشان تشوف.

ـ احكي.

ساد الصمت لحظات.. سمعت خلالها طنين ألف نحلة قبل أن أسمع إجابة..

ـ التزم بقواعد اللعبة.. عشان تعرف إجابة لازم أسألك سؤال.

يبدو أن من فاز بالصراع كان نائل..

ـ كام مرة غمّضت عينيك وشفت لبنى في حضنك؟ من غير كدب.

ـ ...

ـ عاوزني أصارحك إزّاي وأنت مش بتجاوب؟

على مضض أجبته:

ـ مرتين..

ـ بعد كل وجبة؟ أنا مستغرب إزّاي ما انتحرتش لغاية دلوقت؟

ـ أنا كمان..

ـ هتقضّي عمرك كلة تتفرج عليها في الفاترينة!

ـ المفروض أعمل إيه؟

ـ الست تحب الراجل اللي يشدّها لحُضنه..

ـ ويضربها ويغتصبها.. مش كِده؟

ـ ساعات المقاومة بتكون فيها لذّة..

ـ ساعات برضه الساديزم بيكون مرض مستخبي وما بيظهرش غير في ظروف معيّنة.. أنت مين؟

ـ أنت عارف اسمي..

ـ نائل؟ ولا حد تاني.. تالت؟!

ـ مافيش حَدّ تالت..

ـ بتكدب! أنا سمعت صوته..

ـ صاحبك مسكين.. كويس إنه عارف يطلع صوت..

ـ القميص!!

ـ احرقه.. القميص ده فيه هلاكك.. لُبنى محتاجة لك..

ـ يا دي لبنى!!

ـ ما تنكرش إن فيه مُتعة إنّك تدوقها دلوقتي أكتر من زمان.. المقاومة.. النزع.. صعوبة الوصول بتخلي كل حاجة ليها طعم تاني.

ـ ما تغيّرش الموضوع.

ـ بالعكس.. رغبتك اللي بتحاول تكتمها هي اللي مبوّخة الكلام.. إحنا متفقين على الصراحة.

ـ ...

ـ نفسك فيها؟

ـ كان.. نفسي فيها.

ـ هتسيبها تعيش مع حد مش بتحبه؟

لم تكن لكلماته إجابة..

ـ أنت بتنتحر.. وهي ما لهاش ذنب.

ـ إزّاي بتقدر تدخل أحلامي؟

ـ أنا ما بدخلش أحلامك.. أنت اللي بتدخل العالم بتاعي.

ـ يا شريف.. إذا كُنت سامعني ساعدني.. ساعد نفسك.. أنا ما بقتش فاهم حاجة.

ـ القميص.. تحرق القميص.. تاخد كل الإجابات.

ـ مش هاحرق القميص من غير ما أفهم.

ـ أنت بتأذي نفسك.

ـ لو ما فهمتش هاسلّم القميص ده.. إضافة تهمة سرقة لجريمة قتل مش هتفرق كتير في تُهمك.

قلتها بنبرة حادة عالية قبل أن يَسود الصّمت مع آخر كلماتي بوقعه المزعج.. صفّارة السُّكون في غرفة معزولة تجعل منك أصم.. هدوءه المُباغت أقلقني فرجعت خطوة كافية لضغط مقبس النور.. أضيئت الغرفة كَسرًا من الثانية قبل أن ترتعش لمبة النيون وتنطفئ.. شريف كان جالسًا على سَريره ينظر نَحوي.. ثم تحرَّك.. سَمعت صَرير السرير قبل وقع مُلامسة خطواته الأرض.. اللعنة على لمبات النيون.. مع الومضة الثانية لَمحته بَعيدًا عن سَريره خطوة.. على بُعد ثلاثة أمتار منّي.. شريف لم يبد على ما يرام.. الغَضب كان يعلو وجهه أو هكذا خُيِّل إليّ.. لم تسمح لي الظلمة بالتدقيق.. أنزلت المقبس ورفعته ثانية فأنّت اللمبة بأزيز متقطّع وطقطقة مَوت الـ«Starter» قبل أن تنبض بضَوئها الأزرق لكَسر آخر من الثانية.. بات على بُعد مترين منّي.. لا أتحدث هنا عن شريف..

أتحدث عن الشخص الآخر الذي يقترب منّي..

شخص أطول من شريف وأعرض.. خَمري البشرة عريض

الصدغ!! هكذا لمحت قبل أن يندفع الأدرينالين ساخنًا من فوق كليتيّ في جنون أسعر خلاياي وحرقها جزعًا.. رفعت الزّر وأنزلته ثالثة وانقضضت على مقبض الباب أجذبه بهستيريا.. بالطبع كان يُفتح من الخارج فقط في عنبر العزل! ألصَقت ظَهري بالحَائط جَاحظ العَينين جُوعًا للتفاصيل.. وَمضة أخرى لم أره فيها! الغرفة كانت خالية!! العَصب البَصري لم يكن ليتحمل ذلك التتابع السريع للظلمة والنور.. لكن الغرفة كانت خالية!! ومضة إضافية برقت فوجدته على بُعد متر منّي.. ذلك كان شريف! أو نائل!! تحرّكت الكهرباء على جسدي برعشة غير معهودة.. لم يكن خِدَاع بصر ولا تخاريف نيون يَحتضر!! مع الومضة الأخيرة أصبح أمامي.. رجل في الأربعينيات قوي البنية.. شعره منسدل يصل قرب كتفيه.. لحيته مشذّبة مُدببة.. وعيناه! عيناه قاسيتان تحملان حزنًا وهمًّا لم يكن ليتحمله إنسان.. عضلاته مفتولة وقبضته التي اعتصرت رقبتي أصابعها غليظة قاسية.. ذراعه التي دفعتني للحائط كانت ذراعًا قوية لم تشبه ذراع شريف الهزيلة سوى في الوشم المنقوش فوقها.. الوشم الذي يتحرك بهدوء.. وَمضات النيون وطقطقته أصبحت بأهميّة دخول وخروج أنفاسي.. وسيلة أرى بها على الأقل من الذي سيقتلني! فيما عدا ذلك كنت أعمى بين يديْ وحش يرفعه من على الأرض سنتيمترات قبل أن يَسحقه.. القبضة لم تكن هيِّنة لتصدُر عنّي حتّى استغاثة.. فحنجرتي مهْروسة في قصبتي الهوائية.. وعيناه لم أدرك لونهما لكنه كان يرمقني.. بحبّ!! لم تكن تلك مشاعر

بغض أو كراهية.. كانت شيئًا أقرب للعتاب!! دَنَا منّي بعد وَمضتين إضافيتين فميّزت في قبضته التي تُمسك بي خَاتمًا عَتيقًا ذا حَجَر أسود مربّع.. صَعدت إلى وجهه فالتقطت تفاصيل فمه الواسع تحت أنفه المدبَّب وجَبهته العَريضة المُستوية فوق حاجبيه الكثيفين البارزين.. وسيم القسمات صنّفته رغم ضيق أوعية رقبتي التي أضعفت نور عينيّ.. بدأت الحياة تتسرّب من فمي.. من بين أصابعي.. أسترخي.. أستسلم.. أذوب كثلجة فوق نار.. صَرخْت بفحيح أفعى تَحتضر.. لو ألحّ عليّ دقيقة إضافية لأقنعني بالتخلّي عن الحياة راضيًا.. ضربت بقبضتي الواهنة صدره.. لوّحت بها نحو ما استطعت الوصول إليه من وجهه قبل أن تصير ومضات النيون أقل بَرقًا.. فلاشات كاميرات باهتة أمام نجم على البساط الأحمر.. فلتهُن الدنيا بما فيها.. آخر ما سمعته حين انحنى بي ليُسجيني فوق أرض الغرفة:

- إن لم تأت بالقميص ستتمنّى أن تلقى حتفك.. ولن تنال ذلك الشرف.

قالها بصوته الأجشّ ثم ارتخت قبضته عن عنقي.. غُصت في البلاط البارد أربعة آلاف متر حتّى رأيت حُطام السفينة «تيتانيك».. ومضت ومضة نيون ميّزت فيها قدميه العاريتين تبتعدان.. شهقت سَحبًا لنفس يَضُخّ الدّم في خَلاياي فلم أستطع.. احتقنت ثانية قبل أن أبصق روحي.. خرج منها ٨٠٪ قبل أن أدركها بالكاد.. أقنعتها بالعدول عن قرارها.. استرددت همّتي ببقايا الأدرينالين

فـي دمي قبل أن أجلـس.. ومضة إضافية مسـحت فيها الغرفة.. لا أثـر له!! جَرَى الدم فـي عروقي مَجرى السّـيل فوق الجبل.. مُنتفضًا اسـتندت الحائط حين ومض النيون فرَأيته جَالسًـا على السَّرير مُستندًا على الحائط كما كان حين دخلت..

شريف!

بدت الغرفة تتّضح رويّدا مع توالي ومضات النيون حتّى ارتعشت اللمبة رعشة أخيرة قبل أن تبث نورها المُستمر في هدوء.. شريف كان ساكنًا كما هو.. شاردًا كما هو.. مُلتصقًا بالحائِط يرمق الفراغ بعينيه الثابتتين.. لَحظات وانفتح البَاب عن محسن المُمرّض.. وَجدني على الأرض أرمُق شريف فتيبّس استغرابًا لثانية ثم انحنى يلتقط ذراعي..

ـ دكتور! أنت كويّس..؟!

هزت رأسي إيجابًا وسَعَلت ثم أجبته بفحيح:

ـ أنا كويّس.. كويّس.

قُمت أستند عليه أرُمق شريف مُرتخي المَلامِح، تُحاصِرني الهَواجس وتَعبث برَأسي الظنون، تُسقيني نَارًا وشُكوكًا لا حَصْر لها، اقتربت من شريف مُستغلاً حَضرة مُحسن حين لاحظت عَينيه الميّتتين!! خَوض حديث مع الشخص الخطأ لن يُجدي! طلبت من محسن كوب مَاء قبل أن أستبدل كارت الذاكرة في جهاز التسجيل..

ـ شريف!!

لم يعرني أدنى انتباه! أغلقت الباب ورائي مُحاولًا السيطرة على رعشة أعصاب أصابت يدي، طلبت من مُحسن إخراج شريف صَباحًا من غرفة العزل، حتّى يتسنّى لي متابعته أربعًا وعشرين ساعة بكاميرا المراقبة، ثم جررت سَاقيّ حتّى غُرفتي، ارتميت على الكُرسي أتحسّس رقبتي التي انبعجت كعُبوة بيبسي فَارغة، يَغمرني العَرَق ويهزّني نَبض هَادر كطُبول الحَرب، لا أعتقد أن الفيل الأزرق قد رَحل من عُروقي! أتاني مُحسن بكوب قهوة تجرعته دفعة واحدة وطلبت آخر، حاولت لَفّ سَجائري بأصابع مُرتعشة فجاءت مَفكوكة مُهترئة يُريّل التبغ منها، سَحَبْت النيكوتين إلى رئتي قبل أن أتمالك نفسي نسبيًّا، أغلقت بابي وطالعت نتيجة كاميرا المراقبة شكًّا في الدقائق الماضية، رأيتني أدخل الغرفة قبل أن تبدأ الومضات في البرق، لا شيء أستطيع رصده! أخرجت كارت ذاكرة التسجيل الصوتي وأفرغت ملفّه على الكمبيوتر قبل أن أضع السمّاعة وأنصت، الصمت كان مُسيطرًا لوقت طويل قبل أن أسمع الخبط، صوت رتيب مُتكرِّر أشبه بخبط شيء في جدار، دقائق والتقطت صوت شريف، كان خافتًا مُختلطًا جعلني ألصق السمّاعة في أذني، يتحدث! يرتّل كلمات لم أميّز منها شيئًا، يكلّم نفسه، اللعنة على أجهزة التسجيل، ظلّ صوته يزنّ قبل أن يتوقف فجأة ويضطرب الميكروفون ويُصدر طقطقة..

يحيى..!!

النداء جاء هَادرًا مُباغتًا ملاصقًا للميكروفون، صرخ في طبلة أذني فمزّقها، أبعدت السمّاعة لا إراديًّا قبل أن أخفض الصَّوت وألصِقها بأذني ثانية.. ساد الصمت لحظات ثم بدأ يشدو:

الحَيّ في حِجْره بيّت ما رَقَد..

عِينه من قُصّتها وضيِّ الحَلَق..

الحَيّ في حِجْره بيّت لم ينم..

عينه لِسوّتها ولتحت الحزام..

الحَيّ في حِجْره بيّت ووَصَل..

عينه لرسمتها ولحُقّ العسل..

ظلّ يكرر أغنيته الغريبة بصوت تحشرج مع الوقت ونفس تهدّج واقترب من البكاء ثم سمعت الباب يُفتح، اضطرب الميكروفون بين يديه قبل أن أسمع صوت سامح يقتحم التسجيل:

ـ صباح الخير..

لم يجبه شريف.. أخفى التسجيل في ملابسه أو تحت الوسادة.. عرفت ذلك من تخبّط الميكروفون والصوت الذي خَفَت بغتة.. أردف سامح:

ـ أنا استلمت القضية من صاحبك.. حبيتك تعرف.

قابل شريف كلمات سامح بالصمت..

كانـت حلوة منّك حركة الطرطرة اللي عملتها.. جنان جنان يعني.. جنان يمشـي مع واحد مُبتدئ.. أو واحد ناسـي الشـغل زي صاحبك.

ـ ...

ـ مافيش داعي للسكوت أنت ما عندكش سبب عُضوي.. تقرير الطب الجنائي مخلّص ومشاور عليك.. أنت اعتديت عليها قبل ما ترميها وده مُثبت من العينات.. يعني كنت مَعاها لآخر لحظة.. القضية مَحسومة أنا مش عارف أنت بترفّس على إيه؟ المحامين دول ولاد كلب.. مش عارف بيحللوا اللقمة إزّاي!!! وبعدين أنت دكتور! عيب!! من إمتى الكلام الفاضي ده بيخيل علينا في العباسية!!

ـ ...

ـ إحنا لوحدنا هنا.. حتّى لو ما قلتش أنا هاقول إنّك قلت!! إيه؟ هايكدّبوني ويصدّقوك!! احكي ويمكن أفكّر أساعدك.. إحنا زملا برضه وأنا ما يخلصنيش يطلع واحد مننا قاتل.. مَجنون آه.. بس مش قاتل.. دي سُمعة وبتلزق.. «Stigma».. شريف بُص لي هنا.. إيه! صَاحبك فطّنك ما تتكلمش معايا؟ صَاحبك ده غشيم.. فاشل.. عُمره ما عرف ينجح في حياته.. غَبي ومغرور وسكران

ما بيفوقش.. ومش هيطلّعك من هنا غير على الإعدام.. عندك استعداد تفضل ماشي وراه؟

الصمت ظلّ مُطبقًا مُسيطرًا..

ـ رُدّ عليّا زي ما بكلّمك.. أنت مش مصدّق إن صاحبك خلع من القضية هه؟! أنا كان في إيدي أقول للإدارة إنه زميلك وفيه كلام ما بينكم.. بس أنا جَدَع.. عشان تعرف إنّ مش مصلحتي إنّك تتأذي.

ـ ...

ـ كده! طيب.. مَاشي.. بَس عَارف.. اللِّعبة اللِّي حاصلة دي مش هتعدّي من تحت دقني.. إذا كان البيه بيظبَّط مَعاك عشان تخرج فأنت تنسى.. أنت مش خارج من هنا غير على الإعدام.. ورَحمة أمّي ده اللي هيحصل لو ما اتكلّمتش.. سَهْل جدًّا التقرير يمشي في السكّة دي وأنا أعرف أكتب تقارير إزّاي.. عَدَّى عليّا هنا ألف واحد زيّك.. ولا واحد خيّب ظنّي من أوّل نظرة.. أنت «Fake».. حتّى مش عارف تظبط الأعراض.. وأنا هاعرف أثبت إنّك «Fake».. إن شالله تقعد سنة هنا.. «Fake»..

ـ أنا قتلتها..

تلك المرّة صَمَتَ سامح.. أكاد أتخيل مفاجأته.. ومفاجأتي من ردّ شريف الصَاعِق..

ـ جميل! بدأنا نفهم بعض.. احكي..

- خانتني! قتلتها.. أي حد مَطرحي كَان هيعمل كِده..

- تفاصيل؟

- عذّبتها أسبوعين.. ولو رجع بيا الزمن هاعمل كده تاني..

- يعني أنت مش عيّان؟

- مش عيّان..

- يحيى يعرف الكلام ده من إمتى؟

- يحيى هو اللي قال لي أعمل كده في أوّل قاعدة في المستشفى.

- عشان تخرج على الخانكة! مُقابل؟

- هي دي المشكلة.. يحيى طلب أجوزه أختي.

- تجوّزه أختك؟

- يحيى متيّم بيها من زمان.. قصّة قديمة عُمره ما نسيها.

- أنا كنت حاسس إن فيه حاجة غلط!!

- هو ما يعرفش.

- يعني إيه ما يعرفش؟

- يحيى عنده «Schizophrenia» من ساعة حادثة مراته وبنته.. مش مِصدّق إنه اتّفق معايا على حاجة.. بيكلّم نفسه طول ما هو قاعد مَعايا ويدّعي إني أنا اللي باكلّمه..

- «Schiz»؟

- أنا دكتور وعارف الأعراض.. يحيى بيكلّم نفسه من تليفونه ويرد على تليفوني.. بيتهيأ له إن حدّ بيكلّمه.. مُتخيّل إنه هو اللي اختار العنبر وحالتي.. حتّى ناسي إنه سمع الموضوع بتاعي من الجرايد قبل ما يرجع.

- وأنت ليه بتعترف لي؟

- لأنه هددني بالقتل لما قلت له إن مش هينفع أجوّزه أختي.. لأنها متجوزة! يحيى وصل للجنون.. يِعملها.. هيقتلني لأن فيه تار من ساعة ما رفضت أجوّزها له.. أنا كده كده ميّت..

هنا أوقفت التسجيل.. كان عليّ استيعاب ما سمعته قبل أن أفقد أعصابي فأكسر طرف ضرس أو أعضّ لسانًا أو أفقأ عينًا!!

مَا الذي يفعله ذلك المجنون! ما الذي يَعرفه عنّي؟

قُمت من الكُرسي مَلدوغًا.. جُبت الغرفة كأسد هرم سَقط شعره.. يتحاشى كُرباج مُروّضه.. أسد بلا أسنان ولا براثن يُدخّن كقطار نهم للفحم.. اللعين يلكزني أمام أعتى أعدائي وأكثرهم تفاهة! بلا تفسير! لا.. هناك تفسير.. مَريض جُنون الاضطهاد يظن في كل من حوله السوء.. قد يتّهمني باغتصابه جنسيًّا أو تسميم طعامه.. أو حتّى تهديده بالقتل!

بالكاد جلست ثانية ونقرت زرّ التشغيل..

ـ ما تخافش..

ذلك كان سامح يُطمئن شريف، يحتضنه تحت إبطه العرقان، يَشمت فيّ ويقيم الأفراح والليالي الملاح على شرف فضيحتي الآتية، يبني قصرًا من الآمال المتعلّقة بشنقي حيًّا على باب المستشفى..

بالطبع لن يجد فرصة أسنح من تلك!!

ـ حافظ على هدوئك.. ما تتكلمش مَعاه.. لو جالك ارفض التعامل واطلب مقابلة رئيس القسم.. واطلب منّه يسحب ملفك من عند يحيى وما تذكرش السبب.. يحيى مش هيقدر يحكي اللي بينك وبينه.. وأنا هاتصرّف.

انتابتني رغبة عارمة لرؤية وجهي الذي لُطِم.. قِراءة الغَضَب في مَلامحي حتّى أطمئن أنّي موجود.. بَحَثت عن مِرآة فلم أجد.. أخرجت تليفوني ونظرت في شاشته.. أنا.. أنا أعرفني كما أعرف «ولد» أوراق الكوتشينة!

سأقتله..

هكذا خرجت منّي.. وهكذا ذكرها شريف في التسجيل عن لساني.. أنّي سأقتله إن لم يزوّجني أخته..

ارتعشت يدي واختلجت عيني لمّا تذكّرت جملة د. كيلاني

«أنا مش بقول إن الـ«Psychiatrist» مُستحيل يمرض.. بس ياما شُفنا ألاعيب..».

أعرف عن نفسي الكثير..

أنا الجندي الذي تلقّى رصاصة في مَعدته ويُشاهد احتضاره «Exclusive» دقيقة بدقيقة بلا إعلانات..

أنا الصّدر المُحترق نِصفه بدخان السجائر والنصف الآخر حريقه لُبنى..

أنا الذي لم يبك زوجته.. ولم يَحلم بها مَرّة..

أنا الذي لا يجرؤ على تذكُّر ابنته..

أنا فُتات إنسان يتظاهر أنه على قيد الحياة وهو ليس كذلك..

أنا الذي يتنفس ويأكُل وينَام بقوة الدفع..

أنا ساعة بدون عقْرب..

أنا يُونس في بطن حُوت كافر لن يَلفظني عند جزيرة..

أنا الذي يمارس الجنس فَصدًا كفصد دماء الخيل حتّى لا تنفجر أوعيته ضغطًا وحرمانًا..

أنا الطعام بلا ملح..

أنا الذي ينتظر لحظة الإظلام الأخير في مسرحية مُمِلة من تسعين فصلًا..

لحظة نزول الستارة الحمراء.. بلا تصفيق..

ضغطت زر التشغيل ثانيةً، خرج سامح من الغُرفة وأغلق الباب فوقع الصمْت، صمْت ثقيل لزج ككرة صمغ حُشرت في حلقي، أستطيع الآن توقّع ما حدث، خرج سامح من العنبر قاصدًا مكتب المديرة، حكى لها ما حدث قبل أن تنهاه عن تلك الأفكار المُربِكة، ثم تسمع حكايته ثانية تحت ضغط إلحاحه، ستنزل نظّارتها من فوق أنفها حين يدبّ الشكّ في قلبها، ثم تُداعب القلم بين أصابعها حين يتمكّن اليقين من قلبها، ستصرفه بهدوء وتفكّر ساعة ثم تؤجّل حركتها إلى اليوم التالي، ستتصل بي تستدعيني وتُجلسني أمامها ثم تواجهني بالمعلومات المتوفّرة لديها بروح ناظرة مدرسة ثانوي، سأنكر ما قاله سامح كما أنْكَر «بُطرس» معرفته بالمسيح، قبل أن أحكي لها عن أسطورة حِقده الدفين ورَغبته القديمة في زوجتي نرمين، رغبته التي تحولت من منافسة ذكورية إلى ثأر صعيدي وكَرامة مُهدّدة، لن تقتنع ١٠٠٪ بكلماتي لكن الشكّ سيتسرب إلى قلبها بشأن سامح، ستكتفي بتحذيري من خلف نظارتها قبل أن توصيني بالنوم لما تلحظ السواد الكامن تحت عينيّ.. تمّت..

قاطع تكهناتي صوت دخولي غرفة العزل في التسجيل.. استمعت لكلماتي وأنا أخاطب شريف.. صوتي ظاهر واضح أتحدّث.. وهو لا يجيب! صوته لم يُسجّل على الجهاز!!

فقط كلماتي وارتطامي بالحائط وحشرجتي فوق البلاط!!!

أنا أعرف نفسي..!

جيدًا..!

خرجت من العنبر إلى براح المستشفى، تَمشّيت وسط الأشجار أنزف ما تبقّى من التّبغ في جَيبي، اتّجهت إلى المعادي بعَقل خَاوٍ، عقل يُعاني بَلَهًا تدلّت منه ريالة أفكاره، رجوعي البيت أصبح بثقل سيارة نقل بمقطورتها فوق قلبي، رائحة مايا تُحاصِرني كسِرب نَحل شَرِس! كان عليّ أن أستقر عند شخص لا يسألني من أنا، كما كان عليّ الحصول على كأس في أسرع وقت..

لم ألحظ من قبل أنني لا أملك أصدقاء بالمعنى الحرفي للكلمة!

حين أسندت رُسغيّ على مائدة عوني تَعطّل عَقلي عن العَمل، كان هناك خمسة أشخاص بينهم شاكر، تفرّقت الأرقام والأسرة المالكة بيننا وانهمكت في الاصطياد، أوراق الأميرات كانت لُبنى، بسمة ومايا، قلب أحمر، بستوني وتريفل! ورقة لُبنى كانت تجاور ورقة شايب «كومي»، يلتصق بها شاهرًا سيفه في زهو كأنه خالد لن يموت، وورقة بَسمة التصقت بأمير قلبه أحمر، وجهه يحمل عنفوانًا وجنونًا، ومايا، كانت بلا أمير، حُوصرت بورقتين أرقامهما فردية!!

حين انتبهت للجالسين حولي كان أربعة قد انسحبوا، لم يبق غيري وشاكر، الجولة الثالثة بيننا، رَمَقني من رُكنه بِغِلّ وكراهية وحذر مُترقّب، اللعين يبحث عن ثَأر لن يناله ما حيا، عيناه المرتعشتان قالتا ذلك، أصابعه المضطربة أعلنت عن نفسها، حاول إرهابي برفع الرهان فرفعته ضعفين، لَحظات من الصَّمت الصَّاخب مرّت قبل أن أُلقي أوراقي على الجُوخة الخَضراء، أكملت «Three of a kind»، ثلاث فتيات وورقتان ٧ و٨، دَفن

شاكر سيجارته ونظر لي بأسى قبل أن يُرخي قبضته بأوراقه، «Straight»! نطقها عوني، تتابُع ٤ ـ ٥ ـ ٦ ـ ٧ ـ ٨، يد أعلى من يَدي!! كيف فعلها؟ انكسر سيفي وأُسِرَت فتياتي فتهلّل وجه شاكر بنصف ابتسامة شامتة، أغمد سيفه في قلبي فترنّحت قبل أن يَحوط مَالي بذراعيه ويَسحبه لركنه..

تذكّرت الحصّالة التي اشتريتها لنور ابنتي يومًا، بيت أحمر صغير تضع أمامه عُملة معدنية فيخرج كلب بلاستيكي «يدلي لسانه» ليَسحبها إلى الداخل! الكلب كان يُشبه شاكِر.. ووجه نور لمّا انتابني اختنقت فقُمت..

ـ أنا ماشي..

ـ ما لسّة بدري يا دكتور!

غرزها شاكر بين ضلوعي سخرية ولم أجد في نفسي العزم لردّها.. قُمت خالي الجيوب متهدّج النفس وانسحبت.. قبل أن أصل الباب استوقفتني «نيجوزي» تتلفّت حولها خشية عوني..

ـ نعم..

ـ «Please take that»..

قالتها والتقطت كفّي ووضعت فيه لفافة بحجم علبة سجائر..

ـ إيه ده؟

ـ «Please put it around your neck to protect»..

ـ يا ستّي أنا ما بعلّقش حاجة في رقبتي.. «I don't put something in my neck».. اتّكلي على الله.. الله يبارك لك..

ـ «Please».. أنت أيّان.. مِحتاج هي.. أنت دفأت فولوس «Last time».. فيفتي باوند..

ـ عيان إزّاي؟

ـ «Your eyes.. I can see into it»..

ـ عينيّا؟

ـ نيجوووزيييي..

ذلك كان عوني ينادي جاريته السمراء.. تركت اللفافة في يدي وهرعت لتلبي نِداء سيدها وهي تبتسم لي ابتسامة ودّ.. وشفقة..

في المصعد فضضت الورقة الملفوفة، بداخلها كانت هناك سلسلة مُعلّق فيها كيس صغير رائِحته بخور!

نيجوزي تُحلّل لُقمتها بحِفنة بخور من خان الخليلي في الحسين، سأبدو مُطربًا تافهًا بلا معجبات حين أرتديها..

ماذا رأت «نيجوزي» في عينيّ لتداويني؟ لم أُحبّ الإجابة التي صَرَخت في صَدري..

لا.. لست مريضًا!

ردّدتها بلا صوت..

ردّدتها بشكّ!!

كلمات شريف تضرب أعصابي بمطرقة حديدية.. تشْرخ قناعاتي.. تهدمها.. لقد قلتها يومًا للُبنى.. «مريض الضلالات صعب أن يتزحزح إيمانه بما يؤمن به..».

في مطبخي تجرّعت زجاجة بيرة وأنا أجتر تلك الحقيقة، ظللت متيبسًا كتمثال أثري ولم أدر بنفسي إلا وأنا أسدّد بعزم قوّتي الزجاجة نحو هرم الزجاجات الذي تعبت في إنشائه، فَرقعة عالية أصمّت أذنيّ وطيّرت الشظايا في وجهي قبل أن ينهار الهرم بدويّ صارخ فوق البلاط..

لست مريضًا..

لا أعرف كيف نِمت ومتى!

حين استيقظت كنت راقدًا في الطرقة قرب باب الحمّام.. أيقظني جرس تليفوني.. رقم المديرة كان يتذبذب..

ـ ألو..

ـ يحيى.. صباح الخير.. أنت فين؟

ـ في البيت يا دكتورة..

ـ تقدر تيجي دلوقت؟

ـ فيه حاجة؟

ـ عندنا مشكلة.. مستنياك.. بسرعة يا يحيى وحياتك..

قالتها وأغلقت الخط، جلست مستندًا الحائط دقائق قبل أن أنفض ديناصور الخدر الجاثم على ظهري وأقوم، غسلت وجهي أمام مرآة الحمّام قبل أن أبحث عن شيء حقيقي فيه، شيء يشعرني أنّني أصلي، لم أجد! شممت تحت إبطي فخلعت قميصي لأستحم، لامست الغرز القديمة أسفل ضلوعي ولم تقنعني! ظللت تحت الدُّش نِصف ساعة حتّى رنّ الجرس، جرس تليفون شريف! أغلقت حنفية الدُّش والتقطته وأنا أتمّم على تليفوني الساكن بجانبه، تأمّلت شاشتي الصامتة، ولم أكتفِ بذلك بل فصلت البطارية قبل أن أستقبل المكالمة الواردة على تليفون شريف..

ـ ألو..

ـ أيوة يا يحيى..

ذلك كان صوت لُبنى..

ـ قلقتني عليك بكلمك من إمبارح على تليفونك ما بتردِّش.. أنت كويس؟

تنفّست الصعداء..

ـ معلش.. قطع شحن..

- فيه أخبار؟

- ...

- مالك؟

- ما ليش..

- صوتك مش طبيعي..

- مش طبيعي! أنت شايفاني طبيعي؟

- يعني إيه؟

- باتصرّف بشكل طبيعي وأنا قاعد معاكي؟

- أنا مش فاهمة حاجة! إيه اللي حصل؟!

- ...

- يحيى!! أنا عاوزة أشوفك ضروري.

- أنا رايح المستشفى دلوقت.. هاكلّمك لمّا أخلّص.

- خد بالك من نفسك.

أغلقت الخط وقذفت نفسي في تاكسي، لم تمر ساعة حتّى أصبحت في المستشفى، بعد بِضعة مَبانٍ صادفت عمّ سيّد، هائمًا على وجهه يكحت الأرض بقبقابه الذي بات سُمكه ورقة، توقّف في نهر الطريق حين رآني، يتأمّلني بابتسامة غريبة، سَرَت قَشعريرة في جلدي لمّا تذكّرت وجوده بجانب الشجرة في بيتي..

ـ إيه اللي موقّفك في نُص الطريق يا عم سيّد! امشي على جنب عشان العربيات.

ـ مستنّيك يا دكتور.

ـ معلش يا عم سيّد.. عندي معاد في الإدارة.

ـ معادنا كان عند الشجرة.

ارتعدت رغم الحرّ.. توقّفت ورجعت خطوتين..

ـ شجرة إيه يا عم سيد؟!

ـ أنا عاوز منّك خِدمة.. توب قُماش وشويّة خيط وإبرة كبيرة.

ـ حاضر يا عمّ سيّد.. بَس شجرة إيه اللي مَعادنا عندها؟

ـ شجرة الكافور!

ـ المقطوعة؟ اللي في جنينة العباسية؟

ـ هو فيه شجر بيطلع في البيوت يا دكتور!

نظرت في عينيه الفارغتين من الكلمات، أسبره، أنقّب عن حلم، زيارة بلا ميعاد، أو فيل أزرق يتجوّل بلا قيد، ابتلعت ريقي لمّا لم أستقبل منه أيّة إشارة قبل أن أبتعد..

ـ ما تنسانيش في القماشة يا دكتور.. والخيط والإبرة..

أمام مَكتب المُديرة جلست أنتظر أوّل طلقة هُجوم حتّى لا أتّهم دَوليًّا بالتعدّي.. تهزّ ساقيها بتوتّر.. تعتصر قلمًا.. تنتظر شيئًا..

ـ خير يا دكتورة؟! سألتها..

ـ خير يا يحيى.. مستنّية بس دكتور كيلاني عشان يحضرنا..

اصطَنعت اللامبالاة مُلقيًا عينيّ خارج النافذة حين دلف دكتور كيلاني إلى المكتب، نظر في وجهي قبل أن يُصافحني ويجلس في مُواجهتي، ثوانٍ من الصمت تبادلا فيها النظرات قبل أن يفتتح دكتور كيلاني المُحاكمة..

ـ يحيى حصل حاجة إمبارح كنت عاوز أكلّمك فيها..

تركته يحكي ما سمعته مُسبقًا في جهاز التسجيل، مُتصنعًا دهشة ممزوجة بلا مبالاة، فمعرفتهم بجهاز التسجيل الذي دسسته والكاميرا في العنبر وغرفة العزل يمثّل:

انتهاكًا صارخًا لقانون الأمانة العامة للصحة النفسية وحقوق المساجين وهو...

وهو شيء يعني لي «Nothing»!!

لكنه سيؤكد هواجسهما التي تحوم فوق رأسيهما من ناحيتي!

ـ رأيك إيه في الكلام ده يا يحيى؟

الإنكار دائمًا وأبدًا كان الاختيار الأفضل! بثقة رجعت بظهري إلى الكرسي وتجنّبت حَكّ أنفي، فخلق الكذب يستوجب تركيزًا يضطر من أجله الجسد إلى ضخ كميات إضافية من الدماء بين الجبهة وطرف الأنف!

ـ رأيي إنه كلام فاضي.. شكوى كيدية من واحد حاقد..

ـ لكن أنت تعرف شريف بالفعل؟

ـ أعرفه..

ـ لما سألتك قبل كده قلت ما أعرفوش!! سأل دكتور كيلاني..

ـ ما كنتش فاكره.. شكله اتغيّر عن أيّام الكلية..

ـ ماشي!! طب وموضوع أخته؟

ـ حضرتك تصدّق كلام زي ده! أنا هاهدّد حد عشان أتجوز أخته المتجوّزة!

ـ أنا ما حكيتش إنّها متجوّزة!!

اللكمة جاءت في كبدي مُباشرةً، انسحب الكرسي من تحتي فوقعت في بئر لا مياه فيه، عَرقي سيكون كافيًا ليملأه بعد قليل، لا إراديًّا ابتلعت ريقي وسحبت نفَسًا أتّزن به..

ـ ما هي أكيد متجوزة! إيه المعنى إنّي أطلب منه حاجة مُمكن أعملها من غير ما أهدده!

ابتلع الرجل حُجّتي بكوب ماء ورغيف عيش.. كان عليّ تكثيف اللكمات على فكّه ليتهاوى أمام قصّتي المهترئة كثيرة الثغرات..

ـ كل ده تأليف.. أنا قُلت لحضرتك قبل كِده إن شريف حالة فِصام.. وشكّيت في ازدواج وحضرتك ما صدّقتنيش..

ـ تاني ازدواج يا يحيى!!

ـ أنا شفت ده بعيني يا دكتورة.. عارف إنها حالة مش مصنّفة في الطب دلوقت.. لكن فيه دايمًا استثناء..

ـ تقييم سامح عن الحالة بيقول إنه اتكلم معاه طبيعي ومافيش فصام...

ـ سامح قعد مَعاه مرة واحدة بس.. ده غير إنه مِش مُحايد.. هَمّه الأساسي يثبت إن شريف سليم.. وإني نصّاب..

ـ «Conspiracy Theory».. سامح مضطهدك؟

ـ مش نظرية مؤامرة يا دكتور ولا اضطهاد.. سامح شايل بسبب مشاكل قديمة أنا في غِنى عن الكلام عنها.. بيدخّل الحياة الخاصة في الشغل.. من الآخر ما بيقبلنيش..

ـ خرّج سامح من الموضوع ورُدّ عليا بوضوح.. أنت فعلًا مالكش علاقة بشريف؟

ـ زميل دراسة وما يفرقش بالنسبة لي..

تدخّلت دكتورة صفاء..

ـ ولا أخته؟

ـ أنا قلت لحضرتك إن...

قاطعتني:

ـ الأمن بيقول إن فيه عربية دخلت مِن كَام يوم الساعة حداشر بالليل.. بطاقة باسم لُبنى الكردي.. كانت داخلة زيارة ليك.. وكنت سايب لها خبر على البوابة..

تلك كانت ضربة تحت الحزام، تخلّل الصّمت فراغات الغرفة وضاقت الحوائط من حولي فجأة، دكتور كيلاني جهاز «X-Ray» يمسح عِظَامي بَحثًا عن شرخ، والمديرة، راصد زلازل سيتوتّر مُؤشره مع أوّل هزّة منّي، التزمت الصمت قسرًا حتّى بترت المديرة السكون:

ـ يحيى.. الخمس سنين اللي فاتوا كنت فين؟

نظرت للساعة المعلّقة على الحائط أنتظر منها أن تكُفّ عن الدوران.. أو أن ينزل عقربها فيلدغهما معًا لأرتاح..

ـ كنت في البيت..

ـ خمس سنين انعزال أنت مدرك ممكن يعملوا إيه في أي حد؟

قاطعتها:

ـ أنا مش مريض يا دكتور..

ـ أنا ما قلتش إنّك مريض يا يحيى.. بس إيه إنجازك في خمس سنين فاتوا؟

ـ إنجازي إنّي فضلت عايش...

ـ يمكن رجوعك المستشفى ما كانش مناسب في الوقت ده؟!

ـ كويس إن حضرتك أخدتي بالك إني رجعت بناء على جواب المستشفى..

ـ أنا مش باشك فيك يا يحيى.. بس أي حد حصل له تجربة زي تجربتك وارد يكتئِب.. تفكيره يبقى مش مظبوط.. يضرب! ممكن.. فيه ناس بتخرج من الحالة تدريجيًّا.. وفيه ما بيخرجوش..

ـ وأنا ما خرجتش؟!

ـ ده اللي أنا شايفاه.. وده أحسن من إنّي أفكّر في أفكار مش هتعجبك..

ـ أنا ما خالفتش القانون يا دكتور..

ـ هتخالفه.. ألقاها د. كيلاني..

ـ حضرتك صدّقت سامح؟

ـ الشواهد هي اللي تخليني أصدّقه.. ليه أنكرت زيارة أخته للمستشفى؟

ـ أنا ما أنكرتش.. جت تطّمِن منّي..

ـ يعني فيه اتصال بينكم؟

ـ فيه اتصال..

ـ وهي...؟

ـ بتطّمن على أخوها وبس..

ـ أنت بتشرب يا يحيى؟ سأل دكتور كيلاني..

ـ وده إيه علاقته بالموضوع؟

ـ متهيأ لي أنت عارف الشُّرب بيعمل إيه!

ـ دي حاجة تخصّني..

ـ سامح حكى لي عن مكالمة التليفون في العنبر.. أنت خلّيت متهم يعمل مكالمة مش مسموح بيها..

تلقّفتني صفاء بعدها بلكمة خطافية أسفل ذقني أنهت حلم بطولة العالم «وزن ثقيل» في الكذب قبل أن أسقُط خارج الحلبة..

ـ اللي حصل ده يا يحيى كفيل إني أرفع الموضوع للأمانة العامة.. يعني تتفِصل.. دي نهاية أنا ما أتمناهاش.. بس أنت بتجبرني على ده..

لماذا يتحدّث الشرير في السينما مع البطل «لحظة الذروة» شارحًا له لماذا وكيف سيقتله، ومدى استمتاعه بما يقوم به؟ لم لا يقتله ونترك الشر ينتصر يومًا؟! نظرت في وَجهها مُنتظرًا لحظة تركها لحبل المقصلة لينزل النصل فوق رقبتي..

ـ ما حصلش إن حد اترفد في وجودي.. مش عاوزة يتقال عنّي إنّي كنت السبب في تدمير مُستقبل.. بخلاف إن لسّه مرجعاك.. أنا هاكتفي بنقلك من ٨ غرب.. هانزّلك في شيخوخة ٢٦.. قسم هادي ومشاكله قليلة.. هترتاح فيه..

لم أكن أملك حق التفاوض.. هززت رأسي مؤمّنًا على كلماتها وقمت زحفًا للباب حين استوقفني د. كيلاني..

ـ يحيى.. آخر واحد بيعرف إنّه عيّان هو المريض نفسه..

كأنّني كنت أحتاج كلماته!

سَحبت لرئتي نفسًا لن أزفره وخرجت، خرجت على حِمار يجوب شوارع المستشفى! حافي القدمين أجلس فوق ظهره مقلوبًا، الطرطور الأحمر فوق رأسي، والبيض النيء والطماطم تتراشق صَوبي، مَكتوب على جبيني أحمق بخط واضِح،

والمرضى يتسابقون في التنكيل بي سبًّا وتهليلًا، لَمَحت سَامح وسط الزفّة يوزّع العُملات الذهبية من صرّة أخرجها من كرشه، وشريف يرمقني بابتسامته الساخرة من بين حديد القضبان..

في طريقي للبيت انتابتني حالة اللامبالاة التي نهشتني منذ سنين، حواسي الحيوية انسابت تدريجيًّا من بين ضلوعي، كالمياه تنسل من بين أصابع الكفّ، استوت عندي نجوم السماء بمصابيح السيارات، اشتعال سيجارة بحريق القاهرة، الموت بالحياة! لا شيء يُبهرني، لا شيء يُثيرني، حتى الألم المُزمن الذي اعتدته أصبح لا يؤلم، حتى لمّا ماتت مايا! ماتت! من الذي قد يؤذي جَسدًا ميّتًا؟! من الذي قد يهين زومبي في فيلم رُعب بصَفعة على الوجه! أو يجرح مشاعر ضبع من ضباع ناشيونال جيوجرافيك؟!

كطائرة تعمل بالطيار الآلي تبضّعت تموين الشهر، كرتونتين بيرة وزجاجة «Jack Daniel's» وكيلو بُن غامق وبعض المُعلّبات الغارقة في المواد الحافظة لزوم استمرار الحياة، جلست على كنبتي وفردت ساقيّ فوق منضدة وأدرت التلفزيون، المُطاردة كانت حامية، ثلاثة ضباع تُطارد جَاموسة، يركضون خلفها وابتسامة السخرية الواثقة تعلو فكوكهم، المُصوّر يُركّز على

تفاصيل أرجلهم الخلفية القصيرة، الشعر الأصفر الخشن فوق رءوسهم، الرُّقط السوداء على الجلد وعيونهم المشعّة جشعًا فوق الأنياب المتحفّزة، النذالة حين تتجسّد! بعد مُطاردة طويلة حَلّ التعب بالجاموسة، حاصروها فتوقّفت حائرة حتّى تقدّم اثنان وغرزا أنيابهما في قدميها الخلفيتين، لَوت الجاموسة رقبتها ألمًا ورفستهما قبل أن يقفز الثالث فوق ظهرها، تكالبوا عليها عضّا حين جرح أحدهم أسفل بطنها فتدلّى جنين في كيسه!! رفعت الصوت لأسمع خوار الجاموسة الحزين، بحلاوة روح رفستهم يأسًا فانفضّوا من حولها فركضت تجر صغيرها بكيسه، يَصبُغ بدمائه العشب من ورائها، تأمّلوها في تحفّز حتّى توقّفت تعبًا، ثم هوت، اقتربت الضباع بلا استئذان، وبدءوا ينهشونها، حيّة! بقروا بطنها وخلّصوا كيس جنينها المُعلّق من مربطه، سَحبه أحدهم بعيدًا وانكب الاثنان عليها كجزارين يسلخون قبل أن يذبحوا، يتلذذون بطعمها الحي، تخور بين أنيابهم يأسًا وعيناها لا تفارقان جنينها الذي يُنهش على بعد مترين، لحظات وأرخت رأسها على العُشب واستسلمت، تركتهم ينهون وجبتهم ولَمْ تُبالِ، ترفع رأسها كل بضعة ثوانٍ تتأمّل جنينها وبطنها الذي يُفرّغ على العشب! ظلت الكاميرا تتابع عينيها حتّى خبت وانطفأت، قبل أن تهبِط النسور..

لم أشعر كم ساعة مرّت وأنا مُلقى على الكنبة أَنهم الشعير وأتابع الحيوانات، الزجاجة فارغة نائمة بجانبي، سبع ساعات

سقطت من ساعة الحائط، وخمسة وعشرون فلتر سيجارة دُفنوا في مقبرة جماعية، ثم وقعت عيناي على القُرص الأزرق فوق المنضدة، تأملت الفيل للحظات أحسست فيها أن صوت نهيمه يناديني، أيبعااااا، سمعته، نعم سمعته!! بل قلّدته ونجحت في الإتيان بطبقة صوته، من السهل التظاهر بأنني فيل!!

أغمضت عينيّ منعًا لتفكيري من المضي في طريق التخلّف العقلي حين نبض التليفون برقم لُبنى، لم أجد في نفسي عزمًا لسماع صوتها، دقيقة وأنهت المكالمة لأجد عشرة اتصالات فائتة من رَقمها! تريد أن تطمئِن!!

ماذا أحكي؟ روايتي أم رواية أخيها، الفيلم الذي مارست فيه دور البطولة، أم الفيلم الذي ألعب فيه دور المجنون! إذا كان أخوها مريضًا بالفعل فمن قتل مايا؟ إذا كنت صادقًا فلماذا لم أسمع غير صوتي في التسجيل!! ولماذا أتّصِل بنفسي على تليفون شريف!! ولماذا سقطت منّي مُحادثات كاملة لم أدر عنها شيئًا!!

أخشى الإجابة كخشيتي رؤية وجهي في المرآة من بعد الحادث، تشخيصي كطبيب مُعالج لحالتي يقول:

«المريض يُعاني من حالة انسحاب اجتماعي مَصحوب بتبلّد في المشاعر يفقده الاهتمام بكل ما حوله «باستثناء الكحول»، تلك مؤشرات واضحة لتضرر مَمرات المُخ العصبية؛ وهو الذي

قد يؤدي لسماع أصوات واختلاق مواقف لم تحدث، وبالتالي، فالأرجح حدوث حالة فصام مَصحوبة بهلوسة، تمّت إثارتها بحبوب «DMT» تحمل رسم فيل أزرق، أثّرت بدورها على مُستقبلات السيروتونين (هرمون تنظِيم المزاج) التي تدهورت تدريجيًّا من تأثير الكحول..».

قرأت التقرير قبل أن أرفع سماعة التليفون وأطلب صيدلية قريبة:

ـ دياكين كروم ٥٠٠ مللي لو سمحت..

دواء لتثبيت المزاج، يُستخدم في حالات الصرع والفصام والاكتئاب والاضطراب ثنائي القطب، سيخفف التدهور في السلوك والتفكير مؤقتًا! لا أصدّق أن نبوءتي بالعودة للمستشفى أصبحت واقعًا، مسألة وقت قبل أن تُحشَر صورتي بين قاطني العباسية، ملفي سيكون مميزًا حين أصبح في عُمر عم سيد!

قاطع كابوس يقظتي جَرَس الباب، لمّا فتحت وجدت أن الليل قد نزل ولم أدرِ، استلمت علبة أقراص «الديباكين» من فتى الصيدلية وأغلقت الباب، ابتلعت قرصًا مع جرعة ماء ولم أصل للكنبة حين قُرِع الجرس ثانية، فتحت فوجدت لبنى واقفة فوق الدواسة التي كانت تحمل كلمة «Welcome» ولم تعُد..

ـ أنا صحّيتك؟

ـ إيه اللي جابك؟

- إيه اللي جابني!!

- أقصد فيه حاجة حصلت؟

- لأ.. قلقت عليك لما ما ردّتش.. أنت كويس؟

«أنت كويس؟»: السؤال الذي حيّر أينشتاين وإسحق نيوتن وابن النفيس مكتشف الدورة الدموية الصغرى!

من أنا لأجد الإجابة، هززت رأسي مُوافقة ولم تقتنع..

- معاك حدّ؟

- نظرت خلفي أتأكّد من رحيل مايا؟

- لأ..

- عندك وقت ناخد قهوة في أي كافيه؟

قاومت رغبة مُلحّة في دعوتها للدخول.. لا أريدها أن تتعرف بمايا في عالم آخر لن أطأه..

خمس دقايق ألبِس..

لم أدعها للدخول ولم أغلق الباب في وجهها، فقط أشعرتها بعدم الارتياح لدخولها، تركتها ودخلت غرفتي ألتقط سريعًا ما أرتديه ثم دخلت الحمّام، شَطفت وجهي وغَسلت أسناني ليخمد عَبَق الكحول المنبعث من معدتي قبل أن أخرج إليها، كانت واقفة في قلب الصالة! تتأمل الشقّة بفضول، تابعتها وهي

تمسح المكان حولها، تتفقد حطام مركبتي التي غرقت منذ سنين وأسكن البحر فوقها أعشابه المرجانية، استوقفها حَوض السَّمك المُتخم بالأوراق، زُجاجات البيرة التي لم أُخفها، والمُستطيلات الفاتحة على الحوائط، المُستطيلات التي كانت تحمل براويز صور زوجتي وابنتي..

ـ معلش المكان...

قاطعتني:

ـ فين الصور اللي كانت هنا؟

ـ شايلهم.. في الدولاب..

نظرتي إليها كانت تحمل رسالة كافية؛ لا تسترسلي.. وفَهِمَت..

ـ العيشة لوحدك صعبة!

ـ صعبة.. بس مُريحة..

ـ مش باين!

ـ أخدت على كِده..

ـ عندك قهوة هنا؟

ـ أنا ما عنديش غير القهوة..

زحفت عيناها لزجاجات البيرة فأردفتُ:

ـ والبيرة..

ـ اعمل لي قهوة..

نظرت للباب المفتوح أحملها على الرحيل..

ـ ما نروح كافيه أحسن..

ـ بلاش..

ـ ليه؟

تردّدت لحظات ثم..

ـ خالد هِنا النهاردة في المعادي عنده «Meeting»..

ـ هو..؟

ـ خالد ما يعرفش حاجة.. عارف! حصل حاجة غريبة.. لقى اسمك على المُوبايل وهو بيطلع رقم.. لقيت نفسي باقول له إنّك عميل من البنك.. مش عارفة ليه حسّيت إني عاملة عَملة زي أيام المدرسة!!

ـ وهو أنتِ بتعملي عَملة؟

ـ لأ.. يعني.. يمكن أنا اللي حاسة كده.. اللي على راسه بطحة.. بس أنا مش كِده.. «Anyway».. لو تحب نروح كافيه أنا...

ـ قهوتك إيه؟

ابتسمت لتفهّمي:

ـ مظبوطة..

اطمأنت على باب الشقّة المفتوح ضَمانًا لمخرج طوارئ من أجلها قبل أن أدخُل المَطبخ، أعددت لنا قهوة وأنا أستشعر الخدر الذي يبثّه قُرص «الديباكين» في دمي، هدوء واسترخاء وشبه لامبالاة! لمّا خرجت كانت جالسة على الكنبة بَعدما أزاحت زجاجات البيرة، تدخّن سيجارة وتتأمّل قرص الفيل الأزرق المُلقى على المنضدة..

ـ ده إيه ده؟

سَحَبت القُرص من بين أناملها ودَسسته في جيبي مُبتسمًا:

ـ مالكيش دعوة..

نظرت لي بشكّ فناولتها القهوة وجلست على كُرسي بعيدًا عَنها، دَوت صفارة الصمت في آذاننا فتكلّمت ردعًا لنفسي من مسح مَسام وجهها..

ـ أنا سِبت قضية شريف؟

ـ إيه؟؟

ـ مش بمزاجي.. سامح ابن الـ..

ـ اللي ضربته؟

ـ هو.. بوّظ الدنيا..

ـ ده معناه إيه؟

ـ صدقيني أنا آخر واحد ممكن تسأليه..

نسيت فمها مفتوحًا قبل أن تهزّ رأسها يمينًا وشمالًا تطرد كابوسًا فأكملتُ:

ـ شريف اتكلّم مع سامح.. في جلسة خاصة.. اعترف إنّه قتل بسمة.. بإرادته..

ـ «No way»..

ـ ده اللي حصل.. وكمان قال إني ابتزّيته..

ـ ....!!!

كان عليّ أن أشرح لها ما حكاه شريف عن تهديدي إياه ليزوجني منها..

لم يرمش لها جفن.. توتّرت جبهتها ونسيت السيجارة بين أناملها.. بدت الفكرة مُحرجة!!

ـ شريف اتجنّن!! قالتها بيأس شديد..

ـ مش شرط!

ـ يعني إيه؟

ـ مِش يمكن أنا عملت كده فعلًا؟

نظرت لي بلا فهم..

ـ إيه اللي أنت بتقوله ده!!

سحبت نفسًا لرئتي..

ـ لبنى.. أنا مش مظبوط.. أنا.. أنا عارف ده.. حاسس.. متأكّد.. ما تزعليش لو قلت لك إني مش هانفع في القضية دي بالذات.. أنا مش عارف أنا باعمل إيه!! مِش قادر أفرّق بين الحقيقة والخيال.. هبل.. فيه هبل.. ما بقتش قادر.. أنتِ فاهمة حاجة؟

قاطعتني:

ـ أنت شارب!

ـ أنا لمّا باشرب ببقى فايق.. أنا بطّلت أسكر من زمان.. الموضوع مش كِده.. صَعب أشرح لك!!

ـ طول عُمري كنت بافهمك.. قول..

ـ أنا باسمع حاجات ما حصلتش!

لن أصف القلق الذي علا وجهها ولا النظرة التي حدجتني بها..

ـ وباشوف.. باشوف حاجات ما حصلتش.. أنا مش مظبوط يا لبنى..

ـ يعني إيه الكلام ده؟

ـ يعني أخوكي ممكن يكون بيتكلّم صح!

ـ إيه! هدّدته لو ما خلانيش أتجوزك مش هتخرجه.. أنت بتخرّف!!

ـ مش عارف.. المصيبة إني مش عارف.. ولو عملت كِده فأنا مش فاكر!

اعتصرت جبهتي بكفّي حلبًا للكلمات..

ـ أنا تعبان.. تعبان.. عشان خاطري قومي روّحي.. وجودي جنبك أو جنب أخوكي خطر.. أخوكي سليم.. قتل.. بس سليم.. مراته خانته زي ما قلت لك.. لعبت بيه غلط.. وهو لعب بيها صح.. ده اللي أقدر أقولهولك وده اللي قدرت أوصّله.. المحامي لو شاطر هيطلّعه على الخانكة.. كام سنة ويخرج..

التوتّر احتل جسدها كلّه فقامت، دفنت سيجارتها التي توقفت عن سحب أنفاسها منذ دقائق واقتربت منّي.. لم أدر بنفسي إلا وأنا أبتعد عنها..

ـ أنا مش مصدّقة الكلام ده! مش مصدّقة إنّك تقول كِده على نفسك..

داعبت شريحة تسجيل جلسة سامح وشريف في جيبي،

هممت بإخراجها لتسمعها لكني تراجعت، سماعها اتهام شريف لن يزيد موقِفي معها إلا اضطرابًا ونفورًا..

- كلام أخوكي كان صح لمّا رفض نتجوّز.. أنا ما أنفعكيش.. ما أنفعش أي حدّ..

- يحيى أنت تعبان.. بس مش عيّان..

- كل الأعراض اللي كنت شايفها على أخوكي.. عندي أنا.. وباحكيها لك على إنها عنده..

- إشمعنى أنا ما شفتهاش!!

تذكّرت مايا على الأرض مسجية والدماء تتدفّق من تحتها..

- الحمد لله إنّك ما شفتيهاش..

- أنت لازم تبطّل شُرب.. أنت هتتجنّن..

- لسّه هتجنّن؟؟

- يحيى أنت الحد الوحيد اللي فاضل لي..

برق في مخيّلتي وجه «مايا» ثانية، راودتني رعشة فتقهقرت للحائط كالملسوع أبتعد عنها، أحميها منّي، كان ذلك حين غادرتني حرارة جسدي وحلّ البرد، سَرى الخدر واهتزّت الأطراف، وهنت كورقة خريف، الكحول الذي جرى في عروقي أتخم الكبد فتجاهل تنظيم السكّر، ألمّ بي دوار فعَجزت عن نُطق

كلمة، خفق قلبي بنبض عالٍ وبالكاد تحاملت على كرسي بجانبي قبل أن أهوي، اقتربت منّي بسرعة وأحاطتني بيديها، انغمدتُّ في حضنها كسيف بات في جرابه الذي صُنِع من أجله، تحمّلتْ وزني رغم كعبها العالي وأنزلتني برفق على الأرض قبل أن تهرع للمطبخ وتأتيني بكوب ماء، بيد مرتعشة شَربت، غَمَرَني العَرَق فمَسَحَتْه بكفّيها ولم تقرف، ثم أحاطت رأسي بأنامِلها لتنظر في عينيّ..

ـ لو الدنيا كلها قالت إنّك عيان.. أنا باقول لك أنت مش عيّان..

انتظمت أنفاسي بعد دقائق فجَلَسَتْ بجانبي بعدما خلَعَت حذاءها واستندت الحائط الذي أستند إليه.. لا صوت يعلو على صوت زجاجة البيرة الفارغة التي يدفعها تيار الهواء القادم من الباب المفتوح.. تتدحرج ذهابًا وإيابًا لتكسر حاجز الصمت بيننا..

ـ أنت لازم تبطّل شرب.. والقُرص اللي أنت خبّيته ده..؟؟

ـ ده حاجة تانية.. قصّة طويلة..

ـ أنت عاوز تموت!

ـ ومش عارف!

ـ لو قلت لك عشان خاطري تبطّل شُرب!

ـ الموضوع مش في الشرب.. الموضوع أكبر من كده..

ـ عشان خاطري يا يحيى.. أنا عُمري ما طلبت منّك حاجة..

العشـق: مرض نتخيّل أننا نُشـفى مِنه.. فقط لأن لا أحد يموت بسببه.. نظريًّا..

غُصت في عينيها كثيرًا قبل أن أسألها:

ـ وبعدين؟ لو بطّلت أشرب؟

ـ أنت لازم تقف على رجلك.. لازم تفوق..

ـ وبعدين!!

ـ الدنيا ما وقفتش..

ـ الدنيا وقفت من عشر سنين..

نظرت إلى عينيّ قبل أن نتبادل حديثًا طويلًا من عشر صَفحات A4 مسافة ٠,٥ سنتي بين السطور بخط بنطه ٤..

حديثًا لم نسمع منه كلمة.. ابتلعتْ ريقها قبل أن تختلج عيناها وتهرب بعيدًا لتتكلّم..

ـ تخيل.. أنا مُمكن أعمل أي حاجة مهما كانت صَعبة وكارثية.. دلوقت.. أنا حتّى مش عارفة أبُص في عينيك.. مش عارفة أسيطر على أفكاري.. خناقة جوايا بسببك أنت مش هتتخيّلها.. أنا مش قادرة أستحمل..

احتقنت شفتاها وترقرقت عيناها ثم تحررت.. طالما كانت تخفي دموعها عنّي.. لكنها لم تفعل.. فقط خدشت أوردتها وانسال الكلام منها نزيفًا..

ـ كنت متخيلة إن دايمًا عندي إجابة لكل سؤال! بس فيه حاجات بيكون لطيف فيها إني أسيب نفسي وما أسألش.. بعدين أبقى أعرف ليه.. أو حتى ما أعرفش.. مش مشكلة.. رغم إنها كانت دايمًا مشكلة.. لكن المرة دي.. مش مهم.. عارفة نهاية الفيلم ومش مهتمة.. أنا بس مش قادرة أتخيّل خسارتك تاني.. مش هاستحمل.. خليك في الضلمة.. أنا راضية.. تخيل.. راضية تفضل في الضلمة وأفضل أنا أتهمك زور إنك مش موجود.. على الأقل هافضل متشعبطة في ديل حلم.. إنما لو عديت كده مرور الكرام.. واختفيت زي ما في يوم اختفيت.. أنا مش هاسامحك.. هاموت.. أنا باخرف..

لا إراديًا مَدَدت ذراعي ببطء، لامست كتفها وأحطته قبل أن أحتضنها، لم تُقاوم، فقط اقتربت، استقرّت في المكان الذي خُلق خصيصًا من أجلها؛ في صدري، أغمضت عينيّ واستنشقت عبقها الذي يجذبني من مَسافة شهر! فَتَحْت كفّي فأرست فيه كفّها، استوت أنامِلها في التجويفات التي حُفِرَت لتناسِب مُنحنياتها، لامَست شعرها بشفتيّ وطبعت قبلة شرف في مفرقه كما يَطبع مراهق اسمَه على أحجار الهرم ليسجّل لحظة تاريخية، أنا كنت هُنا! التفتتْ لي ونظرت في عينيّ، تَختلج، تَنهج أنفاسًا حارة،

يا إلهي أنا أعشق حتى أنفاسها! أسمع قلبها يَهزّ أركان البيت، وسخونة وجنتها تلفح وجهي كنسيم أغسطس، لا إراديًّا سقطت عيناي من فوق رموشها وتدحرجت على خدّها حتّى استقرّت على شفتيها، شفتاها التي نسفت الجسر من قبل بين عقلي وجنوني، رمقتني لثوانٍ ثم ابتلعت ريقها قبل أن تقوم، لَمّت شعرها دائرة وسوّت مَلابسها دون أن تنظر في عينيّ، ثم اتّجهت لحقيبتها ودسّت فيها عُلبة السجائر وعلّقتها على كتفها..

ـ خُد بالك من نفسك..

لم أقل شيئًا، لم أمسك يَدها لأستبقيها أو أغلق الباب قبل أن تصل، كان عليها أن ترحل، كان على النار التي اشتعلت في صدري أن تَخمد وإلا صارت حريقًا هائلًا، مَشيت في أثرها أتأمّل هروبها البطيء، رقبتها المنكسرة، أكتافها الصغيرة، خُطوات كَعبها العالي المُرتعشة، وشذى التفاح المُحرّم الذي تتركه وراءها، خرجت للحديقة وكان الهواء صاخبًا يَعبث بالأشجار ويرفع أغطية السيارات المركونة، فجأة برقت مايا في عينيّ، رأيتها تمشي عارية على خطوات لبنى فتوقّفت مُنقبضًا في اللحظة التي توقّفت فيها لُبنى! أمام سيارتي التي أزال الهواء غطاءها وعَرّى هيكلها الذي تعجّن كعبوة صُودا يوم الحادثة، الهيكل الذي لم أرد تصليحه أو بيعه، الهيكل الذي أجلد نفسي به يَوميًّا كراهب يُكفّر عن سيئاته!

وقفت لبنى أمام الحطام متيبسة، عيناها تتأمّلان شخصية

«Sponge Bob» الصفراء المتدلية من بَقايا المرآة، مَشنوقًا لافظًا أنفاسه، اقتربت منها.

اتقلبنا تسع مرّات.. مش عارف إزّاي قدرت أعدّهم.. بس همّا تسع مرات.. مش عشرة.. ودي كانت لعبة نور..

قلتها وأخرجت من محفظتي صورة اصفرّت ألوانها لابنتي.. ناولتها الصورة فنظرت فيها مليًّا قبل أن تتقلص شفتاها وتغمض عينيها حبسًا لدموع تراكمت..

ـ الله يرحمهم..

قالتها وناولتني الصورة:

ـ أنا لازم أمشي..

ركبت سيارتها وأنزلت الزجاج، نظرت لي لحظات بشفتين ترتعشان قبل أن تضغط دواسة البنزين وتبتعد في هدوء تاركة مُذْيتها في قلبي، تابعت سيارتها حتّى صَارت في حَجم علبة كبريت قبل أن أرجع البيت، قُرص الديباكين كان قد توغّل في صَحرائي المَفتوحة بلا قيد، فالجِسم وَاهن، والمَعدة خاوية والعَقل خارج عن نطاق الخدمة، ارتخيت على الكنبة وأغمضت عينيّ، وحَلمت، لبنى كانت تجري في مَرج أخضر، قُرب شجرة هائلة يَصل جذعها للسَّحاب، ترتدي قميصًا قصيرًا كشف عن ساقين نُحتتا في الجنّة، جريت وراءها ولمّا بلغتها ابتسمت بعذوبة ثم توارت خلف الشجرة، التفت أبحث عنها لكنها

تلاشت كدخان، وقفت لحظات أتأمّل المكان حولي، نظرت إلى أعلى فداعبت الشّمس حَدقتيّ من بين أغصان الشجرة الوارفة، أغمضت قسرًا ولمّا فَتَّحْت رأيتني في مَطبخي والشمس مَعكوسة في وجهي من زجاج سيارتي في الفناء الخلفي، سيارتي السليمة! أنا أحلم، ولا أريد الاستيقاظ! لبنى كانت بجانبي تصنع شطيرة جبن، وضعت يدي على خصرها، قبّلت كتفها فلوت رقبتها وتلاحقت أنفاسها حين لَمَحت كَوثر جَارتي الشمطاء في شبّاك المطبخ، تقف في حديقتي ناظرة لي بغِل شديد، أغلقت ستائر الشباك وحين رجعت لم أجد لبنى..

استيقظت!

رغمًا عنّي، ولم أرد أن أستيقظ، لكن وضعيتي على الكنبة كانت أكثر إيلامًا من أن أحتمل، الشمس تتجوّل في الشقّة وأنا أترنّح، حتّى القهوة فارت منّي على البوتاجاز، وشردت وأنا أتبوّل فسقيت أرض الحمّام وقدميّ! اللعنة! أشعلت سيجارة وطالعت أربع عشرة مُكالمة فائتة من تليفون محسن الممرض! كَم الساعة؟ الثانية بعد الظُّهر! المتخلف لم يعرف أنّي سأستقيل..

سأعمل مع العجائز؟

لا.. لن أعمل مع العجائز!

الألزهايمر والتبول اللاإرادي لا ينقصونني، سيلاحقونني عمّا قريب ولِمَ العَجَلة؟!

النتيجة حتمية والقصة مَحروقة..!

ـ ألو.. صَباح الخير يا محسن..!

ـ يا دكتور بكلّمك من بدري ما بتردش..

ـ خير يا محسن.. مش عارف أنت عارف ولا لأ بس أنا سبت القسم و...

قاطعني:

ـ عرفت يا دكتور.. بس فيه مُصيبة سودا..

ـ فيه إيه يا مُحسن؟

ـ شريف الكردي زانق دكتور سامح في عنبر العزل.. عاوز يقتله!!

حين وصلت «٨ غرب» كان الاضطراب يموج في الوجوه، ممرضون وأطباء وعاملون متجمّعون أمام القسم يَسدّون طريق باب العنبر، سيارة أمن مركزي وبوكس شرطة مُتأهّبتان والجنود من حولهما مُتحفزون يمضغهم الفضول، سيارة إسعاف رابضة في المكان فاغرة فاها تنتظر ضحيّة، وسيارات الأطباء مَنثورة بلا نِظام كطفل بعثر ألعابه ورحل!

حُشِرت بين الجَمع حتّى دخلت، بالكاد عَبَرت الطرقة المؤدية إلى العنبر، دفعت الأكتاف متخللًا الواقفين والتصقت بضابط يرفع تقريره في لاسلكي فأبطأت حتّى أسترق السمع..

ـ ... من عَدَمه يا فندِم.. رافض يتجاوب.. حَصل سيادتك بَس الشبّاك من برّه مقفول بأسياخ حديد.. بنحاول سعادتك.. صحّ معاليك المديرة موجودة وبتتكلم مَعاه.. هنتعامل طبعًا سيادتك.. إحنا مستنيين يمكن يحصل تجاوب بدل ما يكسر رقبته سيادتك.. من عدمه يا فندم.. أوامر سعادتك.. مع الشُّكر..

اقتربت من غُرفة التمْريض فلَمحت العنبر خاليًا من المَرضَى،

نقلوهم لقسم آخر حتّى لا ينتهز أحدهم الفرصة ويهرب وسط الفوضى، أفراد الشرطة متكتّلون قرب جَوانب بَاب غُرفة العَزل شاهرين أسلحتهم في تَحفّز، المُديرة متوتّرة تقف على أطراف حذائها لتتابع فتحة الباب الزجاجية العالية، تَتَحدث بكَلام لم ألتقطه، ودكتور كيلاني وراءها يتابع الموقف، لمّا اقتربت من باب العنبر رفع ضابط برتبة مقدّم يَده إلى صَدري مَنعًا..

ـ ممنوع.

ـ أنا دكتور في القسم!

ـ ممنوع..

ـ ده المريض بتاعي.

ـ لو احتجنا لك هاندهك.

ثم أشار لعسكريين أحاطاني ليبعداني عن الباب الحديدي حين تدخّل محسن:

ـ شيل إيدك يا عم أنت هو إيه أصله ده! ده الدكتور يحيى!!

أجابه الضابط بالتجاهل فناديت المديرة من بين قضبان الحديد..

ـ يا دكتورة.. دكتورة صفاء..

التفتت ورمقتني بحيرة تحوّلت لعِناد قبل أن تشيح بوجهها عنّي وترجع لنافذة غرفة العزل حين أردف المقدّم:

ـ اتفضّل.. لو احتجناك هانده لك.

تابعت الموقف من بين الأكتاف والأدمغة خلف الباب الحديدي حتّى تذكّرت كاميرا المراقبة، أسرعت إلى غرفتي وفتحت الكمبيوتر بعدما أغلقت الباب، رجعت بالملف للساعات الماضية أتابع حرَكة العنبر، أبطأت تدافع اللقطات حين تخلل ضوء الشمس الغُرفة وبدأت مَوجة الاستيقاظ، كل شيء بدا طبيعيًّا حتّى خرج شريف بصُحبة محسن المُمرِّض من غرفة العزل إلى العنبر كما أمرت، يتحرك بصعوبة بسبب الضمادة التي أحاطت فخذه، وضعه محسن قرب الحائِط كلقمة عيش مُلقاة في الطريق وابتعد، تَحرك شريف خُطوتين ثم تيبّس في مَكانه، أكثر من ساعة!! هكذا قال شريط الزمن أسفل الشاشة، واقفًا شاردًا في الحائِط كقطعة أثاث لا تتحرك، فقط يهزّه شهيق وزفير صدره، اقترب منه بعض النزلاء يَرمقونه بفضول لمّا طال أمَد سكونه، كالجنّ يتأمّلون سليمان عليه السلام ولا يعرفون أنّه قد مات، لحظات واقترب محسن ففرّقهم وقدّم لشريف وجبة إفطار، وَضَعها بجانبه لكنه لم يلمسها، حتّى اقترب أحد النزلاء مُحاولًا تبادل حديث من جانب واحد، لمّا لَمَس غِياب شريف عن الزمن سرق الوجبة وابتعد..

انقضت ربع ساعة أخرى قبل أن يَظهر سامح في الصُّور، اقترب من شريف وبدأ الحديث معه، حَركات يد سامح قرأت فيها عَصبية تزداد بسبب لامبالاة شريف، توقَّف بعدها سامح

عن الكلام ثم نطق شيئًا وضع من أجله يَديه في وسطه هَيمنة وتأكيدًا، لُغة التهديد نجحت في تحويل رأس شريف ناحيته! حَدَجَه الأخير بنظرة ترقّب ثم ابتسم لثوانٍ قبل أن يدفع قبضته في سُرعة ناحية رقبة سامح ويطبق على حنجرته، انتفض سامح متألّمًا من المفاجأة، قَبض على يدَيْ شريف مُحاولًا التملّص أو تخفيف الضغط على رقبته، اضطرب كرشه ورفس بقدميه كجاموس «ناشيونال جيوجرافيك» الحامل قبل أن يخرّ على رُكبتيه ويضرب جرح شريف بكلوة يده يأسًا، التوتّر اجتاح النزلاء فاقتربوا في حذر قبل أن يتشجّع أحدهم ويُمسك بعضد شريف من الخلف، التفت الأخير ودس سبّابته في عين النزيل فتكوم على الأرض صَارخًا والدم يندفع منها لتتّسِع دائرة الهَلع، أحكم شريف قبضته على رقبة سامِح ولفّه فأصبح ظهره يواجه صَدر شريف والحنجرة لم تهرب من بين الأصابع! بَعد ثانيتين بَرز مُمرضان وعَسكري، قبل أن يَظهر ضَابط رفَع فوهة سِلاحه في وَجه شريف الذي احتمى لاإراديًا وراء هيكل سامح مترامي الأطراف، رجع بظهره حتّى باب غرفة العزل سَاحبًا سَامح من عنقه قبل أن يغلق الباب وراءهما، تَراكَم النزلاء على الباب ففرقهم العساكر ليفتح الضابط الباب ويوجّه كلماته لشريف، ثوانٍ وبدا أن الأخير قابلها بتهديد جعل الضابط يتقهقر ويُغلق الباب، ليبدأ الأطباء والممرضون والعساكر في التوافد متابعين الحَدَثْ..

كم تسعدنا المَصائب.. متعة تضاهي مُتابعة كأس العالم أو اقتناء أفلام البورنو!

قاطَع مُشاهدتي التسجيل دخول محسن المُمرِّض يَنهج..

ـ دكتور.. المديرة عاوزاك في العنبر..

خرجت وراءه إلى العنبر رَكضًا، على مَضَض أفسح لي الضابط الذي منعني من قبل، اقتربت من غرفة العزل وكانت المديرة تُنهي مكالمة متوترة مع أحد المسئولين ثم التفتت لي:

ـ شريف طلبك بالاسم!

نظرت من النافذة الضيقة، شريف كان جَالسًا على طرف السرير المَعدني، مُمسكًا برأس سامِح كمَّاشة بين فَخذيه الذي انساب الدم من جُرْح أحدهما ليُلطِّخ وجه سامِح المُختنق، مُحيطًا ذقنه وجانب رأسه بكفيه في استعداد لا يستهان به لكسر الرقبة..

ـ شريف هدّد لو فتحنا الباب هيكسر رقبة سامح.. مش هنلحق نِعمل حاجة لو ده حصل.

ـ ولو استنينا برضه شوية هيموت مَخنوق.

ـ هو مش عاوز حَدّ يدخل عليه غيرك.. اعمل أي حاجة يا يحيى.

ـ أنا داخِل..

تركتها واقتربت من الباب حين لمحت صاعقًا كهربيًّا مُعلّقًا في حزام أحد الضبّاط..

ـ هاحتاج البتاع ده!

خلعه من حزامه وناولنيه فوضعته خلف حزامي قبل أن أفتح الباب ببطء، مَددت رأسي أنظر فلمحت الابتسامة على وجه شريف..

ـ اقفل الباب يا يحيى.. الولد هياخُد هوا..

دخلت وأغلقت الباب ورائي فأمسك بملاءة السرير من تحته، سَحبها ورَماها بين قدميّ..

ـ شوية خصوصية..

ـ خِفّ إيدك هيموت منّك يا شريف.. وهنتكلم زي ما أنت عاوز..

نظر لكوّة الباب والوجوه المتابعة منها..

ـ مِش عاوز أشوف الأغبية اللي برّه..

نطقها بحدّة فالتقطت الملاءة وسَددت الكوّة وَسط دهشة المديرة ومن حولها ثم التفتّ لشريف الذي أشار لكُرسي مُلقى في رُكن..

ـ ازنق الباب..

ـ سيبه يا شريف.. هيموت منّك يا جدع!

ـ ازنق الباب!

سحبت الكرسي وحشرته بين مقبض الباب والأرض.. لمّا التفت كان شريف ينظر للرأس المُحاصرة بين فخذيه..

ـ غريبة إنّه صعبان عليك!

ـ ما لهاش علاقة يا شريف.. خرّج سامح برّه الموضوع.. أنا مش فاهم إيه اللي بتعمله ده!!

ـ تعرف إن الخنزير ما بيدّبحش..

ـ ... !!

ـ عشان الدهن حوالين رقبته كتير.. المفروض يتغذ في قلبه.. بَسّ مافيش سيخ!

ـ مش هتستفيد حاجة من موته يا شريف..

نظر لي ثم ابتسم قبل أن يَضرب مُؤخرة رأس سَامح بقبضته، ثلاث مرّات، ارتج الأخير ثم حلّقت عيناه إلى السقف وبان بياضها..

ـ صوته مُزعِج أوي..

قالها وتركه ينساب تحت قدميه فاقدًا الوعي، تابعت صدره، كان يتنفّس، سيحتاج دقائق يتدفّق فيها الدم إلى رأسه قبل أن

يفيق، لَكزه شريف بقدميه بعيدًا عنه واعتدل في جلسته قبل أن يقوم والدم ينزف ببُطء من جرحه..

ـ شريف.. جرحك...!! ممكن أنده حد يربطه ويشوف سامح.

ـ سيبه.. مش هيموت..

تأمّلت وجهه محاولًا تحديد مع من أتحدّث.. اللعين عطّل لديَّ قراءة لُغَة الجَسد..

هل من الممكن أن أكون مختلقًا تلك المحادثة الآن؟!

سؤال لا يستهان به!

وكوني طبيبًا لا يساعدني في التفرقة بين الحقيقة والوهم، وهم لن يسمعوني من الخارج لعزلة الغرفة الصوتية! أحتاج إلى شيء مادي يثبت لي أنّني أتكلّم مع أحد، أنّني أرى ما أراه يقينًا، هَربت عيناي إلى جهاز التسجيل أسفل السرير فابتسم شريف بخُبث، هَممت أن أقترب خطوة فنظر إلى سامح تحذيرًا فتراجعت، مَدّ يده لمَكْمَن التَسجيل وسَحبه برفق..

ـ تفتكر ليه ربنا بيخلق حاجات زي دي؟

كان ينظر لسامِح المُرتخي على الأرض..

ـ الحياة فيها الحلو والوحِش.. شريف.. أنا محتاج الجهاز ده..

نظر لجهاز التسجيل بين أصابعه ثم وضعه على الأرض..

ـ ليه؟ شاكك في نفسك..

ـ شريف.. عشان خاطري أنا مِحتاج...

لم أكمل جُملتي.. رفع قدمه وهوى بها على الجهاز ليُحطّمه.. هَرَسه بلذّة..

ـ ليه كِده..؟!

ـ أنت مش محتاج جهاز يا دكتور.. أنت سليم..

لم أعد أعرف إن كان ذلك شيئًا جيدًا أم سيئًا، لكن على كل حال لو كنت استمعت لجهاز التسجيل ولم أجد صوتي لازددت غرقًا في قاع لا أعرف عُمقه..

ـ ليه عَمَلت كده في سامح؟

ـ المفروض تشكرني..

ـ أشكرك!!

ـ أنا باحميه من صاحبك..

ـ بإنّك تقتله؟

ـ لسّه مش قادر تفرق بيني وبين شريف.. صاحبك طبعًا عاوز يقتله.. كويس إني جيت في الوقت المناسب..

ـ ...!!

ـ شريف مريض.. مرض صعب.. مرض ما حدّش اتشفى منّه قبل كِده..

اقتربت منه ببطء حين بدأ الطنين في أذنيّ يسأل: من الذي يتكلّم؟ عيناه تنظران لي بصِدق..

ـ أنا لو كنت سبته دلوقت كان قتل سامح..

ـ ...!!

ـ مِش مصدّقني؟

ـ أنا مابقتش قادر أصدّق حد..

ـ صدّق نفسك.. صاحبك قتل وأنت عارف..

الطنين في أذنيّ رجّ مخّي كقربة حليب.. الصُّداع سِكّين طويل في يَد قَاتل هستيري لا يكف عن طعن طبلة أذنيّ بها.. من أنا؟ نسيت..

ـ أنت بتخرّف..

قلتها وأنا غير مقتنع..

ـ أنت بتسمع القصة من ناحية واحدة بس..

اقتربت حتّى أصبحت بجانبه..

اضمر شرًّا.. أو خيرًا.. لم يعد ذلك يشكِّل فرقًا فالأمر نِسبي..

العقل والجنون.. أمر نسبي..

الحب والكره.. أمر نِسبي..

الرب والشيطان.. أمر نسبي..

ـ لو سبت صاحبك على سامِح هيقتله..

ـ كُل شيء مكتوب..

قُلتها وسَحَبت الصَاعق الكهربي من حزامي قبل أن أغمده في عنق شريف.. أو أيًّا كان! ضَغطت الزّر فرَقَصَت الشرارة الزرقاء.. انتفض شريف.. ارتج وتراجع لاإراديًّا.. عَوى بصرخة من يُسلخ جلده حيًّا قبل أن يهوي أرضًا.. خمد وهمد وارتخى.. سَحبت نفسًا قبل أن أنحني على سَامِح أتفحّصه.. الواقفون بالخارج يحاولون فتح الباب أو كسره.. سامِح يحتاج إسعافًا.. اقتربت ومددت يدي لمقبض الباب أزيح عنه الكرسي حين شعرت بحركة.. التفتّ وكان واقفًا ورائي.. لم أكد أتّخِذ رَدّ فِعل حين دفع قبضته في صدري فارتطمت بالحائط.. ارتجّت أعضائي الداخلية وضربت الضلوع قبل أن أسقُط ويطير الصاعِق من يدي.. تركني وذهب لالتقاطه فقمت أترنّح وهاجمته من الظهر.. كان ذلك حين التفّ وسَدّد إلى ذقني ضربة بكوعه.. مَاجَت الغرفة وارتعشت حوائِطها قبل أن يَصير الطنين في أذنيّ صفارة قطار.. هَويت إلى الأرض

ولون الحياة يميل للزرقة.. سخونة سيخ مَحمي لسَعَت مؤخرة رأسي وألم صاعِق أحرق عينيّ.. بهدوء اقترب شريف من سامِح.. انحنى فوقه قبل أن ينظر إليّ نظرة طويلة لم أفهم مَعناها.. أو لعلّي وقتها لم أرد أن أفهم.. بيقين ممزوج بغضب جزّ من أجله أسنانه أمسك بكفّيه ذقن سَامِح ومُقدّمة رأسه.. وبعزم قوّته طوّح كل منهما في اتّجاه مُعاكِس.. رغم صفّارة القطار سمعت.. سمعت فقرات عنق تنفك وقصبة هوائية تضِل طريقها.. قُمت أحمِل ثِقلًا مضاعفًا وارتميت على سامِح.. كان ذلك حين انفتح الباب تحت وطأة أكتاف العساكر.. انهمروا في الغرفة كسيل اجتاح سدًّا.. دفعوني جانبًا وأطاحوا بشريف إلى الأرض.. أسقطوه على بطنه فاحتضن وجهه البلاط.. بجانب وجهي.. النظرة بيننا اتّخذت ثانيتين.. ثانيتين قرأت فيهما معنى واحدًا.. الارتياح!

حمله الضباط بعيدًا ولم يقاوم، أغمض عينيه واسترخى في قبضتهم كأنه ملك مُدلّل بين أيدي مُدلّكي مَساج، انحنى د. كيلاني على سامِح الراقد بلا حِراك يَفحصه حين اقتربت المديرة منّي، بصوت آتٍ من بعيد سمعتها تسألني إن كنت على ما يرام فهززت رأسي إيجابًا لتبتعِد، سأعيش يا مُمِلّة فلا تقلقي، اعتدلت وأسندت ظهري للحائِط أتابع ما يَحدث حين أمر دكتور كيلاني الممرضين بحَمل سَامِح برفق وخرجوا به ركضًا لإسعافه، بصعوبة التقطت بقايا جهاز التسجيل المهشّم وأخفيتها في مَلابسي دَفعًا لتهمة لن يتحملها ظهري..

في الحمّام غَسَلت رأسي المُرتج وأنفي الذي نزف دمًا وأسناني، عَيني اليُمنى عَلا بياضها نُقطة دَموية ستبقى شهرًا وازرقّ خَدّي من أثر اللكمة، بأرجل مُرتعشة من أثر المَجهود المُفاجئ خرجت إلى فناء ٨ غرب، ارتميت إلى دكّة وأشعلت سيجارة متابعًا سيارة الترحيلات التي أودعوا فيها شريف، بَقية النُّزلاء رَجعوا للعَنبر، وتبع بَعض الزُّملاء سَامح، ثوانٍ وخرجت المديرة من العنبر وعلى أذنها التليفون، أنهت مكالمة وهي ترمقني قبل أن تقترب وتقعد بجانبي، بصمت مَدّت يَدها إلى علبتي وسَحَبَت سيجارة دسّتها بين شفتيها، نظرت لها في استغراب قبل أن أشعلها لها، نفثت الدخان ثم تحدّثت دون أن تنظر في وجهي:

ـ إيه اللي حَصَل جوّة؟

حكيت لها ما حدث حسب ما حدث.. أو حسب ما أتخيّل أنّه حدث!

لمّا انتهيت سكتت ونظرت لي نظرة قرأت مغزاها.. ولم يعجبني..

ـ إحنا ما شفناش حاجة لأنّك سدّيت الشبّاك وزنقت الباب!!

ـ هو اللي طلب منّي ده.

سكتت ثانية.. تتوغّلني بعينيها.. ستتعثّر في غابتي المُحترقة إن مشت مترين إضافيين..

يا سيّدتي أنت لا تدرين من الذي تنظرين إليه! أنا نفسي لا أدري.

ـ إيه تفسيرك؟ سَألَتني.

ـ أنا قلت قبل كِده وماحدّش صدّقني.. ازدواج.

ـ إيه اللي يخلي شريف يحكي اللي قاله عليك يا يحيى؟!

ـ أديكي قلتي حضرتك.. في مصلحة مين الكِدب ده!

ـ أنت كمان كدبت..

ـ خبّيت.. فيه فرق.. مين فينا ما يحبش يساعِد صديق؟ لكن مؤامرة لأ.. أنا ما رجعتش غير لمّا جالي الجواب.. مش الجواب جالي؟

نظرت لي باستغراب فلطمت على جوانب مخّي وعفّرت عليه التراب كالنساء في الجنائز..

ـ الجواب؟؟ مش فيه جواب.. سألتها بغضب أزعجها..

ـ طبعًا فيه جـواب.. أنا بس مستغربة أنّك بتسأل أكنّك ما تعرفش!!

زفرت نفسًا وارتخيت بظهري إلى ظهر الدكّة.. رمقتني بنظرة أعرفها.. نظرة ننظر بها للمريض لنَزن عقله.. نسبر غوره.. قرأت ما تنوي قوله ولم يعجبني أيضًا فعاجلتها..

- حضرتك شايفة إن ده تصرّف واحد عاوز يِنْفِد من تُهمة! يكسر رقبة سامِح!!

- كل الناس اللي عندِنا هِنا بتدّعي الجنون.. مُمكن تكون دي وسيلة تأكيد..

- بأنّه يقتل تاني!!

- وده يأكد إنّه مجنون بجد..

- أنا مش طايق سامِح.. بس ما أرضالوش الأذى وده اتّهام أنا ما أقبلوش..

- أنا ما اتّهمتكش..

- الكلام واضِح يا دكتور..

- دي بارانويا اضطهاد يا يحيى..

- أيًّا كان.. القضية دي خلاص ما بقتش بتاعتي.. من فضلك اعفيني من المسئولية.. أنا مستعد أقدّم استقالتي بكرة..

كان ذلك حين أتاها اتصال:

- ألو.. إمتى؟! ok..

أنزلت السمّاعة من فوق أذنيها:

- سامح مات..

انهارت فوقنا شجرة صمت غرزني جذعها في الأرض أمتارًا، واعتصر رئتيّ أخطبوط له ثمانون ذراعًا..

لا أكاد أصدّق أنّي قد أحزن على مثله يومًا!!

رغم كونه خسيسًا، لئيمًا، مُملًّا، خرتيتًا، مقزّزًا، سَمِجًا، مُتسلّقًا، حَاقِدًا، نَاقصًا، شَهوانيًّا، يُمارس العادة السرية حتّى هذه السنّ على ما أعتقد، أحمَق، مُتملقًا، مُنافقًا، جَبانًا، أرعن، وقلبه أسود..

إلا أنني لم أتمنَّ له مثل تلك النهاية..

سادت المستشفى كآبة ووجوم تعكّرت به نفوس المرضى قبل الزملاء لفقد سامِح، ما هي إلا دقائق وأحاط بيَ الضبّاط يَحملون شكوكًا وتكهنات وأسئلة مُكررة، استسلمت بين أيديهم كمَريض في عملية قلب مفتوح، أفرغت في آذانهم ما رأيت، وشَقّ عليّ كثيرًا أن أسرد ما اقترفه شريف، شعور الوشاية أسوأ من كُحول مَغشوش، كَتَب الضباط شهادتي في صفحات طويلة ولم يكونوا ليستوعبوا الأعراض، الأعراض التي تراود شريف..

أو تراودني!!

انتهوا منّي «نظريًّا» ثم تركوني، خرقة بالية لا حياة فيها ولا رمق على دكّة أمام العنبر، مُتيبسًا شاردًا ظللت راقدًا حتّى رأيت شريف مَجرورًا جَرّا، خرج من السيارة مُكبلًا يمشي بينهم

مَحمولًا فوق أيديهم لا يكاد يلامس الأرض، أودعوه سريره في عنبر العزل مُكبّلًا (قدم في ذراع)..

أنا في أشد الحاجة لكأس!

خرجت من المستشفى إلى تاكسي.. عفّرت الكون وثقبت الأوزون ثقبًا إضافيًّا بدخاني حتّى اكتمل بداخلي قرار طلبت من أجله لُبنى..

ـ عندك كاميرا فيديو؟

ـ عندي!!

ـ تقدري تيجي لي دلوقت؟

ـ ممكن.. هو حصل حاجة؟

ـ أنا هاكون في البيت بعد تلت ساعة..

ـ حاضر.. ادّيني ساعة!

أنهيت نِصف تبغي أمام البيت انتظارًا قبل أن تظهر سيّارتها في نهاية الشارع، اقتربتْ والتوتّر في خطواتها، يَمشي بجانبها على عُشب حديقتي، مَا تَفعله للقائي أكبر من قدرتها، أخبرني بذلك توتُّر حاجبيها وشفتاها المتقلّصتان، تَجد صعوبة في التصالح مع رغباتها، ما تشعر به من عَدم مَنطقية الحياة التي نعيشها بعيدين عن بعضنا + الذَّنب الذي تحسّه من مشاعرها تجاهي + أن سُلوكي

وطريقة محادثتي في التليفون بالطبع تُعطي إيحاءً بالاستدراج والتَحرُّش!!

ـ أنت كويس؟

ـ مش عارف!!

أقلقتها إجابتي ولم أجد غيرها لأطمئنها، كما أن الكائن المُمِل المُسمّى «كوثر» تثقبنا في فُضول من خَلف سَتائر نَافذتها، لا إراديًّا سَحبت يَد لبنى ودخلنا شَقّتي، بَدَت مأخوذة قلقة، سعيدة ومُضطربة، جريئة والجُبن فيها كامن يفلت من عينيها! أغلقت الباب وأجلستها على كَنَبتي قبل أن أَمُرّ على النوافذ لأكسوها بالستائر وأرجع إليها..

ـ فيه إيه؟

ـ لبنى.. بتثقي فيّا؟

ـ طبعًا!!

ـ عندي خبر مش كويّس.

هزّت رأسها رفضًا واضطرب وجهها قبل أن تسمع..

ـ النهاردة الصُّبح أخوكي قتل سَامِح!

ـ إيه اللي بتقوله ده!!

ـ زي ما سمعتي.

ـ لأ.. لأ.. مش ممكن.

ـ اهدي واسمعيني.

ـ أسمع إيه؟ أنا مش مصدّقة.. يعني إيه قتله!! إزّاي؟

ـ اسمعيني عشان الوقت ضيّق.

ـ هو فين دلوقت؟

ـ في عنبر العزل في المُستشفى.

قامت متخبّطة لا تدري أي اتّجاه تذهب، ارتعشت يدها ونفرت مَسامها، نظرت لي والانهيار والتيه يتجولان في مَلامحها، أحطْت وجهها بيدي تثبيتًا فسكنت والدموع لم تفعل، انسلت ساخنة على وجنتيها ساحبة المكياج الذي وضعته من أجلي معها، مَسحت خدّيها بكفّي ورَفَعت الخُصلة التي انسدلت مُخفية عينيها، ثم لم أملك إلا احتضانها تهدئة قبل أن أسجيها على الكنبة جثّة حيّة وأجلس بجانبها، بهَمس وَئيد حكيت بعض ما حدث لتستوعِب ما أنا مُقدم عَليه، حَكَيت عن القميص العتيق، حَكيت عن تفاصيل في جَلساتي مع أخيها، وحَكيت عن التليفونات التي أستقبلها، عن قُرص البرزخ الذي ابتلعته والفيل الأزرق المرسوم فوقه، كِدت أحكي عن «مايا» ولم تطاوعني روحي في البوح، شعرتها خيانة لها رغم فوات الأوان، ثم شرحت هَواجسي في نفسي بالدلائل والقرائن قبل أن أشرح لها ما أريد تنفيذه، ما أريد التأكّد منه، اعتدلت في جلستها وانتبهت، وكلّما توغّلت

حكيًا توتّرت ملامحها، سَاقاها لم تعدا مستريحتان، يداها تمشّتا أمام فَمها تمنعان الكلمات من أن تخرج، وشفقة مُلتاعة ضيّقت المسافة بين حاجبيها، وأخيرًا تقهقرتْ إلى ظهر الكنبة مُنكمشة مُحاولة التظاهر أمامي بغير ذلك فطمأنتها بابتسامة:

ـ أنا عارف إن اللي بقوله ده جنان.. بَس ده اللي ما كنتش عاوز أقولهولك لأني مش متأكّد من حاجة.

ـ أنا مش مصدّقة إن مُمكن تكون...!!

ـ خلّينا ننفّذ اللي أنا عاوزه عشان نتأكّد.

ـ ما أقدرش أعمل اللي أنت طالبه ده!

ـ لُبنى أنا ما بقتش قادر أفهم أنا باعمل إيه أو ما باعملش إيه؟ أنا محتاج لِك.. عارفة.. الأيام دي بس اكتشفت إنّي ما ليش حدّ.. بقالي خمس سنين ماشي بقوّة الدفع ومش واخد بالي.. يِمكن مِستنّي أشوفك.. يمكن ربنا سايبني لأن ليا دور.. مش عارف.. أنا محتاج أعمل ده لأن دي آخر حاجة فاضلة لي.. آخر تُمن في دماغي... ساعديني..

ـ افرض إن ظنّك طِلِع صح!

ـ هادخل المُستشفى.. مش هتفرق.. ما عنديش حدّ يهتم...

قاطعتني:

ـ أنا مهتمّة!

ـ لُبنى...! خلينا نتكلم بالعقل.

ـ مش بعد ما لقيتك هتروح منّي.

ـ أنا رايح رايح ومش هاسمح لنفسي أبوّظ حياتك.

ـ حياتي ما لهاش طعم.. حاسة إني واقفة على رصيف محطة مهجور؛ القطر بتاعه بطّل ييجي من عشر سنين.

ـ مش كل اللي بنتمنّاه بيحصل.

ـ أنا خايفة.. أوّل مرة أحِس إنّي خايفة.. أنا محتاجة لك.

ـ بتثقي فيّا؟

ـ بتسأل؟

ـ ما تخافيش.. كل حاجة هتبقى كويسة.

صَدّقتني! ولم أصدّق أنا الوعد حين خرج منّي! أحْنت رأسها إذعانًا لرَغبتي فقُمنا إلى الغرفة، وقفت تتأمّلني قرب الباب مسحوبة مدهوشة بما حَكيت، مأخوذة بما طلبت منها أن تفعله، حتّى صدمة أخيها تضاءلت رغم قسوتها فتاهت عن رأسها مُؤقتًا..

فقتلة واحدة لا تختلف كثيرًا عن قتلتين!

سحبت مفتاح الغُرفة من ثقبه ووضعته مع مفتاح الشقّة في يديها حين ومضت في رأسي مايا كصاعقة أصابت حدقة عينيَّ فأغمضت هربًا..

ـ عاوز أتأكّد إنّي مش هاتحرك.. مهما حصل ما تفتحيش الباب ده غير بُكرة.

ـ مش هاقدر أستنى لبكرة.

ـ العَوّ مش هياكلني يا لبنى.

ـ أنا مش مقتنعة باللّي أنت بتعمله ده!

ـ ولا أنا.. بس اسمعي كلامي.. ده أأمن ليا وليكي.. رَوّحي وأنا معايا تليفوني.. هاكلمك.

ـ ولو ما اتّصلتش؟

ـ هاتصل.

ـ مش مسامحة نفسي إني أعمل ده!

ـ هنضحك على الكلام ده بكرة.. أوعديني تنفذي اللي طلبته زي ما قلت لك.. ما تجيش لوحدك.. لو لسّه ليّا عندك خاطر ما تجيش لوحدك..

ـ مش هاسامحك لو حصل لك حاجة..

ـ مش هيحصل حاجة..

هزّت رأسها ولم أمهلها وقتًا للتفاوض، ابتَسمت صِناعيًّا واعتصرت يدها توديعًا، أغلقت الباب على نفسي وانتظرت حتّى سمعت خطواتها البطيئة وباب الشقّة ينغلق من ورائها، خَلَعت قميصي فلمحت علامتي التجارية ولم أجد لي مَصنعًا ينتجني،

فقط ورقة سعري كانت مُتدلية، مكتوب فيها أنّي مَجانًا بخصم ١٠٠٪، ومَعي هديّة زُجاجة بيرة مثلّجة ولفافة تبغ!

فتحت الدولاب وأخرجت الثوب الأثري، أزلت الغلاف البلاستيكي من فوقه بحذر ووضعته على سريري، أمام مرآة التسريحة أمسكت الميكروفون وأعلنت عن الفقرة التالية:

سيداتي آنساتي سادتي..

أدعوكم لقضاء وقت مُمتع مع الغُموض والإثارة.. السِّحر والمُتعة وثالث فقراتنا مع قُرص الـ«DMT»..

الفيل الأزرق..

بُقعة إضاءة ناصِعة أضاءت حلبة السيرك، قبل أن ينزِل قَفَص حَديدي مَهيب من سقف الخيمة مع قرع طبول سَريع ما لبث أن توقّف بغتة حين استقر القفص على الأرض، وقفت في منتصف الدائرة الحمراء أتأمّل وجوه الجمهور المنبهر حين هدرت الأبواق النحاسية مُعلنة بدأ الفقرة، أخرَجت الجَسد المَهيب من جَيبي، فيل أزرق يُحيطه أربعة عَبيد مَفتولي العَضلات يكبِّلون أقدامه بجَنازير غليظة خشية هَياجه، صَفّق الجُمهور انبهارًا وانقطعت أنفاسهم تصفيرًا من سِحر اللون الأزرق في العيون فضربت كُرباجي على ظهري ترهيبًا ليَسود الخيمة صمت له وقع، لمّا وَصَل الفيل إلى وسط الحلبة رَفَع خرطومه عاليًا وأصدر نَهيمًا عَميقًا بثّ الرُّعب في نُفُوس الأطفال فاختبئوا في صُدور أمّهاتهم،

وشدّ العبيد جنازيرهم حَذرًا أن يَفلت، لحظة صَمت مَرّت حين خَرَج قَزْم من وراء الدخان الهائم قُرب الأرض، مُهرّج مقوّس الساقين بأنف حَمراء وضحكة عَريضة قَبيحة، يَحمل في يده كوب ماء كبيرًا، ناولنيه فرفست مؤخرته بقدمي ليتشقلب فيضحك الأطفال تخفيفًا للتوتر قبل أن ينسحِب، رَفعت الكوب في وجه المتفرجين أستعرض كونه ماءً عاديًّا قبل أن آمُر العبيد بفكّ قُيود الفيل، توتّرت الأجواء وقُرعت الطبول في إيقاع سَريع وسَاد الترقّب النفوس، فكّ الحُرّاس جنازيرهم وسَحبوها وراءهم إلى خارج القفص الحديدي وأغلقوا الأبواب، اقتربت من الفيل بحذر، رَمقني بعين سوداء رأيت فيها نفسي، دُرت حوله مرّتين قبل أن ألتقط ذيله الصغير المُشْعِر، لَفَفته حول سبّابتي حتّى تمكّنت منه فهَاج ووقف على قائمتيه الخلفيتين ينهم بصوت مُرعب قبل أن أرفعه عاليًا وسط ذهول الجمهور وأفتح فمي لأسقطه على لساني ثم أبتلعه بكوب الماء الكبير!

سَاد الخيمة صَمت الجنائز وعَلَت الوجوه دهشة كدهشة السحرة لمّا رأوا عَصاة مُوسى ثُعبانًا، ثوانٍ بطيئة مرّت قبل أن ألتقط الميكروفون..

أرجو أن تكونوا قد استمتعتم بفقرة الفيل الأزرق..

انهمر التصفيق والصفير بلا توقّف.. نظرت في الوُجوه المنبهرة لحظات وابتسمت قبل أن آمُر بفتح أقفاص الأسود عليهم!

برفق التقطت القميص من فوق سريري واقتربت من المرآة، مع أدنى حَركة يُصدر صَوتًا يشبه رفرفة جناح طائر بسبب جَفاف أنْسجته، وقفت أتأمّل نقوشه، بَدَت مُنمّقة أرهقْت كثيرًا مَن خطّها، لا أصدِّق مثابرة القَلم الذي كتب الأرقام والآيات، الدوائر والمربعات وأوراق الشجر! شَعَرت أنه سيتفسّخ بين لحظة وأخرى أو يَنحلّ خيوطًا، لكنه تماسك، اللعنة، يا ليته يَصِير ترابًا بين قدميّ أو يتبخّر! يا ليت شريف ينتحِر ليريح نفسه.. ويُريحني..

جُمود قَلبي بَلغ صَلابة الألماس..

نظرت لنفسي في المرآة ورأيت الأحمق ينظر لي، أرفع ذراعيّ فيرفعها، أحرِّك أصابعي فيُحرِّكها، لم أتمالك نفسي من الغَيظ، اندفع الدّم إلى وجهي فأخرجت ولاعتي ورفَعت القميص قبل أن أصُكّ الحَجَر وأُشعل تحته نارًا، التقطت فَتلة مُتدلية أطراف اللهب فانكمشت، تَكوّرت على نفسها واسودّت قبل أن تتبعها أخرى فأخرى حين تمالكت نَفسي بصعوبة وأطفأت ناري!

إذا كنت سأحرقه.. على الأقل يجب أن أرتديه مرّة!

نَظَرْت للقميص جيدًا وتذكّرت ما سَيفعله الفيل الأزرق بعد لحظات، سيفتح بجسده العِملاق طريقًا في غَابة مُعقّدة مُتشابكة، سيسوّى الأشجار بالأرض ويَدهَس السكّان ويشرب كل مياه البُحيرات فتموت كل الحيوانات!

لا بأس.. ولا سـبيل للتراجع فقد بدأت أسمع نهيمه بالفعل وأشم رائحته..

شغَّلت الكاميرا ووضعتها على التسريحة في مُواجهتي، سَحبت نفسًا عميقًا وأدخلت رأسي في القميص وحين استقر على كتفيّ..

لم أجد نفسي في الغرفة..

الوقت كان ظهرًا..

الشّمس حَارقة حَانقة أجبرتني عَلى رَفع كَفّي أمام عَينيّ اعتراضًا، الصُّداع فشخ رَأسي نِصفين ووَسّع حدقتيّ كَيًّا وأدمعهما، تعرُّجات الأرض غير المُستوية آلمت قدميّ، ونعل البُلغة التي أنتعِلها رقيق لا يعزِلني! والجلباب!! بُنّي داكِن خَشِن المَلمس طَبَع عَرقي على نَسيجه دَوائر من الملح تَفوح صدأً.. اللعنة!! أين أنا؟

الليل الليل يا قِرد الليل.. وأنا كان مَالي يا قرد الليل..

نظرت بجانبي فرأيت رجلًا متكئًا بظهره إلى حَائِط قُرب باب عَتيق، مُمسكًا بِرِقّ صغير بين يَديه الخَشِنتين، جِلبابه متّسِخ وقَدماه جِذع شجرة تعيسة لم تَرتَو من قبل، أمامه قِرد ضَئيل الحَجم في عُنقه سِلسِلة مَشدودة إلى رُسغ سيده، يَرتدي ثوب طِفلة ويُمسك بين أصابِعه القبيحة المُشعِرة سِيجارة! يَسحب منها نفسًا ثم يُخرج الدُّخان من أنفه بحِرفية حَشّاش عتيد، الرجل يَدقّ على الرقّ إيقاعًا رتيبًا رَخيصًا والقِرد يَقفز في الهَواء..

بالعدل رزقي ومَال النّاس.. بَاعْمِل عجين الفلاحـة..

وعشان تمامك يا سيد الناس.. نغرّقك عـزّ وراحـة..

نظر لي الرّجل في ودّ وابتسم بأسنان مُتهدّمة سَوداء، مُتماديًا في غِنائه بِصوت أخنف رَتيب هَيّج الصُّداع في عَينيّ لعنه الله!! ابتعدت عنه أتعثر في خطوات الجلباب الضيّقة، لم ألبس جلبابًا من قبل! بالكَاد تفاديت الاصطدام بوجه ناقة مارّة بجانبي، ناقة أولى في مَوكِب من عَشر نُوق تَحْمِل قِرَب مَاء مُمتلئة تَتَدلّى لتحيط جوانبها، يَجرّها بحبال غليظة مُراهقون خمريو الوجوه حفاة الأقدام! التصقت بحائِط لأتفاداهم حتّى مرّوا والمَاء المُتسرِّب من ورائهم يصنع نهرًا صَغيرًا تنهله الكِلاب الضالة والقِطط!

مشيت خُطوات في وَجه الشّمس الزاجِرة لا أعرف إلى أي اتجاه أسير حين لاحظت أنّ أغلب الوجوه التَعيسة تَنظُر لي بودّ وهِي مارّة بِجَانبي، يعرفونني! يَهزّون رءوسهم ويُحرّكون شِفاههم بِكلمات لم تُدركها أذناي، وأنثى! ابتسمتْ بدلال من تحت بُرقُعها المزيّن بحلية ذهبية بين العينين، أعرف تلك العينين! تخطّتني وأحكَمت لَفّ ملاءة سوداء تخفي تحتها فواكِه الجنّة، قبل أن تبتعِد أنزلت عينيّ كعادتي في تأمّل كل أنثى إلى قدميها، أصابِعها دقيقة مطلية بلون فاقع، لَبَنيٍّ فاقِع!

مايا! مايا!!

ناديت ولم أسمع صوتي قبل أن تتوه منّي بين الزحام ولا أدركها، ابتعدت أمتارًا إضافية حتّى ظهرت البَوّابة العظيمة، بوابة تَسع فيلًا أزرق! بَوابة قديمة يُحيطها بُرجان حَجريان مُصمَتان فوقهما مئذنتان هائلتان، رأيت ذلك المشهد في صورة أو ربما كتاب تاريخ! شيء ما دفعني للعبور أسفل منها، شيء حتمي مفروغ منه كفيلم انتهى عَرضه في السينمَات ومَات أبطاله! اقتربت مِن البوابة فراعتني جثّة امرأة مشنوقة، مَكتوفة اليدين مُعلَّقة بحَبل غَليظ يُحيط رقبتها، لِسانها مُتدلٍّ وعَيناها بَيضَاوان مائعتان من التعفّن، قدماها بنفسجيّتان من أثر الدماء المتجلّطة المترسّبة فيهما ونِصف رأسها حليق، الغريب أن أحدًا لا يوليها اهتمامه! كأنها جزء من ديكور البوابة!! مَررت أسفل منها وعيناي لا تطاوعاني في تركها وشأنها، انخرطت وَسط زِحام باعة جائلين يجرُّون عَربات عليها خضراوات وفواكِه ومَوازين، سَقائين مُترجلين مُسرعي الخُطى يَحملون قِرَب مياه من جِلد الماعز! شحاذين ذوي عاهات رثّي الثياب متّسخين، وأطفال قذرين حَليقي الرءوس يرتاح الذباب في أعينهم، يَلعبون بصَخب لا أسمعه! اللعنة! أُذناي مَسدودتان بشمع يَكفي نَحل الأرض! حين أصبحت بحذاء الباب العتيق لاحظت مَسامير غليظة وضروسًا آدمية تُغطي وجه الباب بِشكل مقزّز!! مَغروسة بجذورها الرباعية في مَتن البوابة، كأنها ستنبُت شجرًا! ويَقف أمَام المِزلاج الخشبي الهائِل رِجال بسطاء ونِساء، يَدسّون أوراقًا صغيرة في الشقوق

والفواصِل، خاشعون مُنكسو الرءوس مُتمسّحون ببركات الباب كأنه الحَجر الأسود، مُبتهلون يَترنمون بصوت خفيض:

يا متولّي.. يا متولّي.. اشفي ضرسي وريّح عقلي..

تركت البوابة واتجهت إلى اليَسار، إجباريًّا، ازدادت التّحيات ورفع الأيدي بالسلام وهَزّ الرءوس احترامًا، لم أستطع إلا الإيماء والزّيغ بَعينيّ هربًا من السؤال! أنا في منطقة حميمية! أو ربّما الفيل الأزرق يسير من خلفي فيضفي عليّ رهبة الملوك؟ التفت بغتة ولم أجده! فَقَط الشَّمس ثقبت عينيّ كسوس في عَصب ضرس مَحفور، شعور القيء بدأ يراودني، استحوذ عليَّ ببطء حيّة عاصرة، وحَلقي يَجفّ بجنون، كأنّي ابتلعت ترابًا، لَمَحْت سَبيلًا كبيرًا قرأت على خشبة منحوتة بجانبه «سبيل الستِّ نَفيسة البيضاء رحمها الله»، سَمعت خرير المياه فهممت بالاقتراب حين وجدت ضيفي الأسود الكئيب واقفًا بين عمودين، يَلهث بتحفّز وذَيله بين قائمتيه الخلفيتين في وَضع هُجوم، زمجر الكلب بشراسة وزام فرجعت خطوتين قبل أن أبتعِد! ظللت ألتفت خلفي أتخبّط الناس وأتعثر في الجلباب اللعين أرفع طرفه بيدي والتراب يغزو رئتيّ، حتّى مررت من أمام باب بيت مَفتوح سمعت منه شدوًا:

الحَيّ في حِجْره بيّت ما رقـد..

عينه من قُصِّتها وضيّ الحَلَـق..

الحَيّ في حِجْره بيّت لم ينـم..

عينه لِسوّتها ولتحت الحـزام..

الحَيّ في حِجْره بيّت ووصل..

عينـه لـرسمتها ولحُقّ العسل..

رجعت خطوتين فلمحت في الساحة بغلًا، بَغلًا أزرق! بغلًا اسمه بحر!

إنّه بيت الطفل الذي وخزني.. بيت الخنافِس وشجرة الكافور!! وتلك الأغنية غنّاها شريف في المسجّل من قبل..

مَرّت بي قَشعريرة لم تكن لتوقفني، عَبَرْت بوابة مُعلّقًا فوقها تِمساح مُحنّط، اقتربت من السَّاحة التي رأيتها قبلًا من المشربية، شَجَر الليمون مُنتشر على الجوانب، وفي المنتصف حَوض الماء تَعلوه نباتات الزنبق الدائرية، تَغريد العَصافير يُضفي على المَكان هُدوءًا وسَكينة ارتاحت لها نفسي، حتّى الصُّداع والغَثيان خفتا وخَشعَا واستسلما، اقتربت من البغل بحذر، كان أكبر من حصان! لونه البنِّي العجيب يَتغير مع أنفاسه صُعودًا وهُبوطًا، تلمع فيه موجة زرقاء تتحرك كرقاب الحمامات الزاجِلة، لم أقاوم رغبة في مدّ يدي إليه، لم يَنفُر أو يُعرِض، بل لَحَس قِطعة السُكَّر المُتحجّرة التي أخرجتها من جَيب جِلبابي لاإراديًّا!! كان ذلك حين لاحظت سُمرة يَدي، والخاتم الأسود الذي ألبسه في خنصري!! مَسَحْت على ظهره اللامِع حين سَمِعت حَفِيف

الأقدام، نَظَرت للسلّم الخَشَبي فوجدتها نازِلة، ترتدي جلبابًا أسود من القطيفة وتضع بُرقعًا مُتدلّيًا لم يُخْف مَلامِحها المُسنّة وشعرها الأبيض الخشن الشارد خارج نقابها، سيدة الوشم!! هَمَمت بالاقتراب منها فتجنّبتني وأسْرَعت إلى بوابة الخروج، كان ذلك حين وجدت «نيجوزي» أمامي!! خادمة عوني، ترتدي جلبابًا فَلّاحيًّا صاخِب الألوان، ويُحيط رأسها إيشارب أسود وفي أذنيها وطرف أنفها أقراط نُحاسية مستديرة..

ـ نيجوزي!!

نظرت لي باستغراب واقتربتْ مُحاولة السيطرة على الإوزة التي تقبِض على جناحيها بين أصابِعها السمراء..

ـ نجيّة يا سيدي!! مَحسوبتك نجيّة..

ـ أنتِ بتتكلمي عربي!! إيه اللي جابك هِنا؟

رَمَقتني بقلق مَمْزوج بشفقة قرأتها في عينيها مرّة في بيت عوني..

ـ ستّي جوّة مستنظراك..

ـ ستّك مين؟

ـ ....!!!

ـ مين الست اللي عدّت هِنا دلوقت؟

ـ دي بوز الإخص..

قالتها بخَجَل قبل أن تَستنكِر قولتها وتبتعد إلى رُكن فيه باب صغير، خرجت منه واختفت، صَعدت الدرجات الخشبية حيث أشارت ودفعت الباب بِرفْق، الشّمس كانت تَعبر المشربية راسمة على الأرض خُطوطًا من الضوء ومُربَّعات صغيرة، شَجرة الكافور الوارفة تتوسط صَحن الدار ثاقبة السقف، تضفي بوجودها حُرمة وقُدسية، لَمَحت القُلل بجانب المشربية تشِع بُرودة، لو كان ريقي جيرًا حيًّا لشربت، ببطء شديد لم أملك تسريعه اقتربت، رَفعت عُنق القلّة إلى فمي ورغم البرودة والنداوة لم ينزل منها شيء، لِساني تَحنّط جَفافًا كعُصفور مَيّت، وَضعتها في الصينية والتفت لصَحن الدار أتأمّل، الباب الذي دخلته من قبل كان مُواربًا، صَوت الدَندَنة يسبح في الهواء بلسَان أنثوي نَاعِم، اقتربت من الباب ودفعته، لا إراديًّا طَارت عَيناي للسّقف أتفقد الخنافس ولم أجدها، الناموسية كانت مُنسدلة على عواميد السرير العتيق، والرائحة زكية قوية مسكرة، عبق مَسام أنثى..

قُومي اركبي.. قُومي اركبي..

سَعدك مِلاقيكي..

جِيبي ولد.. جِيبي ولد..

أول بَكاريكي..

سيدة الدار كانت تدندن فوق سريرها! تنميلًا كثيفًا تخلّل

كَتفيّ ورَقبتي قبل أن يترَكّز في ذراعي اليسرى، امتلأت خدرًا لا يأتي إلا بصحبة ثلاث كئوس «Absinthe» متتالية! على يساري لمحت مرآة طويلة إطارها من النُّحاس، مُعلقة بِمسمارين بين عمودين من الأبنوس ومُوجّهة للأرض، أكلني الفضول لرؤية نفسي في عالم الفيل فاقتربت، مَددت يدي وقوّمت المرآة عموديًّا، ما كان لكلمات أن تُعبّر عمّا اعتراني حين شاهدت ما عكسه سَطحها، تباطأت ضربات قلبي في لحظة، سَكتة قلبية تتلكّأ، تراجعت مُتخبطًا فتعثّرت في سجّادة، سَقطت ببطء شديد ولم يُفارق الانعكاس عينيّ، أعرفه! هو!! تقابلنا من قبل في غرفة العزل، اعتصر رقبتي وهدّدني بحبّ شديد إن لم آت بالقميص سأتمنّى أن ألقى حتفي.. ولن أنال ذلك الشرف!! انقبضت ورفعت كفّي السمراء أتأمّل الخاتم الفضّي ذا الفص الأسود المربّع ونقوشه التي تشبه الأغصان، لامَست وَجهي العَريض، تحسّست فَمي الواسع تحت أنفي المُدبَّب، مَسحت على جَبهتي العَريضة المستوية فوق حاجبيّ الكثيفين البارزين وشَعري المُنسدل بجانب كتفيّ!

ضربات خرطوم الفيل الأزرق فوق رأسي أصابتني بعطب.. نَفَث الجُنون في أنفي وصبّ لُعابه في لبّ عَقلي..

يُقال إن كُل من تناولوا الـ«DMT» مَشوا في جنازات أنفسهم قبل أن يموتوا!!

لحظات لم أُحصها ظللت مُلقًى على الأرض أحاول

استيعاب هَيئتي، مُهملًا كجثّة متعفّنة تعافها حتّى النسور قبل أن أسمع الصوت من خلف الناموسية ينادي بغنج فاتن:

ـ مأمون.. مأمون!!

كيف يكون حرفا المِيم والنُّون بذلك السِّحر؟!

دقّقت بين أعمِدة السرير فرأيت جسمًا مُتلألئًا يتلوى في الفراش، أدرت وَجه المرآة للأرض هربًا منّي واقتربت منها، الخِدر ينهشني والدم رمال ثائرة تندفِع في شرايِيني فتخربشها من الداخِل، لمّا أصبحت خلف الناموسية قَرأت حُدود جَسدها من الفتحات الضيقة.. هي! سَيدة الدار، الحورية التي نَقشت العجوز وركها، عَارية تَرقُد على فَرْش أبيض لا يُمَيِّزها عن نُصوعه سِوى بهجة لحمها الوردي البضّ، وضَفيرة شعر سوداء فاحمة قد تسحب فَحل ثور من قرنيه، تتلوّى بجانبها كحيّة وتتدلى حتّى الأرض حول ساقي تعتصرها بنعومة، لَمَحت ابتسامتها ثم رأيت يدها تمتد نحوي فأزحت الناموسية وتلقّيت الطَّعنة من رموش كالسيوف فوق عينين هما الحياة لا جدال..

ـ تعالَ..

نادتني ولم تنتظِر، سَحبت يَدي فاضطجعت بجَانبها بحتمية الاستسلام لملك الموت، كشفَت عن فخذها وابتسَمت ابتسامة ساحرة وهي تستعرض الوشم الذي دقّته المرأة العجوز، رسم

أقرب لخطّين متقاطعين كحرف «X» لاتيني أطرافه الأربعة تنتهي بحرف «ص»!! يصنع في المجمل شكل وردة مُبسّطة!

نَفس شكل الوشم الذي رأيته في صورة بسمة وشريف على الشاطئ، الوشم الذي تم سلخه من فخذها قبل أن تحلِّق من الدور الثلاثين!!

ظللت أتأمّل الرسم على فخذها المذهِل قبل أن تباعِد ما بين ساقيها..

- حبيبي شايفني؟ لسّه مسدودة؟؟

هنا توقّفَت آخر مَداركي عن التحليل والتفكير، أردت أن أفِيق ولم أعد أملك تلك الرفاهية، انسحبت روحي من صدري وضربني السِّحر، قرأت في عينيّ المُنبهرتين رغبتي العمياء فاقتربتْ ولثمتْ رقبتي، أنفاسها الساخنة سرت من رأسي حتّى أصبع قدمي الصغيرة، ابتسمتْ فذُبت على شفتيها، نهشت جِلدها الأملس كجِلد الأطفال واستنشقت رائحة أنفاسها، كأس «Blue Label» إصدار «الملك جيمس الخامس»!

لم أعُد مُهتمًّا بسؤال نفسي عن مَكاني.. زَماني.. عن الغريب الذي قابلته في المرآة!!

أو عن نيّة الفيل الأزرق وهل سيعيدني من حيث أتيت؟!

«I don’t give a shit»..

فقط هي اللؤلؤة الليّنة بين أنامِلي أقلّبها ولا أكترث..

أستنشق مِسكها وعنبرها وياسمينها..

أمْسح على مُقدساتها وأقبّل أقفالها..

أزور كهوفها وجبالها ووديانها..

أنهل أنهار عسلها..

أبلُغ بئر خلودها..

أشبع منها حتّى أجوع..

هل تابعت حلقات «National Geographic» عن «الحريم العثماني»؟

أسطورة السلطان الذي مَرّ على أجمل مائة جارية من كل أجناس الأرض.. في ليلة!!

أعرف شعوره الآن تَمامًا ولا فخر..

وشم الوردة يَنبض على فَخذها ويتلوّى! وذراعي اليسرى بدأت ترتعش، الألم فيها والخِدر تلازما، اللعنة على السُكّري!! لا بد أنّي نهلت من نهر العسل بدون وعي! بدون أنسولين! ثوانٍ ولم أعُد أستطيع تحريك ذراعي، نَفَسِي تَهَدّج وضَربات قَلبي أَبطأت، الغثيان والهبوط يَلوحان في الأفق والعَرق مُقدّمة مَنطقية لغيبوبة سُكّر، اللعنة، سأموت شهيدًا على ذلك الصدر! ياللعار!!

نَظرت إلى وجهها أستغيث، كانت ترمقني بقلق تحوّل إلى خوف، خوف منّي وليس خوفًا عليّ! سُخونة ذراعي تكاد تُشعل السرير من تحتنا، الهلع استبدل الخوف في ملامِحها من عُنف حَركاتي، عَرقي انهمر على صدرها وبدأت أرتج بلا إرادة، أتزلزل حتّى بدأتْ تصرُخ من تحتي، صَوتها مزّق طبلة أذني فكَتمت فمها لا إراديًّا بيدي، قبضت على رسغي مُقاومة حين لاحظت ذراعها، ذراعها المرصّعة بالحسنات! أربع عشرة حسنة!! نظرت في الوجه غير مُصدّق ما أفعل!!

لِماذا لَم أمت في الحادثة؟

لماذا لَم تفنَ الأفيال الزُّرق مثل الديناصورات!

أنا أكتم أنفاس لبنى بيدي كما كتمت أنفاس مايا من قبل!!

سيدة الدار العتيق كانت لبنى!

صَاحبة الوشم كانت لبنى!!

شفاه الـ«Blue Label» كيف نسيت؟ كانت دائمًا وأبدًا شفاه لُبنى!!!

ألم آمرها بالذهاب وأعطيت لها المفاتيح؟

لبنى كانت تختنِق تحت وطأة أصابعي المتشنجة، جَاهدت لأزيح يدي عن فمها ولم أستطع، فقدت التحكّم في ذراعي، فقط الألم أحسّه يسلخ رسغي سَلخًا، وجَسدي صخرة فوقها

لا أستطيع تحريكها، مُحافظًا على رايتي بداخلها لا أتوقف عن دكّ حِصنها، أغتصبها لا إراديًّا والغيبوبة تَسحبني لقاع لا هواء فيه، ثوانٍ وبدأت عيناي تنطفئان، الأصوات تَخبو، الغرفة تختفي ووجهها المُلتاع يتلاشى، حتّى ذراعي فقدت الإحساس بها، بحثت عنها تحت كتفي فوجدتها بجلف قابضة على صدر لبنى تعتصره عَصرًا، والوشم يخرج من تحت إبطي ليتلوّى بهدوء صانعًا رسمًا أعرفه، وَشم داكِن يَمتد من الكتف لينتهي في الكف، تَقطعه بالعَرض خطوط تلتف حول الذراع كدرجات سلّم، نهاية كل منها مشبوكة بما يشبه حرفي «ص» مُتعاكسين، لم يكن ذلك سوى وشم شريف!

كان ذلك قبل أن يتلاشى كل شيء وأستلقي بظهري في قاع بئر.. مَردومة..

انتظرت المَلَكَيْن أن يأتيا ولم يفعلا! تأخّرا..

سيسألاني عن إلهي ورسولي وديني ولن أجيب.. عَمدًا..

الجحيم يجب أن يحظى بكوادِر وقادة يبثون اليأس في نفوس الأجيال الجديدة..

الضّوء كان قاسيًا مُبالغًا في شدّته.. فَتَحت عينيّ على ثاني أكثر المخلوقات شَرًّا من بَعدي.. الشمس..

لم يكن ما رأيت شمسًا واحِدة.. كانتا شمسين إحداهما في الشرق والأخرى في الغرب يَمحوان الظِّلال من حول أقدام المارة!!

كنت واقفًا في نفس المكان.. أمام القُرداتي المَسنود على الحَائِط وقرده القبيح يتقافز أمامه..

الليل الليل يا قِرد الليل.. وأنا كان مَالي يا قرد الليل..

قمت أستنِد الحائِط، أتأمّل القرداتي الذي ينظر لي بأسنانه

الكريهة، يريدني أن أنفحه نقودًا جزاء التعذيب الذي يمارسه على طبلة أذني!! لو بيدي لخَرقت له الرِّق وخنقت قِرده! ابتعدت، المارة كانوا يتأمّلونني بدهشة فرفعت يدي أمام وجهي وأسرعت أتسنّد سورًا ضَخمًا لا ينتهي والدوار والغثيان ينهشاني، ظللت أبتعِد عن أغنية القرد المُميتة حتّى وَصلت إلى بوابة في السُّور بداخلها سلّم صَاعِد ينتهي بباب، شَيء حَتمي دَفعني فصَعدت، سلّم طويل لا نهائي اعتقدت للحظات أن نهايته ستصل للسحاب، وصلت أمام البَاب الخَشبي المُغلق بعد عناء، لهثت وأنا أدقّ عليه بأمل لا أفهمه، ثوانٍ وانفتح البَاب!!

ـ عمّ سيّد!! بتعمِل إيه هِنا؟!!

ـ أنا مكاني هِنا..

تأمّلت ذقنه التي تصل لِنصف صَدره، جِلبابه الأبيض والسّترة الداكنة فوقه، الطربوش الأحمر القصير والقبقاب الجديد في قدميه!! أخرسني وجـوده فأسنــدني وأجلسني على كرسي من القشّ وتحدّث بكلام لم أفقه مِنه شَيئًا، أُذناي مَغْمُورتان في بَحر تَصلها الأصوات مُبهمة مُشوّشة، فقط التقطت أنه يناديني بالمأمون!! ويحدّثني باحترام ينثني من أجله ظهره، لَحظات وتركني ليخرج عبر باب جانبي يفضي إلى غرفة أخرى فتأملت المكان من حولي، رأيت نول حِياكة، أقمشة ملفوفة فوق بعضها ودُرجًا للإبر والخيوط وعددًا لا نهائيًا من الكتب فوق رُفوف على الجُدران، بصعوبة قَاومت غثياني وقُمت، تمشّيت للغرفة الجانبية

التي دلف إليها عَم سيِّد، كان مكفيًّا على رداء يحيك فيه تفصيلة بإبرة طويلة، اقتربت فأيقنت أنه القميص الأثري، كان جَديدًا كأنه صُنِع بالأمس، شَعر بوجودي فابتسم قبل أن يقوم ويقرّب منّي طبقًا نحاسيًّا كَبيرًا وضعه بين قَدميّ، التقط ذراعي اليسرى ثم كشف كُمّ جلبابي، الوَشم لم يَكُن مَوجُودًا، كان هناك حرق، حرق تمَشى على خُطوط الوشم الذي رأيته يتشكّل وأنا بين يدَيْ لبنى، نَظَر في الحروق قبل أن ينحني ويرفع الجلباب ويُجردني منه، الحَرق كان ممتدًّا من ذراعي اليسرى حتّى أعضائي التناسليّة، انسحبت روحي إلى قدميّ لمّا تأمّلت الحروق قبل أن أترنّح وأسقط، أدركني الرجل فأجلسني قبل أن يأتيني بطَبق فيه دهان أحمر رائحته نفّاذة، فَرده بيدين مُرتعشتين على حُروق الوشم ثم مَسَحه بكَرم قبل أن يَغمِس سَبابته في الدِّهان وهو يُردّد:

ـ يا هادي الهدية.. يا شافي الشفية.. يا حافِظ السر في مَحبسه.. يا مفجِّر الأرض ينابيع ورحمة..

ردّدها ثم مدّ أصابعه وفشخ فكّي عَنوة ثم دسّ أصبعه في حلقي فلم أتمالك نفسي.. تقيّأت سائلًا أصفر مَخلوطًا بسواد ورائحة كريهة يعافها كلب..

ـ استفرغ.. استفرغ.. كل يوم تمِد صابعك في خشمك وتستفرغ.. فضّي بطنك واملاها ميّة وملح.. تتوضّى بالملح وتستنجى بالملح وتغتسِل بالملح.. الملح طاهر يطهّرك.. الملح يجنّنه.. يبعده عنّك سبع أيام..

ظللت أقذف ما في جوفي لدقيقة متواصلة في الطبق النحاسي الذي وضعه بين قدميّ قبل أن أخمد.. ألبسني القميص ووضع كفّه على صَدري وبَدأ يُرتّل كَلمات بالكاد استوعبتها..

ـ يا حي يا دايم يا فتّاح.. على عَبدك قبّة من حَديد لا يفتحها سِلاح.. ولا إبليس بمفتاح.. ولا نايل النكّاح.. بحقّ الكاف والنون.. تمحي الجنون.. وتبعد الكلب الأسود عنّه ألف ألف ألف يوم..

هدأت نسبيًّا والتقطت أنفاسي قَبل أن يجلس أمامي:

ـ أنت مَمسوس..

ـ ...!!!

ـ القَميص تِلبسه ما يفارقك.. إلا على باب الكَنيف تسيبه في مكان طَاهر.. ولا تعاشر الحُرمة ليلة واحدة.. ولا يمسّه دم.. الدم نجاسة.. لغاية ما يغادر..

ـ مين اللي يغادر؟

ـ منها لله الجاهلة اللي دقّت الطَّلسم على حَريمك.. جلبت لها «نايل» لعنة الله عليه..

ـ نايل!!!

ـ نكّاح سُفلي والعياذ بالله.. نَايل اسمه.. يشم الطلسم ولو على بُعد ألف ميل.. يِحضَر ويغيّبك كما النايم في سابع نومة..

يتكلم بصوتك.. ولو أراد؛ صوته ما يتسمعش.. تروح أنت ويحلّ هوّ.. يلفّ نَفسه عليك وعلى إحليلك ويركب بيك حريمك اللي عليها الرّسم.. وتصْحا في يُوم تلاقي كُل شيء اتبدّل وراح.. ويحلا له بإيدك يزهق الأرواح..

ـ مايا!!!

ـ القميص هيرفع عنّك.. مَكتوب عليه بالمِسك والزعفران دِرعك وحمايتك في تسعة أرقام.. ما بين الكَاف والنّون.. قوله الحق وله المُلك..

كان ذلك أكثر من طاقتي.. خَفَتت عيناي وشقّت رأسي صفارة حادة قبل أن تَميد الأرض من حولي..

ـ عطشان!

نطقتها استغاثة فقام تاركًا القميص في حِجري حين أظلمت الدنيا من حولي وانطفأت الشموس..

فتحت عينيّ تلك المرّة فرأيتني سائرًا قُرب الغروب، مُرتديًا القميص والناس ترمقني بدهشة وأسًى لم أغفَله، كل الأحداث كانت تُعاد كأسطوانة مُستهلكة، مَررت بالقُرداتي، موكِب الجِمال حاملة قِرب المياه العِملاقة، البوابة، المرأة المشنوقة، الأطفال القذرين والذباب حَول أعينهم، الشحاذين والبياعين، مَسامير البوّابة والضروس المغروسة فيها، ابتهالات الواقفين «يا متولّي..» سبيل نفيسة البيضاء، الكلب الأسود السائر خلفي،

وصلت البيت ولم يَزل يتبعني، عبرت الباب فسمعت الصّريخ، مرّت أمامي «نيجوزي» ملتاعة ووراءها عبد أسود يركضان تجاه السلّم المؤدي لباب الدار، ببُطء شديد رَكضت، أعدو في بَحر من عَجين بلا طَوق نَجاة، الصّريخ شقّ أذنيّ آتيًا من غرفتها، غُرفة لُبنى! أزحت أكتاف الخَادمات فرأيت العَبد الأسود يَضرب الباب الخَشَبي الغَليظ بقَدمه، شَاركته الضرب بكتفي حتّى انخلع وانفسخ المزلاج فدخلت، هَرعت للناموسية وأزلتها، لم تكن لُبنى في السرير!! مَسحت الغُرفة بعينيّ للحظة قبل أن تنفضني صرخة، صرخة آتية من السَّقف!! نظرت فرأيتها في رُكن فوق رأسي، مَقلوبة عَارية، بَطنها مُنتفِخ مُلتصِق بالجِدار وسَاقاها مُنفرجتان تجاه السَّقف الخَشبي، تَرتَجان كأنهما قربة يُفصَل فيها الدّهن عن اللبن، وَجهها يحتك بأحجار الحائِط وشعرها الطويل يتماوج كبندول ساعة ناحية الأرض يمسح الحائِط، غَائبة عن الوَعي مُرتخية كخرقة، تُفيق في يَقظات مَتقطّعة لتصرخ، قبل أن تَغيب ثانية..

من هَول المَشهد رَسَمَت «نيجوزي» بأصبعيها صَليبًا في الهَواء وخَرّ العَبد الأسود رَاكِعًا على الأرض قبل أن تفرّ الخادمات الباقيات فَزعًا، صَرخة أخيرة صَدرت من لُبنى قَبل أن تَهوي إلى أرض الغرفة من ارتفاع أربعة أمتار، سمعت عِظامها تطقطق قبل أن يكسيها شعرها سترًا، سَاعدتني «نيجوزي» على حملِها إلى السرير وسجّيناها، وضعت أذني على صَدرها أسترق السمع فالتقطت

نبضات تَستحي، سَترتها بغِطاء ما لبث أن تسلّلت إليه الدماء النابعة من بين فخذيها في بُقعة تتّسِع، فَقدت النُّطق واحتضنتها حين سَطعت الشَّمس في عينيّ فجأة واحترق القمر..

لِساني تبخّر وشفتاي صارتا تُرابًا..

ألا يشرب هؤلاء الكفرة ماءً!!

لمّا فتحت عينيّ كان الليل حالكًا سَاكنًا، رأيتني أحْمل سِكِّينًا حادًّا نَصله مُحتدم أمام فَحم ونَار، ونيجوزي ترشّ الملح حول سرير ترقد فوقه لبنى، مَربوطة في أعمدته تنظُر نحوي بأسى لا يوصف، وسلسلة الفراشة لا زالت على صَدرها، فوق بطنها المنتفخ حَملًا!! اقتربت «نيجوزي» ونظرت في عينيّ قبل أن تدسّ يَدها في مَنبت صَدرها الأبنوسي وتُخرج قماشة مَطويّة مَربوطة في حَبل، تحوي شيئًا له رائِحة نفّاذة قويّة، أحاطت بها رقبتي قبل أن تتمتم:

-يا عَدرا، يا أمّنا الطاهرة، يا ملكة السما، أصغِي إلى صرخات أولادك المعذبين في المطهر واشفعي لهم أمام عرش القدير.. ده حنوط أبونا أثناسيوس وتراب من تحت شجرة مَريم.. يحفظك من كُل شر..

أنهت دعواتها واتّجهت للُبنى قبل أن أعقّب بكلمة، تُرتِّل بلُغتها الحبشيّة همهمات مبهمة! دَنوت شَاهرًا سِكّيني الملتهِب، مَادت عينا لبنى وزاغتا هلعًا قبل أن تشيح بنظرها عنّي، وَضَعت «نيجوزي»

خِرقة مُبتلّة على رَأس لُبنى وأُخرى جَافة جَدلتها ووضعتها بين أسنانها، نَظرت لي لُبنى باستسلام فأمسكت «نيجوزي» بيديها واعتصرت أصابعها ثم كَشفت عن فَخذها، الوشم كان رابضًا ينظر لي، مليئًا بخربشات من آثار إزالة لم تنجح، يَتَحرك تحت جِلدها كزئبق تحت زجاج، «نيجوزي» لم تتوقّف عن ابتهالاتها، مرّت لحظات قبل أن أغرز سكّيني في الفخذ التي طالما تمنّيتها، غرزت بلا إرادة وحفرت، قَشّرت، أشوّه جِلدها وأذبح روحي، صَوت سَلخ الجِلد من اللحم لم يكن لتصفه كلمات، صَرخة لُبنى فلتت عَالية رغم الخِرقة التي وضعَتْها «نيجوزي» بين فكّيها، أمنع نفسي من النظر في وجهها الذي ارتسمَت عليه علامات العذاب، حَفرت حول الوشم دائرة، أزلت طبقات من الجِلد قبل أن تسقط الخِرقة من فم المسكينة بعد أن فقدت الوعي، دَمها صَبغ كُل شيء حولنا، كتمت اندفاعه بقماشة قبل أن أخلع قميصي الذي اتّسخ وأقترب منها لأضمّها وأدفن رأسها في صَدري، ظللت أراقب نَبضات قَلبها تَئِن في وَريد برقبتها، أُشجّعه على الاستمرار، مَسَحت العرق الغزير الذي انساب على جبهتها واعتصرت كفّها الرقيقة أقبّل أنامِلها في اعتذار غير مقبول، ضَمّدتْ «نيجوزي» جَرح فخذها وأغلقت الباب علينا فأطفأت بأناملي السمراء الشمعة الوحيدة التي لم تنطفئ وانزَلَقت بجَانبها تاركًا زفيرها الدافئ يكوي صدري..

قبل الشروق استيقظت من غَفوتي..

لم تكن لُبنى بجانبي! ولا أنا في الغُرفة!! كُنت واقفًا بجانب

المَشْربية الكبيرة في صَحن الدّار الخالي والسّكون طَاغ، «نيجوزي» بين قدميّ مُسجاة على الأرض، عَيناها منقلبتان بَياضًا، فمها مَحشور فيه الحِجاب الذي وهبته لي حماية، قبضتها مُغلقة على خُصلة شعر طويلة وعُنقها زيّنه قَطع حَادّ من الأذن للأذن!!

لم أتمالك نفسي، رَاودني القِيء فرجعت خطوتين أخُوض بقَدمين عَاريتين في دِمائها، مَادت بِي الأرض قبل أن أسمع ضحكة خَافتة قَادمة من الفِناء الخارجي، اقتربت من المشربيّة أنظُر من خِلال فتحاتها فرأيت البَغل بجانب الحوض واقفًا وحَبله مُنحل! نزلت السلّم الصغير ووقفت أمسَح المَكان بَحثًا، لم تلتقط أذناي سوى وسوسة الرِّيح الرطبة في أوراق شجَر الليمون وصوت سَاق البغل اليُسرى تتشنّج كل بضع ثوانٍ وتضرب الأرض بحِدوتها في فَرقَعة مَكتومة!! اقتربت منه ببطء فلاحظت عينيه المُلتهبتين وسَمعت شَحيجه المَكتوم، في البداية لم أتبينها بسبب الظُّلمة، ثم لَمحت شعرها الطويل على الأرض مَفروشًا بين أقدامه، استجمعت أنفاسي وانحنيت بحِرص أنظر أسفل منه فوجدتها جالسة القرفصاء مُمْسِكة بقضيب البغل المُنتشي بيد وفي اليد الأخرى إبرة خياطة طويلة حادة!! رمقتني بابتسامة مِلئها السخرية وهي تَصهَر أعصاب البغل بكفّها، الدمّ يرسُم دائرة في ضمادة فخذها المُقشّرة والوشم إلى الفَخذ الأخرى انتقل! يتلوّى ببُطء ثُعبان يتربّص، لم أكد أستوعِب المشهد حين

ابتسمتْ لي قبل أن تغرز الإبرة في قَضِيب البَغل، شحج الأخير بصوت رَهيب مِلئه الألم قبل أن يَجري باندفاع نَحوي!! رفع قائمتيه الأماميتين في هَيَاج شَديد فانحنيت لا إراديًا مُتفاديًا حدوتيه والتقطت اللجام، شددت عليه بقَبضتي حتّى لا ينفلت، الغُبار مَلأ فمي الذي تلخلخت أسنانه جَفافًا والبَغل بعُنفوانه يَدُكّ الأرض بقدميه ويطيح بي يمنة ويَسْرة، آخر ما لمحته كانت لبنى، تتحرك بهدوء ناحية باب الدار، فتحَته وخرجت بدون أن تنظُر إليّ والإبرة الطويلة بين أصابِعها، كان ذلك حِين تلقّيت الرَّفسة في فَمي فأشرقت الشمس دفعة واحِدة..

القُرداتي.. السّور اللانهائي.. قافلة الجمال.. البَوَّابة.. الضُّروس المَغروسة في شقوقها.. الابتهالات.. يا متولي يا متولي.. اشفع لي وخفّف ألمي.. الشّمس تَحرق عَينيّ والعَرق يُطفئها قبل أن يُحرقها مُجددًا بمِلحه! أسراب الذُّباب تُحاصر وَجهي وتلتصِق.. وَجهي المَختوم بِحَافر بغل! تَحية كَبيرة للبغل الأزرق والفيل الأزرق والذُّبَاب الأزرق..

عَطشان..

لِساني: خمسة أميال مُربّعة في الصحراء الغربية شهر يولية!!

الرجال يُحيطونني في دَائرة.. ينظرون لي والأسى في أعينهم ويربتون على أكتافي.. الأطفال حَليقو الرءوس يتقدمونا مدارين

هَمساتهم بكفوفهم القذرة والنِّساء من خَلفنا مُتَّشِحات بالسَّواد ينحبن نَحيبًا كئيبًا..

يا ورْد في الإبريق..

يا قصر عالي ماكمّلوش تزويق..

حزني عليك يا اللي انطردتِ بعيد..

سِرت بينهم بلا إرادة.. المسافة لم تكن طويلة حتّى ضِفاف النِّيل.. نهر بِكر بلا كورنيش ولا سور ولا كباري تعبر من فوقه.. فقط المُنحَدر الترابي فالطَّمي ثم المياه الثائرة.. المشهد كان مهيبًا.. جَموع من البشر يَقفون في خُشُوع على الضفاف كتماثيل شمع مُستظلة من الشمس بفروع الشجر.. النساء من خلف البراقع متكتلات حول بعضهن كالخنافس.. وصِبية من مُختلف الأعْمَار يَجلسون كالقُرود فَوق جُذوع الأشْجَار حاملين بين أيديهم قِططًا وكِلابًا صغيرة.. ميّتة!

قُرب النهر كان هناك فَصيل مُختلف.. رِجال ذوو هَيبة يَرتدون سَرَاويل فَخْمة في وسطها أحزمة عَريضة تحتضن سيوفًا لامِعة.. يُحيطهم عَبيد أشداء أنوفهم مَثقوبة بحلقات نحاسية.. بجانبهم شيوخ مُسنّون يقفون بخُشوع في قَفَاطين الأزهر الزرقاء..

لما اقتربت زَفّتي توقّف نَحيب الحريم.. وَقَف مَن كَان جَالسًا والتفت مَن كَان واقفًا.. سَاعدني المحيطون في نزول المُنحدر التُّرابي.. أخترق جُموع بشر يتأمّلونني كنجم فوق البساط الأحمر

نُودي اسمه ليتسلّم جائزة أفضل سِكير.. يُحملقون في وَجهي بمشاعِر اختلط فيها الفُضول بالشَّفقة..

حين انغرزت قدماي في الطمي انحنى عليّ رَجُل والتقط بُلغتي.. أسندني آخر ودسّ ثَالث مُصحفًا في يدي وربت على كتفي تشجيعًا قبل أن أصل لعجوز مَهيب الطلعة يَرتدي عمامة عَظيمة فوق رأس سَمين ولُغد منتفخ متهدّل.. يَحمل بين يديه ورقًا أصفر مَلفوفًا وعَصاة فيها شعار لم أتبيّنه.. نَظرت للنَّهر فلمحت المَركب الخَشَبية الصَغيرة تتهادى فوق مَوجه.. مربوطة بحبل إلى صخرة.. تَحمِل على ظهرها أنثى مُغَطّاة الرأس تَجلس على رُكبتيها مُكبّلة اليدين حَافية القدمين.. بجانبها عَبد مُلثّم عَاري الصَّدر.. أدهشني المنظر قبل أن ينتزعني العجوز السَّمين من شُرودي حين صَاح بصوت عالٍ:

- كُل حُرمة في حِجرها عيّل تروّح.. والرِّجَال يمتنعوا عن الكلام..

قالها فَسادَ صمت بليغ قبل أن تبتعد النساء الحاضنات لمسافة تسمح بالمتابعة من بعيد ففتح الرجل أوراقه وبدأ يقرأ ما فيها:

- بسم الله الذي لا يُضار مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء.. بسم ولي النِّعم عَزيز مِصر والسودان والشام والحِجاز محمَّد علي باشا، الحَمد لله على مَا جدَّد لنا من النِّعمة التامَّة،

وسَمح به من الكرامة العامَّة، فاستأنست النفوس إلى استمرار عوائدها، إذ كانت غلطة من الدهر فاستدركها، وإن كانت سَقْطَة بَدَتْ عنه فما تَركَها، فقرَّت بذلك العيونُ، وتحقَّقَتْ في بلوغ الآمال الظنونُ والحمد لله، وبَعْدُ؛ قال الله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾.. فليعلم الجمع أنّنا اجتمعنا اليوم لتوقيع القصَاص على ظَالمة لنَفسها ومُفسدة للحياة باعتْ روحها وجسدها للشيطان.. قَتلتْ منذ إحدى وعشرين ليلة ثلاث ضَحايا أبرياء أسماؤهم:

سَيّد رِضَا عِباده «خياط»، نَجية مِيكال «خادمة حبشيّة»، وجَنين عجيب الخِلقة كان في رحمها..

عَلا الصُّراخ والنواح بين أهالي الضحايا وارتفعت الهمهمات في المحيطين فجحظت عينا الرجل غضبًا وصَرخ:

ـ الصمت وإلا تُستبعدوا..

انكتمت الأفواه واندفنت أُسر الضحايا أحياء فساد الصمت ليكمل الرجل:

ـ تم توقيفها بجانب سبيل السيدة نفيسة البيضا معدومة الحياء كما ولدتها أمّها، وتم حَبسها في تُمن الجمالية، وبمعرفة زَوجها أقرّ بأنها مُذنبة وحَملت في أحشائها سِفاح الشيطان، وبتَعذيبها اعترفت بذنبها فَصَدر الحُكم بالقصاص منها خَنقًا ثم تغريقًا في

مياه النيل بمفاوضة مَختومة من ناظِر ديوان ضَبْط الأمن، والله غافر.. والسلام..

مع الكلمات الأخيرة لوّح الرّجل بعَصَاته التي ميّزت فيها هِلالًا يَحتضن ثَلاثة نُجوم، أشار بها للعَبد الواقف في المَركب فانحنى ليمزِّق مَلابس السَّاجِدة بين قَدميه، عرّى ظهرها لتظهر ضَربات سِياط حَفَرَت جِلدها بخُطوط سِكك حَديد مُتداخِلة، تحرّكت بوهَن فأدار وجهها للجموع ولم تَكن سوى لُبنى! العَينان أُغلقتا بورم بنفسجي كبير والشفاه التي قبّلتها من عشر سنين تمزّقت، لَمَّا نويت الصُّراخ وَجدت أعصَابي قد انفصلت عَنوة عن جَسدي، عَقلي قُبطان يَأمُر وجِسمي بحّار مُتمرّد يأبى الخضوع، مَحبوس أنا فيه كسجين عَروسة تَعذيب حَديدية من القرون الوسطى، أشاهِد الدُّنيا من فتحتين ضيّقتين تعميهما الشّمس، صَرَخْت ولم يسمعني أحد حين فكّ العبد حَبل المَركب وبَدأ يبتعِد عن الضفّة، مَسافة كَافية عن الناس الذين اقتربوا وبلّلت المياه جلابيبهم، عيناها تبحثان عني بهستيريا بين الوجوه ولا أقوى على رفع يدَيّ ملوحًا لها، ضَربت قضبان زنزانتي بهستيريا مُحاولًا فتحها حين توقّفت المَركِب على مَسافة عشرين مِترًا، تَكسّرت عِظام ذِراعي ألف قِطعة قَبل أن يَنحني العَبد على جسد لبنى الراكع ويُنهضها، استقامت بوهن ويأس تترنّح بين يَديه الجبارتين، المِسكينة لديها طِفلة يا لعين!! صرخْتُ، لم تَخرج الكلمات من فمي! أعيُن الجُموع تَلهج بالانتقام، والأطفال

جَاحظون في جَشَع يُسجلون حَدثًا لَن ينسوه! لفظت حَنجرتي من طول صَرخة يأس أطلقتها حين لفَّ العبد جلدة داكنة حول رقبة لُبنى، وبدأ يَعتصِر، جَحَظَت عيناها واحتقن وجهها في اللحظة التي ميّزتني فيها من بين الواقفين، فتحت فمها تستجدي هواءً وتناديني بلا صوت، يَداها المَربوطتان تتحركان في صَخَب والحَبل غَليظ يَحبِسَها، اللعنة!! العَجز والقَهر اغتصباني فركلت حوائِط زنزانتي حتّى أدميت قدمي وسَقطت على ركبتيّ في اللحظة التي سقطت فيها لبنى بين يدَي العبد، تشنّجت حركتها مرتين وانقبضت عضلاتها قبل أن تنقلب حَدَقتاها ثم تَخمد بين أصابِعه!

انقضت لحظات قبل أن يَحلّ الجلدة من حَول رَقبتها ويَضع كفّه أمام أنفها ليَطمئِن على إتقان عَمله، ثوانٍ لم يشعُر فيها بحرارة أنفاسها التي أقدّسها فتَركها لتَسقط بين قدميه!

عَلت الزغاريد وهتاف الرجال ورَمى الصِّبية بالقِطط والكلاب الميّتة في المياه حين صرخ رجل دين: «انظروا عَاقبة المُفسدين..»، وصاح آخر: «إلى جهنّم وبِئس المصير»، كان ذلك قبل أن يَنحني العَبد ليربِط سَاقيْ ضَحيته في حَجَر ويَحملها بين ذِراعيه بعد أن وضعه في حجرها، ناظرًا للناطِق بالحُكم الذي أشار بإبهامه إلى أسْفل فهاجت الجُموع تشفّيًا وتَعالى عَويل النساء قَبل أن يُلقيها العَبد في النهر!

غرقت لبنى!

سَحبها الحَجر للقاع، شَعرها الطّويل صَنَع دَوّامة صَغيرة مَا لبثت أن تلاشت ليعود المَوج لاضطرابه! غاصت حتّى عَانقت طمي القَاع في اللحظة التي ارتطم فيها جَسدي بأرض الزنزانة وحَلّ السكون! امتلأت رئتاي بالمياه وغمرني الطمي، ولم أقاوم، أخيرًا، فَقَدت الرّغبة في الحياة، لم أكُن أعرف أن الموت قد يكون بتلك السهولة! لم أكُن أعرف أنّي أفتقِد ابنتي بذلك الشكل!! ولم أتخيّل يومًا أنّي قد أنسى وجه زوجتي!! نرمين..

احتجت ثانيتين لأستوعِب مَلامِحها! كانت جالسة بجانبي تحتضِن نور، تنظر لي بشَفقة تحوّلت تدريجيًّا لابتسامة حَانية شجّعتني أن ألامِس كفّ ابنتي، يا ألله!! لا أصدِّق أنّي أحتضِن تِلك الأنامِل الصغيرة!! ابتسمت كلبتي الصغيرة بأسنانها اللؤلؤيّة ونُغزتين، الدنيا مقارنة بهما حِذاء بالٍ غير مأسوف على ضياعه، جُفوني تستبقي الزمن، تحجِزه خشية أن يمُر، تأبى حتّى أن ترمِش فأخسر لحظة بجانبهن، لَمَحتُ شفتيْ زوجتي تتمتم بكلمة تردّد صداها في عقلي:

ـ اهدا يا يحيى.. اهدا..

قالتها وابتسمت فهززت رَأسي غير مُصدِّق رَحمة لم أظنّها آتية، تَزايد الألم في صدري ولم أبالِ، أبطأتْ نَبضَات قَلبي حتّى بَدأت مَلامِحهن في التلاشي تَدريجيًّا قبل أن تُظلم عيناي، فالعين تَموت قبل الأذن دائِمًا، وآخر ما سمعته كان نحيبًا مُختلِطًا بهدير مياه النهر:

يا وَرد في الفنجان..

يا قَصر عَالي ماكمّلوش بُنيان..

والموت صَحيح..

بس الفُراق صَعبان..

درجة الحرارة: ١٠٢ °C..

حين فتحت عينيّ تلك المرّة لم أر قُرداتي ولا بوابة، لم أرَ أطفالًا ولا شحاذين، لم أسمع ابتهالات ولا تبعني كلب أسود..

مُلقى على جانبي مَكتوف اليَدين خلف ظهري على أرض حَجرية صلبة في حُجرة عَرضُها متر وارتفاعها متر وطولها متر ونصف! الرُّطوبة تُحاصرني بسَادية، والظّلام ليل قاسٍ لا يشقّه سوى نَصل ضوء تسلّل من فَتحة في باب حديدي ليضرب الأرض في نقطة ساطِعة، الألم في ظهري سَيف غُرز بجانب عَمودي الفقري والتنميل خَدَّر الأطراف، العَرَق ينهمر من كل خلايا جسدي لينتهي في عينيّ حرقًا وانتقامًا، والعَطش مُخنّث كَافِر من نسل زِنى مَحارم، مزّق شفتيّ وانتهك حُرمة لساني!

تطلّب الأمر مِنّي لحظات لأستوعِب القبر الذي دُفنت فيه، أتنفّس أنفاسي المُستهلكة وأحاول الاعتدال فلا أستطيع، يبدو أن الفيل قد جلس فوقي، سَحَقَني وتبرّز عليّ، ثم دفنني على عُمق

لن تَجده البِعثات الأثرية! انتابتني رعشة لمّا شعرت بحشرات تتحرّكُ من تحتي، وصرصار لامستْ شواربه أذني، انتفضت وتحاملت ثم ضربت الباب بقدمي، صَوت الحَديد جاء مَكتومًا وآلمني كَعبي، ضَرَبت مَرّة أخرى ومَرّات حتّى صَرَخْت، صَرَخْت كما لم أصرُخ من قبل، صَرَخْت حتّى ضاع صوتي، وهنْت ودَبّ اليأس في أوصالي قبل أن ألتقط بأذنيّ وقع خطوات تقترب، تمشي بصخب على رمال، صَوت مفتاح يُولَج في الباب، ضوء شمس طَاغٍ شَوى حَدقتيّ فأغمضت قسرًا، ثم يَدًا غليظة التقطت السلسلة الغليظة المربوطة فيها رقبتي، جذبتني بعُنف تحت شمس لا مِلّة لها، استقرّ وجهي فوق رمال مُلتهبة، شهقت نَفسًا عَميقًا ابتلعت معه الرمال قبل أن تُقلّبني اليد الغليظة كسمكة في الزيت، ظَهري فَوق ذِراعيّ جاثم بثقله يمنعني من الحركة وعَيناي في مُواجهة الشّمس، فتحتها بصُعوبة فسالت منها دُموع وزبد أبيض وصَديد، لحظات وبدأت أميّز مَعالم رَجل عِملاق يقف فوقي، يَرتدي سِروالًا بنّيًّا يصل لركبتيه، قابضًا بكفّه على عَصاة غليظة ويُحيط برأسه قفص حَديدي صدئ!!

رأيت صورهم من قبل في كُتُب تاريخ الطِّبّ، كانوا يحتمون بالأقفاص كخُوَذٍ تقيهم بطش المجانين.. أمثالي..

أنا في مستشفى!

مستشفى أمراض عقلية! في وقت ما!

ـ ليه بتدبّ على الباب؟ سألني..

ـ أنا فين؟

ـ مَارستان قلاوون..

ـ قلاوون!! ميّة.. عطشان..

ـ السقّا لسّه ما جاش..

ـ الحَمّام.. دورة الميّة!

قَبَض على السلسلة المُتدلية من عُنُقي وأنهضني، سَحبَني كالخَروف وقَدماي تجرجران خَلفي مُجاهدًا لملاحقته، قَطعنا عرض الفِناء في سَبعة أشهر! وَصلنا لباب تسرّبت من تحته رائِحة خَطايا البشر، قَرَع الباب بيده الجبارة فخرج نزيل يرتجِف، أعطى ظهره للحارس فكبّل أكمامه الطويلة خَلْف ظهره ثم أطلقه في الفناء قبل أن يُديرني ليفكّ أكمامي، حَرّر ذراعيّ ولم أشعُر باليسرى، كانت في أفواه قبيلة من النمل تنهشه، دَخلت مُقلصًا أنفي مَانعًا رائحة الجحيم من اقتحامها، الذُّباب الهائِم جعلني أتساءل لِم اصطحبه «نوح» في سفينته؟! بصعوبة حاولت نزع القميص من حول جَسدي، لمّا انزلق من فوق كتفيّ نظرت للَوني، السُّمرة كانت طاغية!

لا زلت مَسجونًا في جسد المأمون!! جسد الملعون..

رفعت ذراعي اليسرى ولم تستجِب، نظرت إليها فلم

أجِدها!! العَضُد كان مَبتورًا مِن قبل الكُوع، فيه اختلط اللّحم والعِظام! تحسّسته بأنامل مُرتعشة قبل أن تَنسَحِب روحي إلى قدميّ وتزرقّ الجدران من حولي، سَحبت نفسًا عَطنًا فتحفّز القيء، أفرغت على الأرض صَفَارًا وسَوَادًا ودودًا يتلوّى! قَرَعْت الباب الخَشَبي بِما تَبقى لي مِن قوّة ففَتح الحَارس، ارتميت تحت قَدميه عَاجزًا عن النُّطق، قَلبي ينقبض في سُرعة مُعتصِرًا حُجراته، حَلقي يَتَشقّق مُبعثرًا التُّراب وكَتفي اليسرى يخترقها ببُطء خَنْجَر مَسنون!

أنا أعاني أزمة قلبية!!

أهتزّ..

أتشنّج..

أتبعثر..

أبوللو ١ هل تسمعني؟

أبوللو ١ أجِب..

هناك رائِحة دُخَّان..

النّار اشتعلت في الكابينة..

أكرّر: هناك حريق في الكابينة.. هناك حريق في الكابينة..

اللعنة.. نحن نحترق.. نحترق..

تشوّشت الأصوات في رأسي وارتجّت الدُّنيا قبل أن تَنطَفئ الشّمس وتَخمد أنفاسي بغتة..

لحظات وهَوت القبضة على صَدري..

فَوق قَلبي مُباشرةً..

تَبعتها ضَربة أخرى.. ثم ضَربة إضافيّة رأيت بَعدها السّقف..

سقف غرفتي!!

لُبنى كانت جاثية على ركبتيها تَحتضن رَأسي بكفّيها في فزَع، نَادتني مَرّتين فأتى صَوتها من مَسافة كيلومتر، فَتَحت فَمي لأتكلّم فسَعلت شَهقًا قبل أن تُساعدني على الجلوس وتناولني زجاجة مَاء باردة، بوَهن تجرّعت الزجاجة كلّها وأغرقت شفتيّ ثم رأسي، لكن الماء بالنسبة لي كالماء للزهور الصناعية، غَير مُقنع ومبتذل!

ـ أنت كويّسة؟

ـ ....!! أنا اللي كويسة؟

ـ فيه إزازة بيرة في التلاجة.. عطشان..

رمقتني باستغراب قبل أن تعود بالزجاجة المُثلّجة، رَفَعتها وتَركتُ الشعير يتولّى رأب الصدوع في حلقي وشفتيّ، اتّخذت لحظات لألتقط أنفاسي قبل أن أنتفض لا إراديًا وأتحسّس ذِراعي،

كانت في مكانها تحت كتفي، نظرت لساعة رُسغي فوجدت العقرب الكبير قد تمشّى قُطر الساعة!!

ـ أنا بقى لي قد إيه!!

ـ بقى لك ساعة..

ـ مش ممكن!

ـ هو ده اللي حصل..

ـ أنت ما روّحتيش؟

ـ ما قدرتش.. فضلت برّه.. مِسكت نفسي بالعافية ساعة وبعدين سِمِعت هبدة.. فتحت الباب.. لقيتك على الأرض..

ـ أنا مش قلت لك مهما حصل...

قاطعتني:

ـ ما قدرتش..

تحاملت لأقوم وسَاعدتني.. انتصبت أمام المرآة أتأمّل وجهي والقميص الذي تخضّب نصفه السُفلي بلون أحمر باهت!

ـ ساعديني..

رفعت القميص المُهترئ من فوق كتفيّ وتشمّمت البقعة الشاحبة ولم أجد لها رائِحة!!

ـ أنت اتعوّرت؟

ـ مش عارف! مش حاسس بحاجة..

دارت حَولي تتأمّل جسدي ثم أردفت..

ـ مافيش جرح!! إيه اللي حصل؟

ـ مش هتصدّقي..

التقطتُ الكاميرا من فوق التسريحة وضغطتُ زِر الإعادة ثم جلستُ على السرير وجلستْ بجانبي، في الفيديو مشيت حتّى المرآة ببطء قبل أن أقِف، بلا حركة، لسَاعة كَاملة!! مَفتوح العَينين مُتهدّل الفَم أحدق في فَراغ المرآة، لقطة فوتوغرافية ثابتة! فَقَط أنفاسي البَطيئة تهزّ صَدري، في الدقيقة السابعة فتح الهواء الشبّاك وطارت بعض أوراق الشجر إلى الداخِل، التفتُّ للشبّاك فوجدته مُغلقًا وإن كانت هناك أوراق شَجر على الأرض! ثوانٍ ودخل صرصار عظيم! زحف على زجاج الشبّاك صَاعدًا ثم فَرَد أجنحته الجافّة وطار في الغرفة دورتين ليستقر فوق عَدَسة الكاميرا، تَمَشّى فوق زجاجها ومَسح رجليه المُشعِرتين ببعضهما قبل أن يَطير ليقِف على كَتفي، اقشعرّ بدني لمّا زحف على رقبتي وداعب شَحمة أذني بشَواربه الطّويلة، استقر لحظات ثم تسلّل إلى كُمّ القميص واختفى بداخِله، لَحظات من التيبس مَرّت بي قبل أن يُداعب الهَواء الشبّاك فيُغلقه حين سَقطت في الدقيقة الأخيرة على الأرض كالمكواة!

ثوانٍ ودخلت لُبنى في الكادر..

قُمت تقزّزًا أتفحّص القَميص ثم مَلابسي بَحثًا عن البنّي ذي الأرجل المشعرة ولم أجِده، الأفكار مُحتشدة مُزدحمة في رأسي أذهب وآتي بينها كطفل تائه، هَرَعت لحَوض سَمكي العَزيز ولُبنى وَرائي فَاقدة النُّطق، أبحث عن قُصاصات كتاب «الجَبرتي» المُهترئة التي وجدتها وراء المكتبة في شقّة شريف، فككت بعض الكلمات بصعوبة:

«وفي خامس عشرينه قَبضوا على امرأة سَرقَت أمتعة من الحَمّام وشَنقوها عند باب زويلة، وانقضت هذه السنة وما تجدد بها من الحوادث التي من جملتها أن شريف أفندي الدفتردار...».

قفزت السطور ومشهد المرأة المَشنوقة في البوّابة بلسانها المتدلّي وعينيها السائلتين لا يفارقني..

ـ يحيى فهّمني حاجة..

ـ لحظة واحدة يا لبنى..

رجعت بعينيّ صفحات حتّى صفعني سَطر تحته خط:

«في الأربعاء سَابعه نُفِّذ الخَنْق في امرأة بحُضور زوجها ويُدعى المَأمون مع من حضر، وهو الذي أرشد عنها، وكانت قد ذَبَحت خادمتها وخيّاطًا وجَنينًا في أحشائها يُشبه خِلقة الكلب مثل وَجهه وأذنيه وله نَابان خارجان من فمه، أخرجته بإبرة طويلة ومزّقته، وكَان حَاضرًا الحُكم «كَتخدا مُستحفظان» ومَشايخ الأزهر، فخُنقت في ذلك اليوم وأُلقيت في النّهر على مَرأى من أهالي

المَقتولين، وبعد أيام قطع زوجها ذراعه نَدمًا على وشايته بها، فأودع مارستان قلاوون..».

ـ يحيى! أنت حلمت بإيه؟

ـ ده مش حِلم.. مَا عنديش تفسير للّي شُفته.. المَوضوع أكبر مما كُنت أتصوّر..

ـ يعني إيه؟

ـ شريف مَمسوس يا لبنى.. مَمسوس بحاجة كبيرة أوي..

اتّسعت عيناها ذهولًا ودَار الرُّعب في محجريها، أنفاسها تهدّجت فوضعت أنامِلها على شفتيها في توتّر لم يخلُ من نظرة شكّ في قدراتي العقلية..

ـ إيه الكلام ده يا يحيى؟!

ـ الساعة دي ما كانتش سَاعة.. أنا شُفت كتير.. شُفت حياة كاملة.

ـ وإيش عرّفك إن اللي شفته أيًّا كان مِش هلوسة؟ القُرص اللي أنت أخدته ده...

ـ القُرص ده فتح لي مَنطقة محظورة مش ممكن كنت أوصل لها.. برزخ حقيقي بين عالمين.. القَميص واللي قَريته في الورق بتاع الجبرتي اللي لقيناه ورا المكتبة.. كل حاجة بالتفصيل.. أنا مش عيّان.. مش عيّان.. أنا بَدأت أفهم اللي حصل..

ـ أنت مُقتنع بمواضيع المس دي؟

ـ عُمري ما كنت مقتنع.. مش ضدّها.. بس مش مقتنع.. لغاية ما شفت بنفسي.. أنا عاوز أشرب قهوة عشان أفوق.. تعالي نخرج من هِنا.. هافهّمك كُل حاجة في السكّة..

ظلّت مَغروسة في مَكانها فمدَدت يَدي إليها، رَمَقتني بِحيرة مَشوبة بتوتر قبل أن تَضَع أصَابعها المرتعشة في يَدي، خرجنا إلى سيارتها فتوقّفت:

ـ أنا مش قادرة.. أعصابي مش مستحمِلة.. مُمكن تسوق أنت؟

توقّفت الريح وسكن حفيف الشجر ليتصنّت علينا:

ـ أنا ما بسوقش من ساعة الـ...

ـ عشان خاطري..

نظرت لها مليًّا وتذكّرت كلمة زوجتي:

ـ اهدا يا يحيى.. اهدا..

نظرت للمفتاح المُتدلّي من يَدها للحظات قبل أن أسْحبه من بين أصابعها، جَلستُ خلف المقود وجلستْ بجانبي، بتردّد دسست المفتاح وأدرته، بدوت طفلًا يتعلّم المشي لأوّل مرّة، اهدا يا يحيى! ردّدتها في نفسي، قبل أن أتحرّك..

«Double Hammerhead Espresso»...

لم يكن لمشروب على مستوى المَقاهي أن يَحتوي كل تلك النسبة من الكافيين، مَشروب كَافٍ ليوقظ بلدة مزدحمة ليومين كاملين، وقادر على إيقاظي ساعة! احتسيته وأنا أتأمّل أوراق الجَبرتي التي دسستها في جيبي قبل أن أغادر الشقّة، لُبنى كانت شاحبة اللون تدخِّن بشراهة بعدما حكيت لها ما لم تُرد أن تسمعه..

ـ أنا مِش قادرة أستوعِب اللي بتقوله..

ـ ولا أنا!!

ـ أنت تصدّق إن تاتو مُمكن يعمل كل المصايب دي؟

ـ ده مش تاتو، اللي كان على جِلد مِرات أخوكي كان طَلسم، نَده لشيطان احتل جِسم شِريف عَشان يِوصَّله للّي عليها الطلسم.

ـ تقصد ينام معاها؟

- من خِلال جوزها.. ده يفسّر اللخبطة اللي حصلت لشريف وبَسمة.. حَظّها الوسخ إن حدّ رَسَم لها طَلسم والطلسم جاب...

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم!!

- الكائن ده نام مَعاها، عشقها، بسمة بَقت حَامِل منّه وشريف ما بقاش مَظبوط..

- يَعني شريف قتل بَسمة من غير وعي؟

- أو بالاتفاق..

- يعني إيه؟!

- شريف جوّاه شيء.. شيء حَابسه وبيتحكّم فيه.. بيقاومه زي ما كُنت بقَاوم الشّخص اللي اتحبست جوّاه ساعة.. بيقاومه وماحدِّش سَامعه.. أكنّك محبوسة في زنزانة فيها شباك وما لهاش باب.. يشوفنا لكن مانعه يكلمنا.. ويعذّبه لو حكى حاجة.. مش شريف اللي بيتحرّك يا لُبنى.. حَدّ تاني.. شيطان بيغيبه أيام ويفوق فيلاقي كُل شيء بيتغير..

- أكنّه بيروح في غيبوبة!

- بالظبط.. وفي يُوم وليلة يِلاقى مِراته حَامل.. وهو عارف إنّه مش بيخلّف! حَامل من كيان وِسِخ.. وهاتولِد شِيء أوسخ.. مشوّه.. لغاية ما تيجي لَحظة يعرف إن مِراته رايحة منّه.. مُتخيلة يِعمل إيه؟!

دفنت السيجارة في المطفأة..

ـ مش قادرة أستوعِب الكلام ده!!

ـ عارف إن الموضوع غريب.. بَس دي حقيقة.. أقسم لك إنّي شفت حادثة الغرق في الساعة.. زي ما هي مَكتوبة..

ـ مش يمكن تكون قريتها قبل كِده و...؟

ـ أنا ما قريتش حاجة..

ـ أنت كُنت شارِب!

ـ لبنى أنا طول عُمري باشرب.. المفاجأة إنّي ما باسكرش.. اللي شفته حقّ.. والضربة اللي في وشّي من البغل دي حقّ.. خلّينا نفكّر في أخوكي..

وقع كَلماتي عليها كان أقوى من أن تتحمّله، تأمّلت بصمة البغل على وجهي ثم أغمضت عَينيها المُحتَقِنة وتركت كتفيها تَرتخيان في استسلام، مَدَدت إبهامي يلامس إبهامها، احتضنه وتعلّق به كَحلقة في سِلسِلة رَكيكة.. سلسلة تكسرُها نَغمة محمول!

زَفَرت في مَلل لمّا رأت الشّاشة وسحبت أنامِلها لتضع المَحمول على أذنها..

ـ أيوة يا خالد وِصِلت؟ أنا مع إنجي.. لأ في كافيه.. ليه بس! قول لها هاجيب لها هِدية وأنا جاية بس خلّي رحمة تحمّيها..

أكلها في التلاجة تسخّنه.. خَلاص بلاش فاصوليا.. خلّيها تحمّر لها ناجتس وبطاطس.. وبلاش كاتشاب.. أوكي.. باي..

أنهت المكالمة فشغلت نفسها بنبش مُحتويات حقيبتها دون أن تنظر في عينيّ..

ـ مُضطرّة أقوم..

ـ أنا زعّلتِك؟

ـ خالص..

ـ مِش عاوز أسيبك وأنتِ في الحالة دي.. لُبنى!!

أغمضتْ عينيها فناديتها، نظرت في عينيّ وهَمَسَت:

ـ هابقى كويسة.. ما تخافش..

ـ ما كنتش أحب ترتبط مقابلتي مَعاكي بعد السنين دي بحاجة توجعك..

ـ اسكت.. أنت أحسن حاجة حَصَلت في السنين اللي فاتت كلّها.. بَس إيه الفايدة؟!

قَدماها لم تكفّا عن الاهتزاز كإبريق يَغلي قبل أن ينفجِر..

ـ أنت الوَحيد اللي من دُون الناس كُلها بيفهمني.. ليه؟ ليه مش أي حدّ غيرك؟!

ـ فاكرة لما كنت باقول لك إني الوحيد اللي معايا كتالوجك؟

ـ فاكرة.. أنا تعِبت.. ساعات باحِس إني مش عاوزة أصحى.. ومش عاوزة أنام.. كفاية عليّا كِده.

سكتت للحظات محاولة تهدئة نفسها قبل أن تردف:

ـ أنا عارفة إني باخرّف!! ما تزعلش منّي.

ـ أنا مش زعلان.

ـ أمّال أنت إيه؟ اتكلم.. قول أي حاجة.. بلاش الوشّ الـ«Flat» ده اللي عارفة إنّ وراه كتير.

ظللت أرمقها مانعًا نفسي من الكلام قبل أن أستَسلم لضَعفِها:

ـ روّحي نامي وهاكلّمك بكرة أطمّنك.

ـ أنا مش بنام.. كلّمني إن شالله الفجر.

ترنّحت بجانبي حتّى سيّارتها، أغلقت الباب وربت على يديها وطلبت منها تطميني حين تصِل ثم قفزت في تاكسي أخذني إلى مِصر الجديدة، التقطت علبة «Heineken» مثلّجة ستساعدني في التركيز ثم دَلَفت إلى مَحل «Buddha» للوشم، كان في انتظاري الفتى الطَّريّ الغَضّ، قام إليّ بودّ مُصطنع وصَافحني:

- إوعى تكون لسّة زعلان منّنا من المرّة اللي فاتت!

- المِسامِح كَريم أنت لسّة فاكِر؟ مَدام دِيجا مَوجودة؟

- مَوجودة.. بَس عَندها جلسة.

- مش سَامِع صوت المَاكنة يَعني!!

مسح «الليّن» أنفه..

اللّعين سَيخبِز لي كذبة نيئة بلا دقيق ولا سمسم!!

- آآآ.. هي أصلها مَعاها صديقة.

- أنا مِحتاجها خَمَس دقايق..

- لو ينفع تعدّي علينا وقت تاني يبقى...

- مش هينفع.

- صعب تقابلك النهاردة فعلًا.

- أكيد؟

- شور.. No way النهاردة..

فقرة من كِتاب «طبخ لُحوم البشر.. قِسم العجائِن»:

«لتهيئة «حيوان الإنسان» للطبخ يُراعى أن يَكون ليّن الخِلقة خَاليًا مِن العِظَام والشعر، أملَس، مَشكوكًا في أمره بنسبة لا تقل عن ٩٠٪، كما يَجب التأكّد من عَدَم وُجود أحد بالجوار، وأن

صوت الموسيقى صَاخِب! ضَعي يا سيدتي ابتسامة صَفراء على وجهك ثم هِمِّي مُصطنعة الرحيل ليطمئِن لنواياك؛ قبل أن تُسدّدي لَكمة قَاسية إلى أسفل فكّ «حيوان الإنسان»، سيُصدر صوتًا بسيطًا قبل أن يسقُط خلف مَكتبه المَليء بالهُراء، قد تحتاجين إلى تسديد لكمة إضافيّة إذا بدت عليه إفاقة، في تلك الحالة يُستحب أن تَستعيني بفازة أو تمثال رُخامي لبوذا أو مقدّمة حِذائك المدبّبة...».

أغلَقت بَاب المَحل بهدوء مُتجنبًا الأجراس السّخيفة التي تتخبّط لتنبّه صاحب المحل أن هناك زائرًا، أطفأت نور الواجِهة من زِر في الحائِط، ثم سَحَبت «حيوان الإنسان» من قدميه دَامي الأنف واللّثة إلى حَمّام صَغير أغلقت بَابه بمفتاح ثم توجّهت إلى غُرفة الوَشم، مَسَحْت الدماء من قَبضتي وعَدّلت هَيئتي ثم فَتَحت الباب بهُدوء كأن شيئًا لم يكن، بالدّاخل كانت السَّيدة وَحيدة، جَالسة أمام مِنضدتها مُدلية نظّارتها على أنفها مُنهمكة في مُطالعة كِتاب..

ـ مَسَاء الخير..

انتفضتْ بهدوء لمّا سمعت صوتي والتفتتْ، تغيرت ملامِحها حين رأتني وإن أحْكَمت اصطِناع اللامبالاة والاسترخاء..

نصيحة: لا تنسَ إبعاد يدك عن أُذُنك حين تواري شيئًا..

ـ أهلًا وسهلًا!

ـ مَعلش جيت في وقت مِتأخر..

ـ في العادة أنا باشتغل بمواعيد.. بس «It's ok».. اتفضّل..

مأخوذة بالمفاجأة أشارت لكُرسي بجانبها فجلست إرباكًا لها على كرسي آخر بَعيدًا عن دائرة النّور..

ـ تشرب إيه؟

همّت بالقيام لنداء حارسها الطريّ فعاجلتها:

ـ خلّيكي مستريّحة.. طلبت منّه حاجة سَاقعة..

ـ OK! أؤمُر..

ـ جَاي أرسم تَاتو!

ـ معاك صورة؟

اقتربت منها وأخرجت صُورة بَسمة وشريف أمام البحر، وَضَعتها في رَاحتها وأنا أتفحّص ردّ فعل وجهها..

ـ حاجة زي ده كِده؟ اللي على الفخد..

ـ صُغيّر.. مِش شايفاه..

ـ غريب؟ مع إنّك أنت اللي رسماه!!

ـ مِتهيأ لي أنت نسيت! أنا اتعاملت مع شريف مش مع مراته..

ـ أنا ما قلتش إنها مراته!!

ابتلعت ريقها وتحسّست مَنْبَت رَقبتها..

ـ Whatever التاتو صغير أوي ومش واضِح..

ـ أنا عُمري ما شفت حدّ بيكدب بالرُّخص ده..

ـ أنت بتقول إيه؟!

ـ باقول إنّك كدّابة.. لمّا شفتي وشّ بَسمة اتلخبطتي.. أنتِ ما بصّتيش حتّى على الوشم!!

ـ ممكن تتكلّم بأسلوب كويس..

قالتها وهي تُحصي الشياطين التي دارت في عينيّ قبل أن تُسرع بالقيام، أمْسكت رُسغها بقسوة وأجلستها على كُرسيها عَنوة، استغاثت بعَبدها المَخصي تُناديه وهي تَلتقِط حَقيبتها فجَذبتها من يَدها والتقطت عُبوة الـ«Self Defense» منها قبل أن أقبض على قِرطها المُستدير الوَاسع بَين أصَابعي، تأوّهت في ألم:

ـ ششش.. رَكّزي مَعايا دقيقتين.. واحِد.. إحنا لوحدنا ما حدّش هيسمعك.. اتنين.. البتاع اللي أنت مِشغّلاه مِسطّح على أرض الحمّام ومش هيسمعنا.. تلاتة.. نور المَحل مَطفي برّه.. يَعني مافيش زبون هييجي.. أربعة.. حركة واحدة هافضّي الزِّفت ده في وشّك لغاية ما تفيّصي.. وأدغدغ المَحل.. أوكيه؟

حَدجتني بغَضَب ونهيج صَدرها يَعلو ويَهبط في فَزع.. لحظات وهزّت رأسها اقتناعًا فترَكت القُرط من يَدي..

ـ عاوز إيه؟

ـ شوية أسئلة.. والرد من غير كِدب.. بَسمة جت لك لِيه؟

نظرت إلى يَسارها وأغمضت عَينيها تفاوض الاستسلام، لحظات وفكّت الإيشارب الغَجَري التي كانت ترتديه فتبعثرت خُصلاتها البيضاء اليابسة ثم أشعلت سيجارة بأصابع مُرتعشة وسَحبت نَفسًا أطلقته في السّقف تهدئة لروحها..

ـ تاتو.. كانت عاوزة ترسم تاتو..

ـ وبعدين؟

ـ جت تلات مرّات ومافيش شَكل عَجبها.. دردشنا سوا وحكت لي عن حياتها.. كان نفسها تعمل حاجة جديدة في جسمها لأنها مكتئبة إن مافيش حَمل.. كمان علاقتهم «Sexually» ماكانتش مظبوطة.. شريف كان سريع.. في المرّة الرابعة لمّا جت اقترحت عليها تاتو.. «New Look» ووافقت.. بس..

ـ وبعدين؟

ـ ولا قبلين!

ـ خبّيتي ليه موضوع زيارة بسمة لمّا جيت لك أوّل مرّة؟

- ما حسّتش إن ليه أهمّية..

- عُذر أقبح من ذنب.. رسمتي لها إيه من مَكتبتك؟

هَربَت حدقتاها عنوة إلى رفّ عالٍ قبل أن تُجيبني:

- تاتو عادي.. مش فاكرة.. الكلام ده كان من حوالي...

التقطت قرط أذنها الكبير وجذبته بعُنف لم أعهده، تمزّقت شحمة أذنها فصرخت وانهارت على الأرض ألمًا تحتوي شحمتها المَقطوعة بيديها وتتلو من أجلي السّباب، لا أنكر أن ذلك كان مُمتعًا بشكل كبير قدر ما أثار قشعريرتي! فمُخترع الأقراط نفسه لا بد كان سَاديًّا ليفكّر في ذلك الاختراع!! تركتها تتلوّى كحيّة مَقطوعة الرّأس حتّى همدت ساجِدة في ضَعف..

- أنت حيوان.. أنا مش هاسكُت.. هابهدلك.. أنا...

- أنا قلت لك بلاش كِدب ما صدّقتنيش.. تاني.. رسمتي لبسمة إيه؟

جرّبت تصنّع الهُبوط هَربًا فالتقطت قِرطها الآخر بين أصابعي، انتبهت كقطة مُتحفّزة وتخلّت عن تمثيلها غير المتقن، تحدجني بنظرة رأيت فيها امرأة قوية لم يكن لجرح مثل ذلك أن يؤثّر فيها، فجَسَدها مُغطّى بوشوم مَجموع آلامها قد يَصرع فيلًا!!

توسّلت بكلمات أسالت كُحلها الرّديء من عَينيها فأجلستها على الكُرسي وناولتها مِنديلًا لتَضعه عَلى الجرح..

لَحظات وبدأت تنزِف الكَلمات..

ـ رسمت لها رسمة قديمة.. رسمة جابت نتيجة قبل كِده..

ـ احكي..

ـ تاتو مُعيّن بيعمِل «Positive energy during Sex»، طَاقة إيجابية، تخلّي العلاقة تتحسّن، وبينشّط الشاكرات؛ اللي هي بؤر الطاقة في الجسم! خُصوصًا «المولادارا شاكرا» اللي بتأثّر على المَبايض والبروستاتا، أنا مش قادرة، النزيف مش بيقف، لازم أروح لدكتور.

ـ أنا دكتور وباقول لك هتعيشي، ده خُرم في شحمة ودن مش رصاصة، كَمّلي..

أردفت بِغلّ:

ـ رسمت لها التاتو وبدأ ينجح.. العلاقة اتحسّنت كتير مع شريف.

ـ طاقة إيجابية!

ـ الطاقة عِلم.. والأحجار الكريمة كمان فيها...

ـ فيها فيل.. فيل.. كمّلي..

ـ عرِفت من بسمة بعد كده إن حصل حَمْل..

ـ وهِنا شريف زارك؟

- جِه زي المجنون.. عاوز يشوف التاتو اللي رسمتهولها.. متخيّل إنّه السبب!!

- وفين الكتاب ده؟

هربت عيناها لكسرٍ من الثانية إلى الرفّ ذاته..

- للأسف ضاع منّي..

ابتلعت الكذبة متظاهرًا بالتصديق..

- وبعدين؟

- البيه بهدلني زي ما بهدلتني سيادتك وكسر لي دراعي ومِشي.. أنتو كلّكو مَجَانين..

- الكتاب اتسرق منّك إزّاي؟

سألتها بَغتة وأنا أمسح تعبيرات وجهها..

- اتسرق! اتسرق في النادي..

- في النادي!! يعني مش هنا؟

- دوّر لو مش مصدّقني!

التقطت القرط المُتبقّي بين أصابعي وجذبتها منه كالبقرة، قامت مُجبرة تولول وترفس فنهيتها بـ«ششش» قاسية فاستجابت، اقتربت من الرفّ الذي هربت إليه عيناها مرّتين وتوقّفت..

- يلّه!!

تطلّب إقناعها شدّة على أذنيها لتستجيب فصرخت قبل أن تمدّ يَدها للرفّ الرابع وتجذب كِتابًا أجنبيًّا، الغلاف الفَخم وعَدم وجود ثنية واحدة في طرف الصفحات أكّدا كذبها..

ـ أنت مستغنية عن ودنك التانية..

مددت يدي وأسقطت كل الكتب من الرَّف وفرزتها بقدمي، كانت كُتب يوجا، تنمية ذاتية، مَجلتين للوشم وكتابًا صَغيرًا غلافه لَبني بَاهت يَحمل عنوان «أبواب الأغراض»، لم يبد متّسِقًا مَع نوعية الكتب في مكتبتها من حيث النظافة والفخامة، باديًا عليه القِدم وكثرة التصفّح من عَدَد الثنيات في أطراف صفحاته، نظرت في عينيها فلَمَحت القَلق والسّخط يسبّاني بالأم، أفلتُّ شَحمَة أُذنها وتركتها تهوي بجانب قدميّ واتّكأت على كرسي مُتصفّحًا فهرس الكتاب المُهترئ، العَناوين كانت صَادمة، «باب مَحبّة وجَلب وتَهييج»، «باب تَهييج ونَزيف»، «زيارجة الأرقَام»، «باب لتَفرقة الأحبّاء» فتحته فُضولًا فقرأت:

«يؤتى بثلاث نوايات بلح، يوم الأربعاء سَاعة زُحل، يُكتب على الأولى «آدم وإبليس» والثانية «إبراهيم والنمرود» والثالثة «موسى وفرعون»، وتقول على كل واحدة «وحِيل بينهم وبين ما يَشتَهون» وتدفنهم في أيّ مَكان بشَرط أن يمُر عليه المَعمول له العمل!!».

غربلت الفهرس حتّى التقطتْ عيناي باب «استحضار وتسلِيط

العَاشِق النَّكّاح»، فَتحت صَفحته فرأيت الوَشم، الوَشم الذي رأيته على فَخذ بَسمة وزوجة المأمون ولُبنى!! مَكتوبًا تَحته:

«هَذَا وربّ الأرباب أخطَر أنواع التَّسليط على الإنس فافهم، هو استِحضَار لعَارِض سُفلي عن طريق رَسْم طَلْسَمه ومُناداته بعَزيمته التي تُسَيطِر عَليه منذ عهد سُليمان، فيأتي خادم الطلسم لينكِح الأنثى المُسَلَّط عليها مُدّة شهر وعشرة أيّام، وَحده، أو عن طريق الحُلول في جَسد بَعلها المُعاشِر لها إن كان لها بَعل، يَحلّ في جَسده، يَحبسه ويَطمس حَواسه ويُغيّبه، لا يكاد يفقه شيئًا مما يحدث حوله وإذا تكلّم تلجّم لسانه كالحِمار ينهق، ولا يَستطيع التحدّث إلا عن طريق عزائم الأرقام وإلا هلك وأحسّ بالحرق يسري على جلده، تمُر عليه السَّاعَات والأيام ولا يدري بها، كأنّه ميّت حَيّ! أمّا الطلسم فيُنقش على الفَخذ اليسرى للمَعمول لها العمل، ثم تُكتب العزيمة بمنيّ من زِنى مخلوط بدمَاء سلحفاة بريّة لتبطئ حركة الملبوس، وتُقرأ في مِرحَاض مظلم ألف مرّة وستّين مع بخور ميعة وسندروس، ثم تُطبّق الورقة سَبع تَطبيقات وتُطعَم لكَلب أسود بعد الغروب، وتُبطل العزيمة بقتل الكلب آكل الورقة فيفيق المعمول لها العمل.. أمّا إذا لم يُقتل الكلب يَظل الناكِح السُّفلي في نِكاحه حتّى تَستغيث الأُنثى من العَذَاب وتَحمل مِنه ابنًا لا يُجهَض، يقتلها ليخرج منها ولا يغادر جَسد الذكر الذي احتلّه حتّى يقتل نَفسه فيَموت كَافرًا! فاحفظ ذلك فإنّه من الأسرار..

العزيمة:

تَوكّل يا خادم هذا الطلسم..

تَوكّل بحقّ من خلقك من نار السموم..

تَوكّل بحقّ من أمرك أن تسجُد لآدم فلم تستجب..

تَوكّل بحقّ الأسماء التي أنت لها طائِع..

أجب بحقّ «كِفيال، دِنياث، شَهقيال وسُحيقون»..

انكح «فلانة بنت فلانة» في فَرجها أو دُبرها..

من العِشاء للصَّباح..

تَصوّر وتمثّل في صُورة بَعلها..

تخلّل دمه ولحمه..

غيّبه، اطمس عينيه، اردم أذنيه بطينك المبلول واعقد لسانه بعقدك المعقود..

ثم الفف إحليلك حول إحليله، وجامعها عنه..

أبطل مَاءه وحبّلها بمائك ليَخرج نَسلك..

الوَحا الوَحا.. العَجل العَجل.. السّاعة السّاعة..

لم أتمالك نفسي لأُكمِل، اقتربت منها واغتصبت شَعرها الأشعَث:

ـ يا بنت الوسخة.. سِحر!! سِحر يا بنت المرة!!

راكِعَة على الأرض تتلوّى أجابت:

ـ ما كانش المفروض ده يحصل.. كُل مرّة كانت بتعدّي.. المرّة دي قلبت جدّ..

ـ جدّ!!

جَرجَرتها حَتّى الكرسي وألقيتها فوقه حين ارتفع خبط فتاها الليّن، آت صوته مِن الحَمّام يدقّ الباب بهستيريا يستغيث سيدته..

ـ فهّميني؟ من غير كِدب..

ـ أنا تلاتين سنة في المجال ده زيي زي الحلاق.. باسمع.. نُص البيوت اللي بتتهد؛ بتتهد بسبب السرير.. ونص الرجّالة مش عارفة يعني إيه السِّتّ ليها مُتعة زي ما أنتو ليكو مُتعة.. بَس بطريقة مختلفة.. عاوزة صبر.. الأفلام السِّكس بوّظت دماغكو..

ـ أنت بتبصّي لي كِده ليه؟

ـ الموضوع ده شغَلني لغاية ما اتعلّمت لعبة.. لِعبة بتتلعب مرّة في العُمر تخلّي العِلاقة تتظِبط بين أي اتنين.. لعبة فَتَحِت بيوت كتير كانت هتتهدّ.. كُل القِصّة وشم بيترسم..

ـ قصدك طلسم نِجِس؟

ـ طَلسم وعَزيمة بتتكتب وتتقري..

ـ ويا كُلها كَلب!! يا نهار أسودَ النّجاسة!! كمّلي..

ـ الجنّ بِعملوا اللي ما تعملوش ألف فياجرا.. بِحضر سَاعة النوم ويلبس الزوج وينام مع مراته.. ماحدّش بيعرف حاجة..

ـ والكل يقوم الصُّبح مَبسوط!!

ـ ده اللي فعلًا بيحصل.. مُجرد ما بتتحقّق المتعة الحياة بتمشي.. مافيش متعة؛ بنقعد نرمي اتهامات برود وضعف ونقطّع في بعض بسكاكين تِلمة ومش فاهمين ليه!

ـ والكلب؟

ـ الكلب اللي أأكّله العَزيمة باحتفظ بيه في الحمّام.. أسبوع لغاية ما أطّمن على صاحبة الوشم وبعدين أسقيه سمّ.. يموت.. وكل حاجة تنتهي..

ـ وإيه اللي حَصَل مع بَسمة؟

ـ مع بَسمة اللي حَضَر شيء تاني.. شيء ما بينصرفش.. شيء أوّل مرّة أشوفه.. مش مَوجود في أي كتاب..

«الطري» قطع بندائه وخبطه استرسالها في الحكي، مُخنّث أخنف لا يَمل الاستغاثة، يَقرع الباب بهَلع فَتاة في الإعدادية!

ـ أنت ما قتلتيش الكلب؟ سألتها..

ـ الكلب مَات لوحده في الحمّام!!

ـ...!!

ـ مَات واتنفخ في سَاعتين زَمن.. وفجأة ضَرَب وغَرّق الحيطان دَمّ ريحته بشعة.. أنا قلت خلاص العزيمة اتحلّت.. بعدها بيومين لقيته وأنا باقفل المحل.. واقف ورايا بيزوم.. اترعبت وما عرفتش أتصرّف لغاية ما جِه تاكسي شاورت له.. من ساعتها بيظهر لي.. كل يوم بالليل..

ـ وده معناه إيه؟

ـ أنا آخر واحدة مُمكن أعرف ده معناه إيه.. اللي جِه ماكانش اللي بيجي كُل مرةّ.. اللي جِه كان أشرس بمراحِل.. يمكن يكون عشقها ومش عاوز يمشي فقتل الكلب عشان تبوظ العزيمة وما تتفكّش..

ـ أنتِ ولّعتي الدنيا ما عرفتيش تطفيها.. قتلتي؟

ـ ما كانتش دي نيّتي..

ـ أنتِ لازم تيجي معايا.. لازم تتكلّمي..

رَمقتني المرأة باستغراب تَحوّل إلى رُعب..

ـ ما تبصّليش كِده! هتيجي..

اتّخذ الأمر منّي ثواني قبل أن أستوعِب أنّها تُحملق في نقطة خلفي..

تجمّدت للحظة أحفُر وَجهها بَحثًا عن مَكيدة «بُصّ العصفورة!» ثم لاحظت أن الرّقع على باب الحمّام قد توقّف..

فتاها الليّن خرج!!

أفلتّ أذنها من بين أصابعي والتفتّ بحَذر، وَرائي مباشرة كان واقفًا، ليس كما رأيته من قبل، أضخم، ضلوعه خارجة عن جسده مغروسة في الشعر الأسود الفاحِم، وعيناه لا مكان فيهما لبياض، سَواد بلا قَمر ولا نجوم ولا بشر، لا أتحدّث عن الفتى الليّن، أتحدّث عن الكلب الأسود! كلب أحلامي، صوت لهاثه اختلط بصرخة المرأة ومُحاولتي الحِفاظ على هدوئي، مَرّت ثوانٍ نسيت فيها التقاط أنفاسي، انقبض قلبي ورفض أن ينبسِط، حتى العَرق انحبس في المَسام ولم ينهمِر، كان ذلك حين ارتعشت اللمبة الخافتة وانطفأت!! ما سمعته لم يكن نباحًا أو حتّى زئيرًا، كان صوت حَسيس نَار، نَار بلا وهج!! لم أدر بنفسي إلا وأنا أركض خارج الغرفة مُبعثرًا كل ما في طريقي متّبعًا ضوءًا خافتًا آتيًا من الشارع، وديجا من ورائي تَصرخ في جزع ما لبث أن توقّف بغتة قبل أن تُبتَر خطواتها، لم أنظُر ورائي كما فعلت امرأة لوط، فقط قفزت في زجاج الباب فحطّمته بكتفي وسقطت على الأسفلت بعُنف، انفشخ كتفي فقمت واقفًا أنظر للمحل ولا أرى إلا ظلمة! مُحتميًا بنور الشارع الأصفر انتظرت ديجا ولم تخرج، ولا فتاها المُخنّث!! ركضت، ركضت كما لم أركض من قبل، ركضت والكتاب بين يديّ قبل أن أقفز في أقرب تاكسي..

في الشقّة اتّخذ الأمر من يَديّ سَاعة لتهدأ رَعشة يَديّ، ورُبع سَاعة لألف سيجارة لا تنفكّ بَفرتها! لعن الله مرض السكّر والمخنثين والكلاب السود! الكتاب كان بِجَانب زُجاجة البيرة على المِنضدة، لا أريد فتحه، لا أريد نبشه، ما رأيته اليوم لم يكن زيارة من زيارات أحلامي، ما رأيته اليوم كان حقًّا!!

خرجت للحديقة أستجدي الأمان بخزي لم أعرفه منذ زمن، جَلَست تَحت الشَّجرة الهزيلة أحتمي بالمَارة الشَحيحين والسيارات وضوء الشارع الأصفر الباهِت، فتحت الكتاب ومَشَيت على الكلمات مُحاولًا عُبور المطبّات بين علم النفس الذي درسته وبين السِّحر الذي سحبني إلى عالمه، بين يَقيني في ما رأيت، واعتقادي القديم في خيالية هذا العالم الأزرق! ذلك العالم الذي درسنا في كلية الطب أنه الجهل بعينه وأنه حُجّة الجُهّال لتفسير المرض العقلي..

ولم أغفل لحظة شَعَرت فيها أن الوَاشمة وفَتَاها قد يَكونان أعدّا لي بيت رُعب بلاستيكيًّا مُزَوّدًا بنُظُم صَوتيّة وإضَاءات ومُجَسّمًا أسود لكلب مُتقن النَّحت!! اللعنة على الأفلام الأجنبيّة وما تفتحه من احتمالات!! لكن ماذا عن زيارته لي في البيت من قبل؟!

أفكاري غير مرتّبة! مبعثرة على مساحة ألف ميل..

قلّبت صفحات الكتاب بَحثًا عن تفاسير حين أوقفني فصل

اسمه «تكسير الحروف» رأيت فيه جَدولًا بعدد الحُروف الأبجدية والمُقابل لها من الأرقام:

أ	ب	ج	د	هـ	و	ز	ح	ط	ي
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠

ك	ل	م	ن	س	ع	ف	ص	ق	ر
٢٠	٣٠	٤٠	٥٠	٦٠	٧٠	٨٠	٩٠	١٠٠	٢٠٠

ش	ت	ث	خ	ذ	ض	ظ	غ
٣٠٠	٤٠٠	٥٠٠	٦٠٠	٧٠٠	٨٠٠	٩٠٠	١٠٠٠

تكسير الحروف:

تحويل الحروف لأرقام هو نقل نافِع لكشف بَواطِن حُروف الكلام، ثم وضعها في مُربّعات مُتساوية الخانات تُدعى الأوفاق، مربعات تَملك قوة الفِعل والتحريك والتأثير، عن طريق طاقة خفية نابعة من تسخير الجن، تُستخدم في خدمة جميع الأغراض، عاليها وسافلها، فكُل شيء يَتحرك في إطار نظام مدروس، ولا مَجَال للصُّدفة في الدنيا فافهم، كل رقم هو جُزء من مُعادلة حِسابية لها قوة خاصة تحمي من تُعمَل له أو تَسحق من تُعمَل ضِدّه، فكتابتها على شيء قد تعني الحفظ.. أو الهلاك..

نظرت في الكلام والأرقام ثواني قَبل أن تنجلي العلاقة!

قُمت جَريًا لحَوض أسمَاكي الميّتة أبحث عن الملَف، نَقّبت فيه حتّى عَثَرت على قُصاصَات الأرقام التي كتبها شريف ونَطقها، قَضيت دَقائق في التَّرجمة قبل أن تَنْجَلي الحَقيقة..

شريف كان يَستغيث ولم أسمعه!!

كان يطلب تسعة أرقام..

لم أنتظر الشمس لتصهر أفكاري وعيني والأسفلت تحت قدميّ..

قبل الفجر اصطحبت القميص إلى المُستشفى، الريح ساكِنة كالموت والشّجر جذوعه لها مَهابة مَجلس شيوخ رُوماني!

لمّا اقتربت من ٨ غرب اتّصلت بمحسن الممرّض، أيقظته فخرج لي نِصف نائِم..

ـ مَعلش صَحّيتك يا مُحسن..

ـ صباح الفل يا دكتور.. أؤمُر..

ـ إيه الدنيا عندك جوّة؟

ـ والله يا دكتور الجو كلّه كَهربا.. المُساعد ووكيل الأمانة وسكرتير الوزير جُم النهاردة والقسم مشدود كلّه..

ـ أخبار عيلة سامِح إيه؟

ـ د. كيلاني هو اللي بلّغهم الله يكون في عونه.. أبوه أُغم عليه.. ليه ربّنا بقى..

كلمات محسن كانت مُحمّلة بغبار لَوم ومعالم ضيق لم أغفلها.. فالقسم كلّه قد عرف علاقتي بشريف..

في مثل تلك الحالة وعكس كل الاحتمالات أضغط دوّاسة البنزين حتّى آخرها..

ـ شريف في العزل؟

ـ وعليه عَسكري خِدمة..

ـ عملوا إيه معاه؟

ـ خَمس ساعات رَغي وما طِلعوش منّه بأي مصلحة.. مشيوا وقالوا جايين بُكرة يكمّلوا تحقيق..

ـ أنا عاوز أخُش له..

ـ لا.. دي أنا مش قدّها يا دكتور..

ـ يا محسن..!

ـ وكتاب الله ما ينفع.. د. كيلاني شادِد القسم كلّه.. أنا كِده أروح في داهية..

ـ اسمعني يا محسن.. أنا لو ما دخلتش لشريف النهاردة ذنب سامح هيبقى في رقبتك..

ـ هو أنا اللي قتلته لامؤاخذة يا دكتور؟!

ـ الكلمتين اللي هاعرفهم من شريف ما حدّش هيعرف

يطلّعهم منّه غيري.. لو همّك سامح الله يرحمه دخّلني.. نص ساعة يا محسن.. نُص ساعة ما تبقاش رِخِم يا جدع هو أنا جاي من الشارع؟!

ـ طب والعسكري اللي ع الباب؟!

ـ يعني هتِغلب يا محسن.. وبعدين هاظبّطك وأظبّطه.. ليك عندي تظبيطة هتحلف بيها!!

دعك عينيه وداعب شفتيه الباهتتين ثم نفث دخان السيجارة التي أخذها منّي بضيق قبل أن يهزّ رأسه في «مَنّ وأذى» واضحين ويشير لي أن أترقّب رنّة محمولي لأدخل..

انتظرت عَشر دَقائق حتّى أتتني إشارته، عَبرت البوّابة واقتربت من باب العنبر الساكِن أبحث بعينيّ حتّى جاءني من آخر الرواق مُهرولًا يَهمِس:

ـ بالعافية وافِق إنّي أستنّى مَكانه على ما يِدِّيها نُص ساعة يِفصل ويخُش الحمّام ويحضر الفَجر جماعة في مَبنى الإدارة.. بس لازم أراضيه عشان ما يرغيش..

ـ تراضيه عشان يريح ويصلّي؟ ماشي!! هو شريف مربوط؟

ـ الخلاخيل في رجليه..

دسست في يَد «النخّاس» خمسين جنيهًا فأخذها وأغلَق بَاب

غُرفة العَزل وَرائي، خَلَعت قَميصي وعلّقته خَلف الزُّجاج ستَرًا ثم أضأت النور، شريف كان جَالسًا على سَريره وقَدماه مُكبّلتان بالأصفَاد، لم يُحدِث دُخولي ردّ فِعل قدر ما أحدثه القميص المُعلّق في يدي، مَشدوهًا مَشدودًا لم تنزِل عيناه عنه لحظة، يَنهَج منفعلًا كَمَن يَصعد جَبَل، اقتربت فلمحت في عينيه رهبة ممزوجة بشوق..

ـ أنا شفت كل حاجة يا شريف.. عرفت اللي حَصَل لك وحَصَل لبسمة.. وحَصل للمأمون قَبلك..

مَحبوس داخِل نفسه يبكي بَراءته انتفخت أوداجه وترقرقت عيناه بدمعة لا إرادية..

ـ أنا جبت لك القميص!

برفْق اقتربت من السَّرير، رَمق القميص مَليًّا ثم مَدّ أصابعه ببطء ولامَس نَسيجه الجَاف قَبل أن يَسحبه بشدّة كادت تمزّقه، ربَتُّ على يديه فأرخَى قبضته بعد لحظات، نَظَرت في عَينيه أقرأ ما فيهما وبدون أن أسأله قرّبت القميص من رقبته، النّبض فيها ازداد طَرقًا على الأوردة والعَرَق انسال مِن جَبهته على صدره، عَريس يرتدي بدلة زفافه، مَحكوم عليه بالموت يُلفُّ حول رقبته حَبل مشنقة، فَجأة تغيّر وجهه فنزع القميص من يَدي وألقاه بعيدًا..

ـ ليه يا شريف؟

ـ ما تسألش سؤال أنت عارف إجابته.. أنت أذكى من كده!

لا إراديًّا انتصب شَعر جسدي فالتقطت القميص الأثري وارتديته وأنا أستعيذ بالله في سرّي حين لَمَحت الابتسامة..

ـ مُؤمن!! سألني بسخرية..

ـ ومُوحِّد بالله..

ـ أنا كمان مُوحِّد بالله.. أكتر منّك.. وعلى فكرة لُوني مش أسود زي ما بيرسموني..

ـ أنا مش خايف منّك..

ـ كدّاب! تفرق إيه عنّي؟ تِعمل كل اللي بتعمله وتسميني أنا شيطان.. ده حتّى اسم سخيف!

ـ أنت ضعيف..

ـ بتقول الكلام ده وأنت بتتحامى في قميص قُماش.. مش عارف هو اختاركم على أساس إيه وأنتو بالضعف ده..

قالها وفتح الفَم، فم شريف، فَتحه حتّى كَاد ينفسِخ ثم أمسَك ضرسًا في الصفّ الأيمن، قبض عليه بسبّابته وإبهامه وجَذَب، بمجهود لا يُذكر اقتلعه من اللثة بقوائمه الأربع، خرج بنافورة دماء أغرقت صَدر شريف، رفعه أمام عينيه وتأمّله قبل أن يبتسم..

ـ مَعذورين.. أصله خلقكو في آخر يوم للخلق.. كان تِعِب خلاص..

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم..

ـ أنت بتضحّكني على فكرة.. المفروض أتحرق دلوقت؟

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم..

مَدّ يديه في فمه والتقط ضرسًا آخر.. جَذبه بقوّة حتّى خرج بصوت كَسر ودماء أغرقت الملاءة..

ـ كُل ما هتذكر اسمه هاثبت لك ضَعفك..

حين قالها انتابتني رعشة، كهرباء مرّت فوق جِلدي، صرع خفيف، نظرت إليه بعد أن خفتت موجته فوجدته يبتسم..

ـ مش هاسيبك تدخُل دماغي..

ـ أنا أصلًا جوّة دماغك.. هتنام إمتى مع لبنى؟

ـ ...

ـ ريحة لحمها شهيّة.. بتجيبني من مسافة ألف ميل.. وضعفك وجبتي المفضّلة.. بالمُناسبة الجَو حَرّ والقميص ده مش هيحميك.

ـ بتستفزّني عشان أقلعه!

ـ مش هتفرق.. صَاحبه الغَبي نَجّسه..

قالها وابتسم حين التقطت طَرف خَيط مُهترئ..

ـ نَجّسه؟!

صَفعتني كلمات عم سيد خيّاط القميص حين قال:

«القَميص ده تِلبسه ما يفارقك.. إلا على باب الكنيف تسيبه في حتّة طاهرة.. ولا تعاشر الحُرمة ليلة واحدة.. ولا يمسّه دم.. لغاية ما يغادر..».

نظرت للقميص على جسدي وتأمّلت البقعة الداكنة، بقعة دماء زوجة المأمون! نظرت في وجه شريف المبتسم رغم نافورة الدماء النازِفة منه قبل أن أخلع القميص بهدوء..

ـ مش قلت لك القميص مش هينفعك!!

لم أجبه، فَرَدت القميص على الأرض أتأمّل رسومه وأرقامه وفي رأسي تردّدت بَقَايا كلمات صَانِع القَميص:

«القميص هيرفع عنّك.. مَكتوب عليه بالمِسك والزعفران دِرعك وحمايتك في تسع أرقام.. ما بين الكَاف والنّون.. قوله الحقّ وله المُلك..».

التقطتْ عيناي فوق الصدر حرف «كاف» كبير مَتبوع بتسلسل أرقام مفصول بنقاط، يبدأ من ستين وينتهي بثمانية وستين عند حرف «نون» موازٍ!

٩ ـ ١ ـ ٢٠٠ ـ ١٠٠ ـ ١ ـ ٤٠ تعني بعد تحويلها لحروف عبارة «تسعة أرقام»..

شريف كان يطلب شفرة الأرقام التسعة.. يَستغيث بها بعدما

علِم أن القميص لا فائِدة مِنه بدونها.. كان يَقصِد «تِسعة أرقام» لكنّه لا يعرف مكانهم في القميص وسط زخم الأرقام والحروف المتشابكة.. والقميص ينسى مكانه وسط الغيبات المتلاحِقة.. الغيبات التي يتولّى فيها نائل السيطرة.. ومكان الأرقام أفصح عنه عم سيد في رِحلة الفيل الأخيرة.. ما بين الكَاف والنّون!

برَعشة حَاولت تَملّكها أخرجت الورقة من جَيبي، الوَرقة التي جَاءتني في البَريد، لَمعت عَينا شريف حين رآها، رَكَعت على الأرض وأخرجت قَلمًا، تأمّلني بابتسامة والدِّمَاء لم تكُف عن التدفّق من فَمه، بخطّ حَاولت السَّيطرة عليه كتبت الأرقام التِّسعة في المُربعات المتجاورة داخل رَسْم الوجه ذي العينين السوداوين والأذرع الطويلة، كَتَبتها كَما رَأيتها على القميص من الكاف إلى النون، من اليمين لليسار، من ستين لثمانية وستين، انتهيت فرفعتها في وجه شريف، رَمقها بابتسامة خفتت حين قُمت واقتربت، ثم صَارت غَضَبًا ارتعشتْ من أجله لَمبة الغرفة، قبل أن تنطفئ! سَاد السُّكون بضعة ثوانٍ فتحت فيها عَينيّ مُحاولًا حَصد أيّة تفاصيل قبل أن تصمّني رَجرَجة السَّرير الحَديدي على الأرض، قَوائمه المعدنيّة الأربع تَضرب البَلاط برَقع مُدوٍّ، التصقت بالحَائِط لاإراديًّا حين ارتعشت اللمبة في ومضة سريعة رأيت فيها الجَسد الضَعِيف يتزلزل كَشُخشِيخة في يَد طِفل سَادي، ينتفض كأن خط إمداد مَدينة بالكهرباء قد احتضنه، من الهَول غَفلت أن أقترب حين التقطت صَوت محسن من الخارج يضرب الباب

منادِيًا: «يا دكتور.. افتح يا دكتور»! نفضت عن نفسي الذهول واقتربت من شريف مُحاولًا تثبيت قدميه التي كادت تبترها القيود جذبًا، التقطت ذراعه قبل أن أقفز فوقه وأجثم على صَدره قَابضًا على ذِراعيه مُحاولًا رَفع ركبتيّ فوق عَضدَيْه لتثبيته! كان ذلك حين انفتح الباب تحت وطأة ضربات كتِف محسن فَصَرخت فيه: «حُقنة هالِدول يا محسن بسرعة»، هَرع الأخير لينفّذ الأمر وكاد يتزحلق على البلاط من الهرولة حين التفت لشريف الذي رَمقني بغضب مُحتقن قبل أن يَصرُخ في وجهي صَرخة أيقظت المُستشفى، صَرخة طَويلة فَجّرت شُريانًا صَغيرًا في عَينيه وطبلة أذني، صَرخة خَرجت بنَفَس عَفِن وزَبَد سَال من شدقيه قبل أن يتقيّأ، تقيّأ نَهرًا أصفر مَمزوجًا بالدِّمَاء فوق صَدره وصدري والسرير! كان ذلك حين أتى مُحسن، تبعه عَسكريان وضَابِط سمعوا الصرخة فدَخلوا ليتسمّروا في ذهول! نَاولني مُحسن الحُقنة ثم قبض على ذِراع شريف فتحرّرت يَدي، صَوّبت الإبرة لوريد في عُنقه المنتفِخ وهممت بغرز السّن حين سَكَن بغتةً!! هَمد وارتَخى جَسده كأن الروح تنسلّ منه بلا إذن، لَمَست في وَجهه زَوال المَعاني فألصقت أذني بفمه مُحاولًا اللّحاق بإرث يندثر، هَمَس بنَفَس واهِن مُتهدّج مِلئه الحَشرجة:

- خَلاص يا يحيى..

ابتسمت له.. تلك كانت المرّة الأولى التي أقابل فيها شريف منذ عَشْر سَنوات!

ـ أنت اللي بعتّ لي الوَرقة يا شريف!

هَزّ رَأسه إيجابًا وترقرقت عيناه..

ـ كنت باغيب في الأسبوع سِتّ أيام.. أصحا ألاقي كل حَاجة متغيرة.. في مَرّة فكّرت فيك.. رَغم كل شيء كنت عارف إنّك الوحيد اللي مُمكن يوصل..

قاطع حديثي ضابط الشرطة الذي أفاق من سَكرة المفاجأة..

ـ أنت دخلت هِنا إزّاي؟

ـ دقيقة!

ـ انزل..

ـ أنا دكتور هِنا...

ـ دكتور مش دكتور.. ممنوع الدخول للمريض ده بالذات.. دي أوامِر...

ـ المَريض ده هينهار في أي دقيقة ولازم يتلحق.. عندك استعداد تشيل المسئولية؟

نطقتها بحزم من يَعني تهديده فتقهقر بغضب مَكبوت خوفًا من المُساءلة..

التفتُّ لشريف وسألته:

ـ بَسمة مِراتك...؟

قاطعني:

- راحت منّي يا يحيى.. ما كُنتش هاستنّى يقطّعها قدّامي..

- أنا هاوصّل ده للّجنة.. ما تقلقش و...

ارتعش فَمه وهز رأسه فقرّبت أذنيّ مُحاولًا الإصغاء..

- أنا مش عاوزك توصّل حَاجة.. وهمّا مش هيصدّقوك.. سيبني أرتاح يا يحيى..

- قصّتك لازم تتعرف..

- مش مُهم.. أنا كان كل همّي ما يتصرش عليّا.. ما أموتش مُنتحِر..

- كنت وَاعي لمّا قتلت سَامِح؟

- سَامِح كان هيأذيك! ما كانش جوّاه غير الغِل ناحيتك..

أبهتتني إجابته فأردف:

- قَتلة وَاحدة زيّ اتنين..

نظرت في عينيه فقرأت وعيه بما يقول قبل أن تنبثق الدماء من فمه في كُتل دَاكنة، الكَبد ينهار! لَحظات وزاغت عيناه..

- محسن.. هَات لي دكتور بسُرعة..

أمرته فخرج مُسرعًا فالتفتُّ للضابِط..

- يمكن نحتاج تَصريح خُروج..

على كُرسي بلاستيكي أصفَر غَير مُريح جَلست في طُرقة أمَام غرفة العمليات التي نُقِل إليها شريف، رِجال الشُّرطة من حَولي يقفون بأكواب شايهم البلاستيكية وأجهزتهم اللاسلكية ودُخان سجائر لم يعبأ بقدسية المرض! بل شجّعني لأشعل واحِدة!! عيّنوا لي عَسكريًّا ليُرافقني ولولا صِياحي في وجوههم لكبّلوني في يَده، كان عليّ الانتظار ساعة أخرى قبل أن تشرق الشمس ويخرج الطبيب، أخبرنا أنه سيطر بالكاد على النزيف وأن الحالة استقرّت رغم فشل وظائف الكبد بسبب الورم! لمّا سألته أي ورم؟ أجابني بأن شريف يُعاني وَرمًا خبيثًا في الكَبد!! ولم يصدِّق أنّه قد تم فحصه منذ أيام قليلة ولم يكن فيه شيء!!

ظللت على الكُرسي الأصفر غير المُريح بجانب العسكري العرقان حتّى أتت المديرة تَجر وراءها خَازوقًا ومقصلة مربوطين في حَبل مَشنقة، وضعتهما بجانبي وجلست..

- إدّيني سَبب وَاحِد لوجودك النهاردة في أوضة شريف!!

- لو حكيت لحضرتك مش هتصدّقي..

أغمضت عينيها في نفاد صبر فحسمت أمري وقلبت المائدة بطعامها المُتعفِّن في وجهها..

- شريف مَمسُوس!

رفعت رأسها للسَّقف تضرعًا أن ينزِل بي عذاب قوم لوط وعاد وثمود دفعة واحدة..

ـ الأوّل كان ازدواج ودلوقت جِن وعفاريت! أنت الخمس سنين اللي سِبت فيهم الطِّب دماغك باظت..

ـ مش باقول لحضرتك مش هتصدّقيني..

ـ ليه! مِصدّقاك طبعًا! ودكتور كيلاني يرفع تقرير لجنة للمحكمة يقول فيه إن مُستشفى العباسية شايفة إن المتّهم ملبوس ومستعدين نعمل له زار كمان ومحتاجين في الميزانية الجديدة ديك أسود يتيم!

ـ أيًّا كان.. شريف لما يفوق هيتكلّم طبيعي ويعترف بكُل حَاجة..

ـ هيعترف إنّه قتل مِراته؟

ـ هيقول كل حاجة..

سَكتت تدرس كلماتي وقرارها.. لحظات وانحنت تهمِس:

ـ ما كنتش أتمنّى أقول ده بس ما ادّتنيش فرصة.. هاحوّلك إجازة بدون مُرتّب لغاية ما تلاقي شُغل وتيجي تقدّم استقالتك عشان ملفّك يفضل سليم.. لغاية ده ما يحصل مش عاوزة أشوفك في المستشفى.. خد بالك من نفسك يا يحيى..

ـ ماشي.. فيه بسّ حاجة.. مُحسن المُمرِّض مالوش ذنب.. ما شافنيش وأنا بادخُل..

حدجتني بريب زمّت من أجله شفتيها ثم هزّت رأسها إيجابًا وقامت إلى غرفة شريف بَعدما هَمست في أذن الضابط فأمر العَسكري بمُصاحبتي حتّى باب المُستشفى، مَشيت بجانبه حتّى صادفت شجرة الكافور المقطوعة، بَحثت عن عَمّ سيّد بعينيّ قبل أن أسأل عنه إحدى الممرضات الهائمات..

ـ عَمّ سيّد!! عَمّ سيّد تعيش أنت من ييجي أربع سنين!! حزِن يا حبّة عيني ومات بعد الشجرة دي ما اتقطعت داهية تِكحِم اللي قطعها.. كان دايمًا يقول عليها شجرتي.. الله يرحمه..

ـ ....!!!

من سيتحدّث عَن عم سيّد سَيدفع غرامة خمسة آلاف جنيه!

خرجت يَومها من المُستشفى إلى مَحطّة مِصر، حَجَزت تَذكرة في قِطار الثانية عَشرة المتّجه للإسكندرية قبل أن ألتقط كُوب قَهوة وأجلس على دِكّة مُغمض العَينين مُحاولًا إقناع ألف صرصار في رأسي أن يكُفّوا عن حَكّ أجنحتهم الجافة في بعضها، أضغط مرارًا زِر الـ«Escape» في كيبوردي فلا تستجيب، دخّنت سَبْع لفافات دُخان لتسيل دموعهم ولم يطيروا فصرفت عينيّ إلى الناس أتأمّل تحركاتهم النملية، طبائعهم المترجمة ترجمة موثوقة في لُغة أجسادهم، غَباءهم، اصطناعهم، نفاقهم، ضعفهم، عهرهم، وفي أحيان قليلة طيبتهم غير المُبررة! اللعنة على البشر، بعضنا تكفيه كلمة ليّنة، والبعض لا يكفيه كُرباج سُوداني مَعقود منقوع في زيت مغلي! أعتقد أنّي من النوع الثاني.. وغير مؤمن بالتغيير..

حين أصِل الإسكندريّة سأنزل البَحر الذي انقطعتُ عنه خمس سِنين.. سيطهّرني الملح أو يلسعني قنديل سَام.. لا يهُم..

سَأنهي علاقتي بالخمر تدريجيًا، لكنني سأحتفظ بالبيرة، فالشعير فَشِل في إسكاري!

لن أقاوم كأس «Johnnie Walker Blue Label»، إذا حَضَر! ففي نكهتها مذاق شفتيْ لُبنى!

لـن أرى لُبنى ثانيـة، فحلقة «World's Deadly Spider National Geographic» عن أكثر العناكِب خطورة تقول:

«... سينسِج حولها خيوطه شديدة الرقّة والشفافية، والتي تُعدّ أصلب الألياف الطبيعية على الإطلاق، حتّى تَبطؤ حَركتها وتُنهك من مُحاولات التملّص من الأسر، أو الانغماس فيه! قبل أن يَقترب العنكبوت السِّكير منها ويَبدأ في لفّها سريعًا لتظلّ حيّة طازِجة ساخنة بجانبه، ليلتهمها وقتما يشاء، بعد أن تفقِد ابنتها وزوجها! كَما تتميّز تلك الفصيلة بعدم وجود مُستقبل أو حاضِر، هي فقط تعيش ماضيًا لا تخرج منه...».

انتهت الحَلقة حِين ظَهر رَقم لُبنى على شاشتي، حَكيت ما حدث في الليلة الماضية مُخففًا التفاصيل قَدر المُستطاع والتوابع التي ستحدث حين يتَقيّأ أخوها الكلام الذي تحرّر في صدره! ثم طَمأنتها بكلمات مِن التي نَقولها حين لا نَجِد شيئًا نقوله، رفقًا بها وبوالدتها العجوز التي كادت أن تكون يومًا حماتي! غابت في صمت ثقيل قرأت فيه تخبّطًا وخوفًا ودموعًا تنحدِر ببطء قبل أن تصيح في ابنتها توتّرًا:

ـ «قلت مِيت مرّة تلمّي لِعَبك يا حيوانة!».

تختلف الأم كثيرًا عن حبيبة سابِقة!!

ـ يعني شريف حالته...

ـ شريف هيبقى كويس.. الكبد تعبان شوية.. بس هيبقى كويس.

ـ أنا مكسوفة منّك جدًّا.. أنت سبت المستشفى بسببنا!

ـ كِده كِده كنت هاسيبها..

ـ أنت كويس؟

ـ أنا كويّس..

ـ هاشوفك؟

ـ ...

ـ رُحت فين؟

ـ ولا حاجة.. أنـا.. هاقضّي شوية وقت عند أمّي في إسكندرية.. مِحتاج أغير جو وأشوف ميشو ابن أختي و...

ـ باقول لك هاشوفك؟

ـ ...! خلِّيني بعيد يا لُبنى..

ـ كنت عارفة إنّك هتقول كِده!!

- ...

- يحيى أنا بحبّك..

سَرت قَشعريرة على جِلدي لمّا قالتها، خَرَجَت مِنها هَمسًا لأن زوجها بالقرب منها، زوجها الذي يراها كُل يوم، زوجها الذي ينام مَعها كُل خميس! يَراها ليمونة ذابلة، وأراها تفّاحة فائرة، اللعنة على أفكاري المتّسِخة ودراما الحياة الرخيصة التي تشبه مسلسل «The Bold and The Beautiful»..

- أنا مِحتاجة لك.. بلاش تبعد..

- أنا لو ما بعدتش هتكرهيني.. خلّي فيه حَاجة حِلوة تِفضل..

- أنت خليت جَبَل جليد يتحرك.. وبعدين عاوز تروح!

- خُدي بالك من نفسك يا لُبنى..

أنهيت المُكالمة فأغلقت المَحمُول على قَلبي ورَكبت القِطار، رجرجني إلى الإسكندرية قبل أن أرتمي في حُضن أمّي، أعدت احتلال حُجرتي التي شهدت سنوات مراهقتي وفتحت شبابيكها التي أكل يودُ البحر دهانَها وأخشابها، قابلت قُمصاني المشجّرة، شرائط «Doors» القديمة، والهارديسك الـ«80 Giga» الذي يحوي كنوزًا وروائع أفلام «Porn» السبعينيات ومكتبة «Marilyn Chambers» الكاملة!

استقررت يومين قبل أن أقرأ خبرًا صغيرًا في جريدة عن حريق شبَّ في محل وَشم بمصر الجديدة أسفَر عن مصرع صاحبة المَحل ومساعدها، ولا أثر لشبهة جِنائيّة!!

ذكرى الكَلب الأسود لا تُغادر ذاكرتي، أتخيّله يتابعني أينما كُنت! وسواسه أجبرني على النوم بعد الفجر أكثر من مرّة..

فشلت في الوصول لموزِّع «DMT» يعرف ما هو الفيل الأزرق! ولمّا سألت تاكي تليفونيًّا أخبرني أنّ المنتج مختفٍ من السوق!!

مُلتـزِم بالبيرة فقط في سـابقة هي الأولى مـن نوعها.. لثلاثة أيام كاملة!!

اكتشفت أنّي لا أستطِع مُجاراة ابن أختي، قِرد صغير يلعب فوقي أربعًا وعشرين ساعة في اليوم، ولا ينام! كما أنّه يَعشق شوربة الخضار التي أهجرها مسافة شهر، تفوح منه رائحتها أينما ذهب!!

وجدت نفسي أوتوماتيكيًّا أعود للقاهِرة بزحامها وعوادِمها ووحدتي المحبّبة لنفسي..

علّقت صور ابنتي وزوجتي على الجدران ثانية، واسترضيت جارتي مدام كوثر بشال أخضر كان لزوجتي نرمين؛ فقد حلمت بها؛ لأول مرّة، وطَلَبَت منّي أن أهبها الشال لأنها أبدت إعجابها به

مرّة، صدّقتني جارتي لأن الواقعة كانت سرًّا بينهن، أخذت الشال فبكتْ واحتضنتني قبل أن تناولني طبق رزّ بلبن بائت!

بِتّ أقضي ليلي كلّه تقريبًا عِند عوني، واكتشفت مع الوقت أنّ «شاكِر» إنسان، وله مشاعِر، كما تأكّدت أنّه يعاني ضَعفًا جِنسيًّا أساعده نفسيًّا في تجاوزه بعدما اعترف لي وبكى!

رحلتْ «نيجوزي» لبلدها بلا رَجعة بعدما تعاركت مع عوني، سألتها قبل أن تُغادِر عن السلسلة التي أعطتها لي فقالت إنّ فيها تحويجة معطّرة، خليطًا من البخور يَدفع الأرواح الشرّيرة، وقالت إنها رأت يَومها ظِلًّا داكِنًا يتحرّك بجانبي! سألتها إن كان لها أصول مِصرية أو عربية؟ فأخبرتني أن لها جدّة حَبشيّة عاشت في مِصر يومًا ما!

عَرفت من محسن أن التقرير قد خَرَج من ٨ غرب على يد دكتور كيلاني، بأن شريف «بنسبة كبيرة» يُعاني خَللًا نفسيًّا، وإن لم يُشر لوجود خلل عقلي يعفيه من مسئولية الجرائم، خاصة بعد اعترافه..

حكمت المحكمة عليه بعقوبة خمسة عشر عامًا لأن الشكّ يُفسّر لصالح المتّهم، فحُكم خاطئ يفضي لبراءة أو سجن خير من حكم خاطئ يودي ببريء للإعدام..

مَرّ شهران لم أتلقّ فيهما اتصالًا من لُبنى، وأمسك نفسي بالكاد أن أطلب رقمها..

أجلس يوميًّا أمام الإنترنت أبحث في طلسم النكّاح، شغف غريب استولى عليّ بشأن ذلك الكيان الأسود، العزائِم وعِلم الأرقام ومتتالية المربعات، تعلّمت حساب اسم الشخص ورغبته، ثم خلطها وتحويلها لأرقام قبل أن أضعهما في المُربّعات التسعة، مُربعات قد تحمي وقد تَضر، على حَسب وساخة أو طهارة مستخدمها! كما عَلمت أن الأرقام التسعة التي نقلتها من القميص إلى الورقة، هي ترجمة لاسم الله «المانِع» وحسابه بالأرقام حسب الجدول:

المانِع = ١ ـ ٣٠ ـ ٤٠ ـ ١ ـ ٥٠ ـ ٧٠ ويساوي مجموعهما ١٩٢.. و١٩٢ نطرح منه «الآس» وهو ١٢ فتساوي ١٨٠، ثم نقسمها على ثلاثة فتساوي ٦٠، ليوضعوا بعد ذلك في مُربّعات الحماية وفق ترتيب أشبه بنجمة خُماسية تبدأ من الأسفل بذلك الترتيب:

٦٣	٦٨	٦١
٦٢	٦٤	٦٦
٦٧	٦٠	٦٥

ولم يكن ذلك هو الترتيب الذي وضعتهما فيه حين لوّحت بالورقة في وجه شريف!!!

قبل أن أقطب حَاجِبيّ توتّرًا خفتت الأصوات في أذني واختلجت أنوار الغرفة، انقبض صَدري وضَمر إحساسي بأطرافي

حين شعرت بالحُضور، التفتّ بحدقتيّ ناحية الباب فرأيتها؛ زَوجة المَأمون، تَجُر شَعرها على الأرض وَراءها وتقترب، مَشلول تابعتها ولا أقدِر على الحَركة، في غمضة عين بات وجهها أمام وجهي، شعرت بأنفاسها على صدري وحفيف شعرها فوق صدغي تُتَمتِم بنغمة خافتة:

مهما الزمان طوّل..

لا تتجوّز لا رملة..

ولا اللي اتجوّزت لاوّل..

تاكُل في خيرك..

وتذكر جوزها الأوّل..

نظرتْ في عينيّ ثم فَتحتْ فمها ببطء ففتحت فَمي مُقلدًا بلا إرادة، أخرَجت مَادّة رمادية أشبه بالمُخاط، سبحت في المَسافة الضَئيلة بَيني وبينها، بلا جاذبية، قَبل أن تدخل فمي الذي انغلق بضغط كَادت معه أسناني وضروسي أن تتكسّر، ثم انسدّ أنفي، ابتلعت السائِل عَنوة بعد مقاومة لا تُذكَر، لا طعم له ولا رائحة، في غمضة عين أخرى رأيتها عند باب الغرفة تنظُر لي بابتسامة قبل أن تغادر وينسحِب وراءها شعرها على الأرض..

كان ذلك حين انطفأ الكون بنجومه ومجرّاته... بغتة!!

سبتمبر..

درجة الحرارة: ٩٠ C°..

منبّه المَحمول انتزعني من غياهب النوم، رَاقدًا على جانبي الأيسر ألفظ أنفاسي، قلبي مُنسحق في ضلوعي، صَفراء مَعدتي تسلخ حلقي، والعَرق يَكسوني كمُلاكم في جولته الثانية عشرة..

مَددت ذراعي قَسرًا إلى المِنضدة فلَم تتحرّك تنميلًا، نفضتها ليتدفّق الدم فيها قبل أن ألتقط المحمول لأُخرس إلحاح جرسه المُستَفز، بمُعجزة جلَست مُحاولًا استيعاب الزمن، عيناي مُغلقتان بأسمنت سريع التصلّب ورائحة حَلقي مُؤخرة خِنزير ميّت!

قُمت مُترنِّحًا أجتر كابوس ليلة أمس، سيّدة الدار التي زارتني قبل الفجر وأغنيتها التي لا زالت ترنّ في رأسي! تخبّطت حتّى باب الغرفة وخرجت إلى الصالة حين رأيتها مارّة بضفيرة وصلت لِنصف ظهرها، وشورت قَصير خرجت منه ساقاها النيون!

دَعكت عينيّ قَبل أن أتبَعها للمطبخ، لَم تَشعُر بوجُودي حين دخلت، كانت واقفة أمام مِنضدة المَطبخ تقطع الخبز لتصنع ساندويتشًا..

- لُبنى!!

شهقت والتفتت لي ببَطن في شهرها السابع..

- اعمل صوت وأنت ماشي خضّتني حرام عليك..

قالتها ثم اقتربت ولثمت خدّي بقُبلة مُتعجّلة قبل أن ترجع للمنضدة لتصبّ لبنًا في طبق كورن فليكس..

- أنتِ بتعملي إيه هِنا؟

- باعمل ساندويتشات لهانيا.. والنّبي إملا لها الزمزميّة؛ الباص زَمانه جَاي!

قالتها ودَسّت زمزميّة بلاستيكية تحمل رسمة «Winnie the Pooh» في يدي وخرجت مُسرعة تَدُقّ الأرض بشبشب وَردي، خرجت وراءها أبحث عن الفيل الأزرق ولم أجده، الشمس تمارس الجنس مع عينيّ بلا حياء، بالكاد لمحتها تدخُل غُرفة ابنتي، لمّا تبعتها رأيتها جَالسة على السَّرير، وهانيا ابنتها بين ساقيها توليها ظهرها لتُسلّك شعرها بالفرشاة، تَسمّرت فاقدًا القُدرة على الاستيعاب حتّى التفتت لي الطفلة وابتسمت، قبل أن تقوم لُبنى وتلتقِط من يدي الزمزميّة:

ـ يا كسلان!! خُش الحمّام أنت اللي هتتأخّر ع الشُّغل.. يلَّه.

قالتها ودفعتني ناحية الحمّام حين أطلق الأوتوبيس بوقه..

ـ يا لهوي!! الباص جِه.. يلَّه يا هانيا.. بُوسي يحيى..

أقبلتْ عليّ الطفلة وقبّلتني بابتسامة نائِمة، ملأتْ لُبنى الزمزميّة قبل أن تفتح لها الباب وتُطلِقها في الحديقة وترسل وراءها قبلة في الهواء ثم أغلقت الباب وتأمّلت وجهي بدهشة:

ـ ما لك عامِل كِده ليه؟!

ـ أنتِ إزّاي...؟! حَصل حَاجة مع خالِد...؟!

قطبت جبينها حين سمِعت اسم خالد ثم جلست:

ـ آخر مرّة في التليفون كان غِلس جدًّا.. بس هييجي ياخُد هَانيا النهاردة يخرّجها.. اشترطت عليه يرجعها بدري عشان المدرسة مش زي آخر مرّة.. وهيجيب بقية القسط بتاع الترم التاني..

ـ لُبنى.. أنا مش فاهِم حاجة.. أنتِ اطّلقتي؟!

فَلَتَت مِنها ضحكة عالية قبل أن تُشير لبطنها المنتفِخ..

ـ لو ما كنتش بطّلت شُرب كُنت صدّقتك!! يلَّه أنت اتأخّرت.. الساعة سبعة ونُص..

قالتها ودفعتني دفعًا نَاحية الحَمّام، في الطريق مَررت بصُورة

على الجِدار، صُورة تجمعني بلبنى، أرتدي بدلة عريس وترتدي فستان عروس، وبيننا هانيا!!

ـ لبنى.. إحنا بقى لنا قد إيه متجوّزين؟!

ـ يا يحيى بطّل رخامة!!

ـ بجد..

ـ نسيت!!

ـ ردّي بس..

ـ سنتين وتلات أيام.. يلَّه..

ـ اتجوّزنا إزّاي؟

ـ أنا مش مصدّقة رخامتك النهاردة!!

ـ ردّي بس عليّا..

نفختْ في ملل ثم أحاطت رقبتي بذراعيها:

ـ نِسيت لما طلبتني وقلت لي محتاج لك؟! نسيت لمّا سألتني إيه مَعني نقضي عُمرنا متعذّبين؟! نسيت الفيلم اللي عملناه عشان نبقى مع بعض؟!

ـ وبعدين؟!

ـ وبعدين طلبت الطلاق من خالد.. إيه يا يحيى مالك النهاردة؟!

ـ أنا خليتك تطّلقي من خالد؟!

ـ أنت خلّتني أسعد إنسانة في الدُّنيا.. يلَّه هتتأخّر..

لثمتني بقُبلة مُتعجِّلة ثم دفعتني للحمّام، أغلَقَت الباب ورائي وابتعد صوتها، وقفت متيبسًا أتأمّل نفسي في المرآة، أغمضتُ عَينيّ مُحاولًا تذكُّر ما شربت بالأمس حين باغتتني زيارة زوجة المأمون وإفرازها الهلامي في فمي، امتعضت فصفعت وَجهي لأفيق، تألمت قبل أن تُحاصرني الهواجس والاحتمالات، هل ما رأيته لم يكن سوى كابوس عجيب؟ كيف وإبهامي المثقوب لا زال يؤلمني بسبب خروج الخنفساء! هل تناولت قرص الفيل الأزرق المتبقّي وأنا الآن في رحلة جديدة؟ هل غيّبني نائل لأستيقظ في لُعبته بعدما قررت الابتعاد عن لُبنى؟ اللعبة التي احتل فيها جسد شريف ومن قبله المأمون.

لم تَطُل أسئلتي كثيرًا، لحظات وشعرت بالحرارة تستعِر على جلدي؛ جِلد ذراعي الأيسر! خلعت القميص الذي أرتديه فرأيت وَشمًا داكِنًا يَتمدّد من الكتف لينتهي في كفّي، تَقطعه بالعَرض خطوط تتلوّى لتنغلق كالسلاسل حول ذراعي، نهاية كل منها مشبوكة بحرفَيْ «ص» مُتعاكسين..

وشم يتحرّك كفروع اللبلاب.. ببطء..

شكر خاص

د. حسام صبري.. د. وائل إمام.. د. منى الشرباصي.. د. منال العطار.. د. هبة صبري.. محمد الغزالي.. رامي الجرواني.. أ. عمرو الدسوقي.. د. تامر إبراهيم.. خالد ذُهني.. عمرو برادة.. حيدر.. هالة.. نرمين نعمان.. لينا النابلسي.. محمد ناير.. محمود حسيب.. إيمان أسامة.. أ. صنع الله إبراهيم.. مروان حامِد..

الفيل الأزرق

بعد خمس سنوات من العُزلة الاختيارية يستأنف د. يحيى عمله في مستشفى العباسية للصحّة النفسية، حيث يجد في انتظاره مفاجأة..

في «٨ غرب»: القسم الذي يقرّر مَصير مُرتكبي الجرائم، يُقابل صديقًا قديمًا يحمل إليه ماضيًا جاهد طويلا لينساه، ويصبح مَصيره فجأة بين يدي يحيى.. تعصِف المفاجآت بيحيى وتنقلب حياته رأسا على عقب، ليصبح ما بدأ كمحاولة لاكتشاف حقيقة صديقه، رحلة مثيرة لاكتشاف نفسه ...

أو ما تبقى منها.

يأخذنا أحمد مراد في روايته الثالثة إلى كواليس عالم غريب قضى عامين في دراسة تفاصيله، رحلة مثيرة نستكشف فيها أعمق وأغرب خبايا النفس البشرية..



أحمد مراد: كاتب مصري من مواليد القاهرة ١٩٧٨، تخرّج في مدرسة «ليسيه الحرّية» قبل أن يلتحق بالمعهد العالي للسينما قسم التصوير السينمائي، تخرّج عام ٢٠٠١ ونالت أفلام تخرّجه «الهائمون - الثلاث ورقات - وفي اليوم السابع» جَوائز للأفلام القصيرة في مهرجانات بإنجلترا وفرنسا وأوكرانيا..

بدأ كتابة روايته الأولى «فيرتيجو» في شتاء عام ٢٠٠٧، ونُشرت في العام نفسه قبل أن تُترجم للإنجليزية والفرنسية والإيطالية، وتم تحويلها لمسلسل تلفزيوني عام ٢٠١٢.. ثم أصدر روايته الثانية «تراب الماس» في فبراير ٢٠١٠ لتحتل قائمة أكثر الكتب مبيعًا قبل أن تترجم للإيطالية.أصدر روايته الأخيرة «الفيل الأزرق» في عام ٢٠١٣ و يتم تصويرها حاليًا كفيلم سينيمائي. حصل على جائزة البحر الأبيض المتوسط للثقافة عن روايته «فيرتيجو» تحت رعاية وزارة الثقافة الإيطالية عام ٢٠١٣.



دار الشروق
www.shorouk.com